جامعة وهران 2
كلية العلوم الاجتماعية
قسم **علم الاجتماع**
اطروحة
لـــــنيـــــل شهادة **دكتوراه علوم**
في **علم الاجتماع التنمية**

كـــــتـــابات فرانز فـــــانـــــون وأبعـادهـــا السيكوسوسيولوجـــــية في الكشف عن التغيّرات الرّاديـــــكالـــية للشخصيّة الجزائـرية في مواجـــــهة الاستعمار

من إعداد الطالب :
حيفري عبد الحميد

الأستاذ المشرفّ:
العـــلاوي أحـــــمد

تشكيلة لجنة المناقشة :

اسم و لقب الاستاذ	الرتبـــــة	الصفة	مؤسسة الانتماء
عـدة بوجـلال عبد المالك	أســـتـــاذ	رئيسا	جامعة وهـــران 2
العـــــلاوي أحـــــمد	أســـتـــاذ	مقررا و مشرفا	جامعة وهـــران 2
نـــجـــاح مـــبـــارك	أستـاذ محاضر أ	مناقشا	جامعة وهـــران 2
سيكـــوك قـــويـــدر	أســـتـــاذ	مناقشا	جامعة البيـــض
مـــــزوار بلـــخـــضر	أســـتـــاذ	مناقشا	جامعة تلمســـان
بومعـــــالـــي رشيـــد	أستـاذ محاضر أ	مناقشا	جامعة سـعيـدة

الموسم الجامعي
2020/2019

كتابات "فرانز فانون" وأبعادها السيكوسوسيولوجية في الكشف عن التغيرات الراديكالية للشخصية الجزائرية في مواجهة الاستعمار

إهـــداء

أهـدي ثـــمـرة جـهـدي

إلى عائلتي التي حرمتـها رعايتـي أثناء انجاز هذا البحث

إلى ابـنتي أنيـسة التي ساعدتني في ترتيب هذه الدراسة،

إلى كل من يحمل في قلبه حب الجزائر .

شكر وعرفان

اسمى عبارات الشكر والعرفان لمجلسنا العلمي المتقبل لدراستنا هذه، لوزارة التعليم العالي المتقبلة لنشرها.

فـهـــرس الـمـوضـــوعـــات

الـــمـــــوضـــــوع **الصفحة**

شكر وعرفان 1

اهداء 2

المقدمة : 4

الباب الأول :

الفصل الأول : المشكلة واعتبارها 21

الفصل الثاني : التطورات الفكرية والتحولات الايديولوجية لـ "فانون"..... 53

الباب الثاني

الفصل الأول : مفهوم الشخصية ومحدداتها في الجزائر 87

الفصل الثاني : الدلالات العامة للشخصية الجزائرية من خلال كتابات فرانز فانون..... 103

الفصل الثالث : ميزة دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية وميكانيزم الاستعمار لتحطيمها في تحليلات فانون..... 126

الفصل الرابع : السمات الثقافية في كتابات « فانون » 148

الباب الثالث

الفصل الأول : جدلية العنف الثوري الراديكالي في كتابات «فانون»..... 173

الفصل الثاني : الفكر التنبؤي ما بعد الكولونيالي لـفانون 199

الفصل الثالث : مـــنـــاقـشـــة الـفـرضـيـــات 226

الخاتمة 241

قائمة المصادر والمراجع : 260

الملاحق :

الملحق الأول :ترجمتنا لمقدمة فانون ولفصلين من كتابه "سوسيولوجية ثورة" ذات علاقة بالدراسة الحالية.... 282

الملحق الثاني : رسائل فرانز فانون..... 380

الملحق الثالث : صور..... .385

مقـــدمة

نود في موضع هذا البحث أن نستلهم الطريقة التي ابتكرها "فانون" و هو يحاول ان يركز فكره و قلمه على الشخصية الجزائرية المناضلة وقت الثورة من أجل تحديد معالمها، باعتبار أن هذه الشخصية شخصية مؤقتة انبثقت بفعل الموقف الخارجي الذي كان يتهددها قبل الاستقلال ....

و اذا صح هذا فقد تألف لدى المجتمع الجزائري بناء جديد من الشخصية لمواجهة الاستعمار بصوره الغاشمة أثناء فترة الاحتلال و تألفت بالتبعية لديه شخصية جديدة أو بمعنى أصح بناء جديد من المواقف لمواجهة تلك التي كان يجد نفسه مضطرا الى اتخاذ سلوك معين حيالها

و دار بخلدنا أن نلجأ إلى أعمال "فانون" بوصفها شاهدا واقعيا على ما كان يدور من أحداث خلال الثورة – فقد تابع "فانون" سيرورة هذه الثورة خطوة بخطوة مسجلا تطورات الشخصية الجزائرية في بنائها الحضاري وتغيراتها المفاجئة في مواجهة المستعمِر –

يقول فانون في مقدمة "سوسيولوجية ثورة"[1] : "لقد نشأ فوق الأرض الجزائرية مجتمع جديد ... فرجال الجزائر ونساؤها لا يشبهون رجال ونساء عام 1830، كما لا يشبهون رجال ونساء 1954 ولا رجال ونساء 1957 . فالجزائر القديمة قد انتهت."

[1] Frantz Fanon : « Sociologie d'une révolution » – Ed. Maspéro –Paris 1968 - Page 08
(ترجمة شخصية منّا لهذا الكتاب مسبوقة بدراسة خاصة أوضحنا فيها بعضا من الإشكالات التي عالجها "فانون" في مؤلفه هذا، نشرناها بمطبعة " المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية " – وحدة الرغاية – الجزائر العاصمة – عام 1985 - وقد ألحقنا ترجمة المقدمة لهذا الكتاب وفصلين منه نهاية هذه الدراسة)

نحن واعون أنه من الخطإ اعتبار كتابات "فانون" كلها معبّرة عن خط فكري وسوسيولوجي واحد متكامل، ذلك ان جزءا كبيرا مما تناوله "فانون" يمثّل إنفعالات مع الأحداث الجارية إبان الثورة تَأثّر بها. ومن هذه الانفعالات عامل انتمائه إلى شعب افريقي يصارع العنصرية البيضاء التي طالما عانى منها. غير أن استجلاء مظاهر أحداث الثورة وتطوراتها السياسية والعسكرية وما شاهده بعينيه من أعمال وحشية بشعة قامت بها القوات الفرنسية أثرت في فكره وطورت كراهيته للاستعمار من مجرد بغض واحتقار إلى إصرار وعمل وموقف ايجابي يفرضه عليه ضميره وتعطشه للحرية.

"بوصفي رجلا ملونا عايش التجربة العنصرية في فرنسا - يقول "فانون" - يسهل علي أن أتقمص موقف المستعمَر. اعترف من دون صعوبة مدى التوازي فيما بين عقلية المستعمِر والتصرف العنصري للبيض في بلدي..." [2]

وذلك في النهاية هو التفرّد التاريخي الحقيقي لهذه الدراسة

[2] Albert Memmi « Portrait du Colonisé - n°2 Ed. Gallimard 1985 - P.112 (ترجمة شخصية لـ :)
« En tant qu'homme de couleur qui a vécu l'expérience raciale en France, il m'est facile de m'identifier au colonisé. Je reconnais sans difficultés le parallélisme entre la mentalité du colonisateur et l'attitude raciste des blancs de mon pays »

أولا : أهمية الدراسة

يعد موضوع هذه الدراسة من الموضوعات الحيوية التي تعالج تراجم الشخصيات الفاعلة في التاريخ زمانا ومكانا، والتي تثير الكثير من الجدل والنقاش بين الباحثين المتخصصين والكتاب الهاوين بصورة عامة.

أما الشخصية محل الدراسة فهي صوت من أصوات الثورة الجزائرية البارزة، سخر قلمه لخدمة قضيتها وفصاحته وثقافته في الدفاع عن مصالحها، فأسال كثيرا من الحبر وشغل جيلين من الكتاب ظلّوا يتسابقون إلى استجلاء كنهه ، والتعريف بحقيقته

في خضم الصراع المحموم بين الاستعمار الفرنسي والثورة الجزائرية، كتب "فرانز فانون" أهم مؤلفاته وأجودها قيمة .

إن مشكلة الدراسات الأكاديمية الموضوعية للهوية الجزائرية مطروحة اليوم بشكل ظاهر. ونظرا لحاجة الجزائر إلى عمل فكري يصدر عن صفوفه ، فقد جاءت كتابات "فانون" لتستدرك هذه الحاجة وتشبعها. فكانت كتاباته الممجِّدة للشخصية الجزائرية وللثقافة الوطنية ملهما لدعاة الفرد عموما نظرا لتعدد جوانب فكره وعلاقاتها بالدراسات الثقافية والسوسيولوجية والسياسية. لقد أبرز "فانون" الشخصية الجزائرية بوصفها المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون للتخلص من الاستعمار مؤكدا في كتاباته أن الحفاظ على الثقافة الوطينية وقيمها والتمسك بها بات سلاحا فعالا في مواجهة الاستعمار، وهو الذي كان قبل سنوات فقط يدعو الشعوب المستعمَرة إلى التخلي نهائيا عن ثقافتها وقيمها والاندماج كليا في ثقافة

أوروبا إذا أرادت التخلص من عُقَدِها بدل اللجوء إلى تاريخها وماضيها وثقافتها وأساطيرها لإثبات قوتها وعظمتها حيال الأبيض المستعمِر، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في دراستنا هذه .

لذلك اتجهنا إلى مؤلفاته لنستخلص منها البناء الذي اهتمت به الشخصية الجزائرية لمواجهة النظام وضروراته أثناء الثورة – و آثرنا أن نتبع أعماله لاستخراج صورة كاملة لهذه الشخصية كما تجلت في كل التصرفات وأنواع السلوك التي بدت منه أثناء النظام الثوري، كون "فانون"استطاع ان يرى المجتمع الجزائري بعين ثلاثية المنظر - ان صح هذا التعبير - مما ساعده على اكتشاف معظم الملامح والتضاريس.

فقد رآه :

1- بعين المثقف الغربي، حيث كان يمتلك أداة التحليل والتفلسف والتنظير من "الخارج"

2- بعين المتعاطف مع هذا الشعب ومع ثورته، بوصفه كان أيضا موضوع عنصرية الاستعمار

3- ومن "الداخل" ، بعد التحاقه بصفوف الثورة الجزائرية واندماجه فيها كلية

و أول ما نسجله في هذا الصدد هو أن الشخصية التي عبر عنها "فانون" في مؤلفاته تكاد تكون مجموعات من الأبنية الحضارية و الثقافية و السياسية التي تبناها الجزائري ووضعها أمام الاستعمار كدرع يتقي به كل الأبنية الخارجية التي يحاول الاستعمار أن يفرضها عليه فرضا .

نحن نعتقد منذ البداية أن "فانون" تلقى كل انطباعات النضال الثوري الجزائري بروح شفافة ومستقرة لأنه منذ البداية لم يكن ينتمي إلى اليسار إلا من ثلاثة أوجه :

1) أن اليسار بعد الحرب العالمية الثانية أصبح يمثل لدى الكثير من المضطهدين في العالم الباب الوحيد للخلاص من نير الاستعمار ومن الظلم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية.
2) أن إيديولوجية "فانون" اليسارية كانت تمثل قوة المثقف المناضل الذي لا يستطيع أن يواجه الاستعمار بالحرب فيواجهه بالعداء وذلك انعكاس لا لوضعية الظلم الاجتماعي وحده بل هو للظلم العنصري أيضا الذي كان «فانون»يعاني منه الكثير.
3) أن "فانون" كان حريصا على إتباع منهجية فينومينولوجية ولم يكن يتيسر له أن يتعرف على هذا المنهج، إلّا من خلال الفرنسيين الماركسيين أنفسهم ممن كانوا يقومون بالتبشير بهذه المناهج الظاهرية الجديدة. ومن هؤلاء "ميرلوبونيي" الذي خرج في النهاية على فكرة الجدل الماركسي وحولها إلى ظاهرية جديدة.

فإذا سلمنا بهذه الفروض لن يكون أمامنا سوى أن نرفض مبدئيا فكرة أن "فرانز فانون" قدم إلى الثورة الجزائرية مفهوما كاملا مسبقا عن طبيعة النضال من الناحية الثورية اليسارية، وإن كان قد تأثر بها تأثرا كبيرا. ومعنى هذا بعبارة أخرى أن "فانون" كان قد اندمج في هذه الأفكار وعرفها ولكن لا يمكن القبول بأنه كان ملتزما بها بالصورة المطلوبة من رجال اليسار.

ودليلنا على هذا أمران :

1- أن "فانون" طبق المنهج الظاهري تطبيقا رائعا من أجل استخلاص ملامح الشخصية الجزائرية في مؤلفاته ومن أجل توضيح دورها في الثورة وهو ما لم يكن

يمكن أن يحدث لو كان فكر "فانون" لا يزال يدور في فلك منهجية الجدل الـماركسي بالنظر للتعارض بين الـمنهجين.

2- أن انخراط "فانون" في صفوف الثورة الجزائرية إنـما كان سعيا وراء متابعة حركة هذه الثورة خطوة بخطوة

فعامل الدين كان بارزا لدى الشخصية الجزائرية وعامل القومية كان واضحا وعامل الشرف الأنثوي كان جليا بيّـنا وعامل الإيـمان بالآخرة وبالشهادة في سبيل الله كان ثـابتا في كل خطوة يمر بها المسلم المقاتل بل لقد كانت الثورة الجزائرية حربا إسلامية ضد مستعمر يريد أول ما يريد أن يقضي على الدين وعلى الشرف العربيين. وإذا كان الجزائري قد التزم بكل هذا فهو يلتزم به بطبيعة الحال لأنه نابع من تاريخه وقوميته ودينه ووضعيته كعربي مسلم ... ولا يمكن أن يدخل في هذه "الـمعميات" الثورية إن صح هذا التعبير (لأنها لا يمكن إلا أن تكون كذلك من وجهة النظر الثورية الـماركسية) بوصفه ماركسيا من حيث العقائدية لأن أبسط ملامح النضال عند الطرفين كانت ستصبح متباعدة تباعدا كبيرا فيـما بينها.

ولا شك أن قضية عدم الانتـماء الـماركسي عند "فانون" تهمنا هنا بصفة جادة لأنها تبيح لنا أن نفترض في شخصية "فرانز فانون" أنه كان علميا في نظريته الاجتـماعية وأن منظوره الاجتـماعي كان يخضع كليا لـمقومات علمية تشهد لكتاباته بالأصالة في ميدان علم الاجتـماع الحديث .... هذا فضلا عن منهجية جديدة اقتبسها من الفلسفة الظاهرية لكي يكون منهجه في استقصاء الوقائع والظواهر الاجتـماعية داخل إطار التحرك الثوري الجزائري.

وقد حاولنا أن نؤكد من جانبنا هذه الأسس العامة التي يتبعها في تخطيط هذه الدراسة حتى نلقي بدورنا أضواء ساطعة على أعـمـال «فانون» التي اتخذناها أرضية نتحرك عليها في بحثنا.

إذا تتبعنا أعـمـال «فانون» فسنجد أنه يمضي في سياق موحد بلا تقطع ولكن مع عدد من التوقفات التي تناسب طبيعة استشفاف واستخلاص الـماهيات والدلالات الـمعبرة عن حقيقة الشخصية الجزائرية. بل إن "فانون" كان يدرك بوضوح أن عمله هنا فيـما يتعلق بوصف التجربة الجزائرية لا يؤدي إلا لشيء واحد وهو إبراز الشخصية الجزائرية، ويدرك هو نفسه هذه الحقيقة إدراكا لا شك فيه لأنه كان يعتقد - كما يقول هو نفسه في كتاب "سوسيولوجية ثورة" - أنّ الموقف الاستعماري يجعل الأشياء تأخذ طابعا خاصا، وعلى أولئك الذين يحاولون أن يستخلصوا الشخصية الجزائرية الأساسية أو يعمدون إلى معرفة نفسية المواطن الأصلي .... على أولئك جميعا أن يفهموا فهما واضحا بأن ذلك غرور لا يمكن تحقيقه في صورة علمية واقعية أثناء فترة الصراع من أجل التحرير. ومما لا شك فيه أن الأخصائيين في التربية الصحية الأساسية، يفكرون بإمعان في هذه المواقف الجديدة التي تتفجر أو التي تلوح خلال صراع التحرير الوطني لشعب متخلف. ومن ذلك الوقت الذي يتطلع فيه جسم الأمة أن يخلق لنفسه طريقة ديناميكية متـماسكة من أجل الحياة، يصبح كل فعل من الأفعال مـمكنا، وبالتالي فلا يمكن في هذه اللحظات المليئة بالصراع أن نستكشف نمطا موحدا للشخصية الجزائرية.

جميع الهياكل القديمة التي كانت تطبع عادة العلاقات فيما بين المستعمِر والمستعمَر تمت تصفيتها في الحين بصورة عنيفة. فقد تبنى الجزائري شخصية جديدة وإيجابية وفعالة تتغذّى من

يقينه بأنه يعيش فترة مفصلية من تاريخه ، شخصية تسمح لنفسها بالقيام بأي تصرف من أجل بلوغ الهدف النهائي

لقد انتهج الاحتلال الفرنسي حال دخوله الجزائر خطة محكمة بدأها بمحاولة حرمان افراد المجتمع من مصادر رزقهم التي تؤمّن لهم بقاءهم وعناصر قوميتهم، ثم حرمانهم من مصادر المعرفة قصد تجهيلهم وقطع الصلة بين موروث أجدادهم لتهيئة الظروف أمام ادماجهم في الثقافة الفرنسية، وهو ما كان له انعكاس وآثار داخل البناء الاجتماعي للمجتمع الجزائري

لقد أعلن الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر حربا شاملة على كل المستويات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مستهدفا بذلك تدمير المجتمع الجزائري في تركيبته الاجتماعية وفي مقومات هويته الوطنية.

ومن المعلوم أن السلطات الاستعمارية ركزت على التضييق على الثقافة الوطنية بمحاربتها بشتى الوسائل ساعية إلى تشويه التاريخ الجزائري وتمجيد التاريخ الفرنسي في محاولة منها إلى ربط مصير الجزائر بفرنسا. كما ارتكزت الاستراتيجية الفرنسية في المجال الثقافي هذا على هدم كل البنى الثقافية والروحية التقليدية حَالَّةً محلها بُنىً غَرْبيّـة وغَرِيبة عن المجتمع الجزائري، موظفة المدرسة والبندقية في ضرب ما هو وطني وموفرة جميع وسائل الاختراق كالتطبيب والعمل الخيري لأجل تكوين جيل متنكر لماضيه وحاضره.

ان البحوث الجزائرية حول الثورة الجزائرية باستثناء محاولات قليلة لا نجد فيها تصنيفا علميا يمكن أن يشكل تمهيدا لبحوث معمقة .

ولئن كانت نصوص الثورة الجزائرية تصدر في معظمها باسم جبهة التحرير الوطني ، فان الأضواء قد سلطت بقوة – و منذ سنة 1957 – على كتابات الدكتور «فرانز فانون» لكونه اعتبر ابنا للثورة الجزائرية نضج فكره محتكا بها و متفاعلا معها .

وما كان يعبر عنه "فانون" في مؤلفاته بخصوص الشخصية الجزائرية لم يكن بالمعنى الفكري أو الايديولوجي ، بل بالمعنى النفسي و بالمعنى المرتبط بدلالات الطب النفسي ، لأنه كان طبيبا للأمراض النفسية ، و كلامه عن الشخصية الجزائرية ، و إن كان مصوغا في قالب أدبي فهو يعبر عن دراسة نفسية لهذه الشخصية من الدرجة الأولى-

ففانون، هذا المثقف المارتنيكي المندمج في قاعات باريس وأوساطها الثقافية سيتحول إلى مناضل للثورة الوطنية الجزائرية والاستقلال الإفريقي، وسيكمن مصيره في مقدرته على إدراك المشاكل، لا في المجال المحلي فحسب، ولكن في النطاق الدولي الواسع. فبعد أن منعته وضعيته بالمارتنيك من اكتساب صفة مناظل ثوري بجزرها، فتحت له معركة التحرير الجزائري امكانية المشاركة في تحرير القارة بكاملها والتعبير بمظاهرها العامة ومشاكلها العميقة.

وقد وضح استخدام هذه الامكانيات المقالان اللذان أصدرهما عامي 1952 و1955 تحت عنوان "أمراض شمال إفريقيا" و "الافريقيون وسكان الآنتي"، حيث كان "فانون" في هذه الفترة قد أنهى دراساته في الطب النفسي، وكان عليه آنذاك أن يوضح بصفة علمية مرتبطة بخبرته الطبية وضعية الرجل الخاضع للاستعمار، وضعية عاشها ويعيشها، جسمت تجربة شخصية ساعدته على اكتشاف الملامح الكبرى لشخصية هذا الرجل المستعمِر وطاقاتها العظيمة في مواجهة هذا الاستعمار .....

لقد اختار «فانون» أن يعمل في الجزائر – بلد الاستعمار يومئذٍ – ليعيش ويناضل ضمن مستعمرين مثله ، وهو الموضوع الذي تناوله في محاضرته تحت عنوان "عنصرية وثقافة " والتي ألقاها عام 1956 في المؤتمر الأول للكتاب الزنوج"[3] "وسيكون التحليل هذه المرة أكبر حدة و الالتزام أعظم قوة و دقة ، إذ سيندرج تعريفه للعنصرية في اطار مجموعة مميزة ، هي "مجموعة استغلال شعب من طرف شعب آخر" ليصل إلى نتيجة واحدة تتمثل في أن " نتيجة النضال المنطقية هي التحرير الكامل للتراب الوطني "[4]

و لم يكن هذا النضال مجرد كلام . فمنذ أن أصبح «فانون» طبيبا للأمراض النفسية بمستشفى البليدة ، اندمج اندماجا مطلقا في صفوف المنظمة الثورية الجزائرية و كان ذلك جنبا الى جنب مع نشاطاته الطبية التي رأى في نطاقها مرضاه ضحايا نظام استعماري يحاربه و يسعى الى استئصال جذوره .

و قد عمل «فرانز فانون» طويلا على جمع كل التحليلات المتعلقة بظاهرة المرض الاستعماري المنظور اليه من خلال الأمراض العصبية ، و انطلق في تفحص العادات والتقاليد المحلية للجزائر و دراسة علاقاتها بالاستعمار ..... وهكذا ظهر من جراء خبرته المكتسبة في قلب المعركة ذاتها، كتابه " سوسيولوجية ثورة" أو "العام الخامس من الثورة الجزائرية.[5]

[3] فرانز فانون في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود – روما – 26 مارس و 01 أفريل 1959

[4] Frantz Fanon : « Racisme et culture » in « Pour la révolution africaine » Maspéro –Paris 1964 – P.37

[5] Frantz Fanon : « Sociologie d'une révolution » – Op. cit

لقد أدرك «فانون»أن الاستعمار يشوه الطبيعة الإنسانية ، فان لم يستطع أن يمحق الانسان الخاضع لسيطرته نهائيا أو يقتلع منه جذور ثقافته و أصالته فانه سيدفعه على الأقل إلى الانغلاق على نفسه و تبني طريقة جديدة للمقاومة هي الاحتماء بأشكال الثقافة القديمة البالية .

و أبرز «فانون»في مؤلفاته مدى تجارب الشعب الجزائري الكبرى فلمس الحقائق الثابتة لطابع شخصية الجزائري، ووضح بدون مبالغة و لا تعصب و لا رجعية من أن تمسكه بالثقافة التقليدية خلال فترة الاستعمار قد اعتبر مظهرا ايجابيا فعالا من مظاهر المقاومة ضد الاستعمار ... ذلك أن الملامح الثابتة للسلوك الجزائري كتعبير عن الشخصية، والملامح الاستثنائية للسلوك الجزائري كتعبير عن مواجهة استثنائية أيضا – والتي هي تعبير عن طاقات جديدة وقدرات عامة - استدعاها السلوك لمواجهة أخطار خارجية وقت الثورة .. وبطبيعة الحال تكون أنواع السلوك هذه ، عندئذ – كما يراها "فانون" – ابرازا واضحا لسمات الشخصية الجزائرية ، من جهة ، ولقدراتها وطاقاتها وقت ظهور الخطر الخارجي ، من جهة أخرى.

والواقع أنه اذا أمكن استكشاف ملامح جديدة عند الشخصية الجزائرية بعد الاستقلال ، فهذه الملامح ليست وليدة التوتر العارض أثناء حرب التحرير، و إنما هي وليدة الاستقرار من أجل البناء، و هما موقفان مختلفان تمام الاختلاف من حيث الأسلوب .. و هكذا تظهر الشخصية الجزائرية بصفات جديدة ، و لكنها كانت بغير شك كامنة في الملامح الشخصية الجزائرية خلال فترة الكفاح الثوري .

سـوف نـرى عنـد استعراضـنا لملامـح الشخصـية الـتي تناولهـا «فـانون» في مؤلفاتـه كيـف عمـل «فـانون» بجهـد عـلى التنديـد بالنظـام الاسـتعماري ، و تَصَـوُّرِ المعركـة المبـاشرة ضـد هـذا النظـام كمعركـة مـن أجـل وحـدة إفريقيـا كلهـا، رابطـا بـذلك مصير الثورة الجزائرية بمصير القارة السمراء بأكملها .

و لعـل الفكـرة الـتي تبناهـا «فـانون» ازاء افريقيـا قـد جسـمتها مهامـه الـتي قادتـه إلى بـلدان إفريقيـا الغربيـة و الـتي رجـع منهـا تعبـا مرهقـا و مصـابا بسـرطان الدم الذي سـيذهب بحياتـه في وقـت غمـر نفسـه ايمـان عظـيم باسـتقلال الجزائـر و اقتنـاع بتحريـر افريقيا كلها .

" إن الأمـة الجزائريـة لم تعـد اليـوم مرسـومة في آفـاق خياليـة ، و لم تعـد وليـدة خيـالات غامضـة قـد اعتجنتهـا الخرافـات و الأوهـام ، ذلك أنهـا قلـب الجزائـري الجديـد ذاته، و هو رجل ذو طبيعة جديدة " و ذو أبعاد مستحدثة لوجوده [1]

في سـباق حقيقـي ضـد السـاعة وضـد المـوت، يسـعى "فـانون" المصـاب بسـرطان الدم إلى تمريـر رسـالة اخـيرة لعـمال المحروقـات وعـمال المـواد المصـنعة المستغلين "انهضوا يا معذبي الأرض"[6]

مؤلفـات «فـانون» كلهـا نـداء وصرخـة انـذار حـول وضـعية الـبلدان المسـتعمرة. فهـو لا يقتصـر عـلى وصـف المجتمـع الاسـتعماري لقـراء يجهلـون منـه كل شيء ولا تحليـل

[1] فرانز «فانون»"سوسيولوجية ثورة " - المرجع السابق ص.12

[6] Frantz Fanon : « Les damnés de la terre » Edition Maspéro, Paris 1961 – Page 141

الوضعية المنحطة للخاضع للاستعمار. إنه يعرض للشعوب تشخيصا عن الألوان الجديدة التي تبتكرها الشخصية الجزائرية من اجل ازالة الاستعمار.

لقد تردد اسم «فرانز فانون» لمدة عشرين سنة، أمكن خلالها تبوّأ مكانة سامية بين المثقفين الفرنسيين. وما فتيء كتابه الاخير "معذبو الأرض" (Les damnés de la terre) أن يتطور من مجرد صرخة في وجه الغرب الاستعماري إلى كتاب ثوري جديد، تنكب فيه حركة الشعوب المستعمرة وتعتبره ملهمها ومرشدها

لعل اهتمامنا بكتب «فانون» في هذه الدراسة دافعه كون مؤلفاته باتت مثابة وثيقة سجلت فعاليات الفكر الفانوني في وقت شارك فيه "فانون" مشاركة فعلية في هذه الثورة، جعلته يكتشف خفايا المشاكل التي تعاني منها الجزائر والعالم الثالث بصفة عامة ، اذ تطعمت أفكاره بها فكان لها أبعد الأثر على مؤلفاته وبالتالي على مساهماته في كشف جوانب من أفكاره كانت مجهولة حتى الآن

ومما لا شك فيه أن كل الذين كتبوا عن «فانون» يتفقون على:

1) أن اسمه بات يقترن بكفاح الشعوب المضطهدة وصراع العالم الثالث عبر الثورة الجزائرية
2) أنه ما كان من السهل على «فانون» أن يسجل خطواته عن تطور الثورة الجزائرية بهذه الروح المتعاطفة مع الشخصية الجزائرية في بنائها الحضاري المتكامل الذي واجهت به المستعمر ... أقول ما كان يسهل أن يتعاطف مع هذه الشخصية الغارقة في الغيبيات كعوامل دينامكية محركة، والغارقة في

التقاليد والملامح البيئية الخاصة، ما كان يسهل عليه أن يتعاطف مع الشخصية الجزائرية بهذه الصورة النضالية الفريدة التي يتسم بها النضال العربي الإسلامي في وجه العدو وهو يبغي التسلط والسيادة. ولعل ما يتجلى من صعوبات في ذلك أن مؤلفات "فانون" التي نشرتها دور النشر "ماسبيرو" قد تعرضت للحجز لكونها اعتبرت كتبا "تطرح مشكلة حرب الجزائر وتعبر عن إعجاب الكاتب للشعب الجزائري المكافح"[7] حيث ما فتئت وسائل الإعلام اليسارية تعاتبه في انتقاداتها هجومه على أوروبا وميوله للريف،* وتندد بكل قوة عن تحيزه، وذلك على النحو الذي يتجلى في تعليقات الصحف المنشورة بداية ديسمبر 1961 والمركزة أساسا على كتابه الاخير "معذبو الأرض" والذي لم يسع "فانون" الحظ في رؤيته منشورا لوفاته ذات الشهر والسنة وعمره 36 عاما.

[7] هرفي هامون، باتريك روتمان : حملة الحقائب، المقاومة الفرنسية ضد حرب الجزائر ، تر: كابويه عبد الرحمان، سالم محمد ، منشورات دحلب، (د.م) ، 2010 ص 333

*الفلاحون والريف هما العنصر الذي استهوى فانون، وساعد على انجذابه نحو الثورة الجزائرية لأنه لا يوجد ميدان بكر أو شبه بكر، خال من التأثير الغربي الذي يحاول أن يفر منه، فالقيمة التي أعطيت لهما كانت منذ اندلاع الثورة ، بل حتى قبلها. اذ تطورت الثورة بالريف وتمركزت به حتى قبل أن يعرفها «فانون»أو يلتحق بها، (محمد الميلي: أضواء على الثورة الجزائرية «فانون»والفكر الغربي، مجلة الثقافة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، ع1، الجزائر، مارس 1971، ص 21-22)

ثانيا : خطة البحث

من خلال تحديدنا للهدف نكون قد رسمنا حدود بحثنا في إطاره النظري الإجرائي الذي يسير وفقه ، وهذا تفاديا للوقوع في إشكالات معرفية و منهجية تنقص من القيمة العلمية و العملية لدراستنا.

ولأهمية البحث فقد خصصنا فصلا كاملا – مباشرة بعد هذه المقدمة – لطرح الاشكالية والفرضيات وصعوبات البحث ومصادره وأهميته وعوامله الذاتية والموضوعية، وهو الفصل الأول المدرج ضمن الفصول التسعة التي تضمنتها الأبواب الثلاثة الآتي بيانها، والتي جاءت على النحو التالي:

- الباب الأول : وانطوى على فصلين ، تعرضنا في:

- الفصل الأول منه : للإشكالية و مناهج الدراسة وخطوات معالجتها
- والفصل الثاني: للتطورات الفكرية والتحولات الايديولوجية ل "فانون"

- الباب الثاني : و انطوى على أربعة فصول تطرقنا في :

- الفصل الاول منه : لمفهوم الشخصية ومحدداتها الثقافية
- والفصل الثاني : للدلالات العامة للشخصية الجزائرية في كتابات فانون
- والفصل الثالث : لميزة دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية وميكانيزم الاستعمار لتحطيمها في تحليلات «فانون»
- وفي الفصل الرابع : للسمات الثقافية في كتابات «فانون»

- وأما الباب الثالث : فتناولنا في :

- الفصل الأول : جدلية العنف الراديكالي في كتابات «فانون»
- والفصل الثاني : الفكر التنبؤي ما بعد الكولونيالي لفانون

- و الفصل الثالث و الأخير منه : مناقشة الفرضيات

- ثم الخاتمة والبيبليوغرافية والملاحق ومن ضمنها فصلان كاملان مترجمان للغة العربية مقتطعان من كتاب «فرانز فانون»"سوسيولوجية ثورة" الذي ، قمنا بترجمته ونشره عام 1985، لهما علاقة وثيقة بالدراسة الحالية

البـــاب الاول

الفصل الأول:
المشكلة واعتبارها

أولا : الاشكالية

اشكالية البحث تتمحور حول جملة من القضايا المرتبطة بالمقاومة الثقافية ضد الاستعمار الفرنسي من خلال التمسك بمقومات الشخصية الجزائرية واختراع أساليب جديدة لمواجهة الموقف الجديد

وتتسع هذه الاشكالية لعناصر عديدة تتكامل فيما بينها، يمكن أن نبسطها في العناصر التالية :

1- ما المرجعيات الفكرية التي استلهم منها «فانون» آراءه ونظرياته التي تتضمنها كتاباته ومقالاته التي هزت أركان السلطة الاستعمارية في زمن قياسي لم يكن «فانون» قد تخطى فيه بعدُ عتبة الثلاثينات من عمره ؟ وما تأثير سياق الثورة الجزائرية على أفكاره وعلى تنامي الثورة في افريقيا؟

2- ما مدى تغيير موقف "فانون" حيال الثورة الافريقية عموما، من كتابه الأول (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) إلى كتاباته الاخيرة (معذبو الأرض) ؟

عرض الاشكالية رقم 01 :

الدراسات عن «فانون» التي ينكب عليها الغرب دون توقف حتى اليوم عبر مناطق مختلفة من العالم أدت الى ترويج فكرة استقرت في الأذهان ترددت لدى الكثير من الباحثين الغربيين مؤداها أنه (أي "فانون") هو الذي أثّر في الثورة الجزائرية تأثيرا حاسما الى درجة أن ثمة من اعتبره هو مُنظِّر الثورة وقائدها، وغفلت متعمدة عن عناصر التأثير التي أمدت بها الثورة الجزائرية "فانون"، فكان لها –

هي (أي الثورة الجزائرية) – أبعد الأثر على فكره وكتاباته بعد ان انضم لهذه الثورة وتطعم بأفكارها.

و لعل توجيه كتابات الغرب هذه الوجهة هي في نظرنا "أبعد ما تكون عن الحقيقة" [8] لأننا نرى أن اهمال تسليط الضوء على مدى تأثير الثورة الجزائرية في "فانون" دافعه نكران الغرب لما كشفه «فانون» في كتاباته من مميزات للشخصية الوطنية الجزائرية التي حاولنا سرد بعض من ملامحها في مؤلفاته و التي كانت هي الحافز لشن الثورة المسلحة المظفرة . علما أنه حتى أولئك الذين سلّموا من الكُتّاب الغربيين بوجود شخصية وطنية جزائرية ابان الثورة اجتهدوا في جعل تكوينها حديثا، "يعود الفضل في تكوينها والوعي بها إلى الوجود الفرنسي".

و مهما يكن، فنحن نرى أن فكر «فانون» قد تطور تطورا بالغا مقارنة مع ما كان يعتنقه ويكتبه في مؤلفه الأول عام 1952 " بشرة سوداء أقنعة بيضاء "[9] والذي تمرَّد فيه على الزنوجة، حيث كان ذلك مقتصرا على التعاطف والمواساة على النحو الذي كان يعتمده عادة حزب اليسار الفرنسي الذي كان "فانون" حينئذ منتسبا له ومتأثرا به أشد التأثير. أما أفكاره في كتابه الأخير فقد ظهر انه قد تمت إعادة النظر فيها جذريا بحيث لم تعد مقتصرة على التعاطف والمواساة، بل صارت متأثرة من تجربته النضالية في خضم الثورة الجزائرية الداعية إلى استخدام الكفاح

[1] Philippe Lucas : « Sociologie de Frantz Fanon » – Contribution à une anthropologie de la libération - SNED - 1971 - Page 87

[9] Frantz Fanon : « Peau noire, masques blancs » Ed. Seuil - Paris - 1952

المسلح للتخلص من الاستعمار ، فراح يستهلم ما عرفه من هذه الثورة من مواقف راديكالية * لينتقل ا لى نوع من الامية ليفهم التناقضات التي كانت تهز افريقيا السوداء و مناطق من العالم ، عارضا تجربته الذاتية الشخصية التي عاشها في الجزائر و تأثر بها نفسيا وفكريا.

1- عن السؤال الأول للاشكالية :

في سياق هذا السؤال أمكن طرح تساؤلات فرعية هي عبارة عن فرضيات:

الفرضية الاولى : تأثير فكر «فانون» على الثورة الجزائرية :

مكَّنَت الثورة الجزائرية "فانون"، مباشرة بعد انضمامه لها كرئيس وفد الجزائر في المؤتمرات الافريقية لمرات عديدة، وكسفير لها في آكرا بغانا، إلى اكتشاف جوانب جديدة لمستعمرات افريقيا أدّت إلى ارتقاء الثورة الجزائرية الى الأممية ، يتجاوز اشعاعها - فضلا عن القارة السمراء - محيط العالم الثالث كلّه، فأبرز في كثير من كتاباته (سوسيولوجية ثورة – معذبو الأرض – لأجل الثورة الافريقية...) ومقالاته الصحفية المتعددة (صحيفة المجاهد، الناطق الرسمي لجبهة التحرير) وخُطبه في المؤتمرات الدولية الكثيرة كممثل للجزائر، أبرز أوجه الصراع الداخلي

* كانت كتابات اليسار الفرنسي والتي كان «فانون» متأثرا بها قبل اندلاع الثورة الجزائرية تسعى في مجموعها الى ربح الضمائر بانتقاد السياسة الحكومية تجنبا لمتاعب أي كفاح حقيقي

والخارجي التي تواجه الثورة الجزائرية، فكان من نتيجة ذلك أن تعرّف الجزائريون على أنفسهم فيما يكتبه "فانون" لتصبح كتاباته مصدر اعتزازهم وفخرهم وأداة الهامهم وارشادهم، ووسيلة للتعرف على مقومات شخصيتهم وضرورة التمسك بها بوصفها السبيل الوحيد للخلاص من الهيمنة الاستعمارية.

تلك فرضية تأثير فكر «فانون» على الثورة الجزائرية .

الفرضية الثانية : (تأثير الثورة الجزائرية على فكر فانون)

اذا كان "فانون" – مما لا نزاع فيه – قد أبرع بسحر قلمه و فصاحته وثقافته في تسليط الضوء على المدلولات التي لها علاقة بمفهوم الشخصية الجزائرية المعتمدة ابان الثورة التحريرة ، ألا يكون مع ذلك بعد انضمامه الكلي في صفوفها و ما حصل عليه من تجربة في ظلها قد تطور فكره تطورا كبيرا ، فكان من تأثير الثورة عليه أن أبعدته عن مجرد التعاطف و المواساة الذي ألفه عند انضمامه لحزب اليسار الفرنسي* لجعل فكره هذه المرة ثوريا راديكاليا، ولتصبح كتاباته -وهو يسرع خطاه ليفرغ من وضع كتابه الأخير (معذبو الأرض) قبل أن يستقبل الموت راقدا في فراشه - كلها صرخة نداء في استخذام العنف الراديكالي في مواجهة الاستعمار عارضا فيها لجميع الشعوب المستعمَرة تشخيصا

*"كانت كتابات اليسار الفرنسي والتي كان "فانون" متأثرا بها قبل اندلاع الثورة الجزائرية تسعى في مجموعها إلى ربح الضمائر بانتقاد السياسة الحكومية تجنبا لمتاعب أي كفاح حقيقي

عـن ألـوان الكفـاح المسـلح الـراديكالي الذي تعتمـده الشخصـية الجزائريـة مـن أجـل ازالة الاستعمار

يقـول "فـانون" في كتابـه "معـذبو الأرض" : " ان هـذا العـالم الاسـتعماري الذي قـام عـلى العنـف لا يمكـن الخـلاص منـه الا بالعنـف" ، و يقـول : "بالنسـبة الى شـعب يعـاني مـن الاحـتلال لا يمكـن لنـور الحيـاة أن يـنزع سـوى فـوق الجثـث المتفسخة لمستعمريه" [10]

تلك فرضية تأثير الثورة على «فانون».

2- عن السؤال الثاني للاشكالية :

إن المـتمعّن في كتـابات "فـانون" المتـأثر بالفلسـفة الماركسـية المرتكـزة عـلى اسـاس الـتخلي عـن الاسـاطير المتصـلة بالمـاضي، يكتشـف أن "فـانون" - وهـو يعـاني مـن العنصرـية - قـد سـعى في أولى كتاباتـه (ومنهـا كتابـه الأول "بشـرة سـوداء أقنعـة بيضـاء) إلى مـا كان يـدعو اليـه اسـتاذه "ايمي سـيزار" واحـد مـن رواد حركـة الزنوجـة الذي تتلمـذ "فـانون" عـلى يـده والذي سـاهم بشـكل كبـير في تشـكيل الـوعي الافريقي لديـه* أي الـتخلص مـن الاوضـاع البدائيـة المزريـة الـتي يعيشـها الزنجـي، للتشـبه

[10] فرانز «فانون»: معذبو الأرض – المرجع السابق - ص 79

* ايمي سيزار، شاعر مارتينيكي كبير ، احد مؤسسي حركة الزنوجة كما تشهد عليه كتاباته "دفاتر الرجوع إلى البلد الاصلي" عام 1939 - وعضو نشط من الحزب الشيوعي الفرنسي. اصبح رئيس بلدية فور دو فرانس وكتب عام 1956 : "خطاب حول الاستعمار

بالغرب اولا ثم الاندماج فيه كليا بعد ذلك، بهدف القضاء على العنصرية من كلا الجانبين، وليس بهدف الحلول محل الغرب العنصري أو محاربته

الفرضية الثالثة: (من تأثره بفلسفة "سيزار" بالاندماج إلى تأثره بفلسفة الجزائر بالمحو الكلي للاستعمار)

إنّ انضمام "فانون" للثورة الجزائرية قَلَبَ أفكاره قلباً، إذ لم يعد يدعو إلى التخلص من الأوضاع البائسة التي يعيشها المستعمِر بتشبهه بالغرب الاستعماري أولا ثم الاندماج فيه كليا بعد ذلك وليس بالحلول محل الغرب الاستعماري أو محاربته، كما كان يدعو بذلك معلّمه "ايمي سيزار" . ومعنى ذلك أنه انتقل من "الزنجي" الذي مثّلَه كتابه "بشرة سوداء اقنعة بيضاء" إلى "جزائري قَلباً وقالِباً" ، تبنى الجزائر وطناً، ومَثَّل ذلك كتابه "سوسيولوجية ثورة" ، والذي يدعو فيه إلى ما دعت الثورة الجزائرية إليه ، أي القضاء على الغرب الاستعماري نهائياً، ومن تمّ، ابرازه في كتاباته عن مدى تمسّك الجزائريين بمقومات شخصيتهم الأصلية والدفاع عنها والاستشهاد باستخدام القوة في سبيلها.

تلك هي الفرضية الثالثة

ثانيا : مناهج البحث

من أجل اختبار هذه الفرضيات تطلبت الدراسة اعتماد المنهج التاريخي الوصفي السردي في عرض الأحداث التاريخية و وصفها ووصف وتشخيص

ظـاهرة التغـير الثقـافي ووقعهـا عـلى الهويـة الثقافيـة بالمجتمـع الجزائـري دون اغفـال التتبع الكرونولوجي لمسيرة «فرانز فانون»

ومحـاولة منـا الارتقـاء بالموضـوع إلى المسـتوى المطلـوب و قبـل مناقشـة هـذه الفرضـيات، ولتوضـيح أكـثر للخطـوات المنهجيـة، قسـمـنا الدراسـة - بعـد المقدمـة - الى ثلاثة أبواب ضمت تسعة فصول.

ففي عنصـر المقدمـة، تم التركـيز عـلى ذكـر أهميـة الموضـوع ذي الصـلة المبـاشرة بالمنظومـة الثقافيـة الايديولوجيـة، ودواعي اختيـاره ، ومحـاولة رصـد وبحـث في ثنـايا تـراث شخصـية ملحميـة ارتـبط اسمهـا باسم الثـورة الجزائريـة، دون اغفـال ذكـر الخطوات التي انتهجها موضوع الدراسة.

أمـا الفصـل الاول مـن البـاب الأول والمتضـمن للاطـار المنهجي للدراسـة ، فقـد تم فيـه عـرض الاجـراءات المنهجيـة مـن خـلال البـدء بطـرح اشـكالية الدراسـة الـتي حاولنـا مناقشـتها والاجابـة عـن تسـاؤلاتها وفروضـها، لنعـرّج بعـدها عـلى بعـض الدراسات السابقة ذات علاقة بالموضوع وعلى أهم مصادر البحث.

وأما الفصـل الثاني فتناولنا فيـه إماطـة اللثام عـن شخصية "فـانون" مـن حيـث مولده ونشأته وكل العوامل التي أسهمت في تكوينه النظري والايديولوجي

وأمـا الفصـل الأول مـن البـاب الثـاني الذي جـاء تحـت عنـوان "مفهـوم الشخصـية ومحـدداتها"، فقـد اعتمـدنا فيـه عـلى التحديـد الاصـطلاحي لأهم المفـاهيم

القاموسية، من منظور سوسيولوجي للكشف على عناصر الشخصية الجزائرية وعلى بعض من النظريات السوسيولوجية المفسّرة لها.

وآثرنا في الفصل الثاني عند تناول "الدلالات العامة للشخصية الجزائرية من خلال كتابات "فانون" " أن نستعرض مجموعة الخصائص الثقافية التي تميّز مجتمعا معيّنا عن غيره من المجتمعات، مما يجعل أفراد هذا المجتمع يشعرون نحوه ببعد الانتماء والانسجام والتكامل ككيان اجتماعي واحد

وعالجنا في الفصل الثالث من الباب الثاني "ميزة دور المرأة الجزائرية في كتابات فانون" ، حيث أدرك الاستعمار أنها عماد الشخصية الجزائرية والعمود الفقري في تقويتها، ومن تم عمل على ضرب هذا الاساس المتين مستهدفا اخضاعها لمآربه . وقد عبّر "فانون" عما كان يجول في خاطر المستعمِر الذي يقول:"إذا أردنا أن نضرب المجتمع في صميم تلاحم أجزائه وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء والبحث عليهن خلف الحجاب، حيث يتوارين وفي المنازل حيث يخفيهن الرجل"[11]

وتناولنا في الفصل الرابع من الباب الثاني "السمات الثقافية" المطروحة بشدة منذ فجر الاستقلال. ذلك أن الذين كتبوا عن التاريخ الجزائري قبل الاستقلال من العلماء المؤرخين دون الجزائريين ، عملوا على خدمة الاستعمار لغرس فكرة الانتماء الجزائري إلى اوروبا عرقيا، مما استلزم الكشف عن الهوية القومية

[11] سوسيولوجيا ثورة - المرجع السابق - الفصل الأول - ص 57

الحقيقية التي أبرز الجزائريون إبان الثورة تمسكهم بها والحفاظ على ثقافتهم الحضارية المبنية على العادات المتوارثة والتقاليد الأصيلة، بعيدا عن الانطواء والرجعية، في صلات اجتماعية لم تكن تحكمها المادة ولم تكن المصلحة الذاتية غاية لها.

وأما الفصل الأول من الباب الثالث فانصب الاهتمام فيه في معالجة الموقف المتجدد لفانون في الدعوة إلى استخدام العنف لتحرير كل المستعمرات في شمال إفريقيا وفي افريقيا السوداء وفي جميع مناطق العالم الثالث التي كانت لا تزال تحت نير الاستعمار، علما أنه ليس تمجيدا للعنف بقدر ما هو ادراك للأهمية النفسية والرمزية التي يحظى بها العنف المضاد للكولونيالية في سياق اختلال التوازن الهائل الذي مثله العنف الكولونيالي

وأما الفصل الثاني من الباب الأخير ، المعنون "الفكر التنبؤي ما بعد الكولونيالي لفانون " ، فقد استعرضنا فيه تكهنات "فانون" التي صاغ فيه سلسلة من الإشكاليات ظلت واقعية على نحو مخيف. فإذا كانت هذه حال معظم الرُّؤيويين الذين يستبقون عصرهم ويتكرّرون في عصور لاحقة بسبب هذه الدينامية الفريدة، فإن "فانون" حمل على ظهره بعض أثقال التاريخ التي لم يكن الكثير الرُّؤيويين مضطرين إلى حملها.

وأردنا في الفصل الثالث والأخير الوقوف على مناقشة الفرضيات لتنتهي الدراسة بخاتمة اشتملت على ما توصّل إليه البحث من نتائج ، جاء فيها اجمالا أن

"فـانون"كان مـدركا لمقتضـيات الصـراع متعرّفـا عـلى اخـتلاف أسـاليب الحيـاة بـين أهـالي السـكان ألأصـليين كـما جـرت الخاتمـة كعـرض تحلـيلي لمكانـة "فـانون" في سـيرورة التـاريخ الجزائـري خاصـة والعـالم الثالـث عامـة ، انطلاقـا مـن القـيم الـتي عاشها ورجوعا إلى المآثر التي خلّدها.

ثالثا : الاطار المكاني والزماني للدراسة

شملـت حـدود الدراسـة الفـترة الممتـدة بـين 1954-1961 و هي الفـترة الـتي تشـمل انطـلاق الثـورة الجزائريـة الى غايـة وفـاة «فـانون»و الـتي كان فيهـا متواجـدا في الجزائـر وفي قواعـدها الخلفيـة بتـونس و المغـرب و في الـبلدان الافريقيـة ، حيث شهد انطلاقها ومعظم أحداثها.

وكانـت هزيمـة "ديان بيـان فـو" الشـهيرة عـام 1954 الشـرارة الـتي حطمـت مقـولة أن فرنسـا لا تقهـر، وبـدأت الـبلدان الافريقيـة تفلـت مـن كماشـة الاسـتعمار خاصـة بعـد مـؤتمر باندونغ عـام 1955، إذ يعتـبر هـذا المـؤتمر نقطـة تحـول عميـق في تاريخ الشـعوب الافريقيـة الـتي أصـبحت بعـده تشـهد حركـة تحـرر شـاملة ضـد كل أشكال الاستعمار والاستيطان في القارة.

وكان للثـورة الجزائريـة الأثـر الـواضح عـلى فكـر «فـانون»وتحـوله بـتلك السـرعة غير المـحسوبة، مـن طبيـب نفسـاني يعـالج العقـدة النفسـية والأمـراض العقليـة، إلى مناضل ومفكر في صفوف جبهة التحرير الوطني حتى وفاته سنة 1961.

رابعا : أسباب اختيار الموضوع

لقد اخترنا هذا الموضوع لعدة اعتبارات منها:

1- أسباب ذاتية :

من منطلق اعجابي الكبير بشخصية «فرانز فانون» منذ ما يقرب عن أربعين سنة، تجسّد بتأليفي كتابا حوله نَشَرته المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية عام1985[12]، مع تحريري لمقالات متعددة حوله بالصحف والمجلات الوطنية ، شخصية تنكر لها أبناء وطنها وضيق الخناق على كتاباتها ، فعاشت في الظل لمدة طويلة

2- أسباب موضوعية:

من منطلق أن "فانون" لم يحظ بما يستحق من الإهتمام الأكاديمي الجاد، حيث أنه على الرغم من الأهمية التي يعرفها هذا المفكر والمناضل من أجل التحرر والحريّة في الفكر العالمي، إلا أنه لم يلق بعدُ في الفكر العربي عموماً، وفي الفكر السياسي على وجه التحديد، المكانة المناسبة التي يتمتّع بها في الدراسات الغربية المعاصرة، رغم أهمية أفكاره وآنيتها. ويزداد الأمر إلحاحاً إذا نظرنا إلى مكانته في الدراسات الاجتماعية والسياسية والتاريخية والفلسفية في الجزائر التي لم تقدّم إسهاماً نظرياً يسمح بالحديث عن مقاربة عربية أو جزائرية خاصة بفكر فرانز فانون، رغم الاحتفال الدوري بمآثره والإشادة بمواقفه، وتسمية العديد من المؤسسات والشوارع باسمه، ولكنها لم تسهم في نشر أعماله ولا في ترجمتها، ولا في

[12] عبد الحميد حيفري :"فرانز فانون" - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - وحدة الرغاية - الجزائر العاصمة - ملحقا فصلان منه بالملحق نهاية هذه الدراسة

دراستها في الجامعات الجزائرية. وما تزال معظم الدراسات المكتوبة باللغة العربية حول هذا المفكر تتّصف بالمحدودية، وتُستخدم إمّا كشهادة تاريخية على الثورة الجزائرية، أو تبرز علاقة فانون بها، أو تخضعه للقراءة التي قدّمها "جان بول سارتر" في مقدمّة كتاب: "معذبو الأرض". هذا في حين أن "فانون" بات يعتبر اليوم كشخصية محورية رائدة في نظرية ما اصطلح بتسميته - بعد وفاته - بـ "الخطاب ما بعد الكولونيالي" (Postcolonialisme) حيث كشف عن إمكانات هائلة على صعيد التنظير الاكاديمي والنقد الثقافي لمشكلات الثقافة والتاريخ، لمسنا فيه مبادئ وقناعات «فانون» التنبؤية لما يجري حاليا بالجزائر

<u>خامسا: الهدف من البحث</u>

ويمكن تلخيصه فيما يلي :

1- التعرض ببعد مهم من أبعاد شخصية «فرانز فانون» من خلال مواقفه وكتاباته
2- ابراز الدور الذي لعبه لانجاز مشروعه في كل من الجزائر وافريقيا وعلى الخصوص ابراز قدرات الشخصية الجزائرية وتحديد ملامحها ورسم صورها في ذاكرة الاجيال استعادة لوعيها بذاتها وارجاعها للثقة بنفسها
3- تخليص كتابات «فانون»من اللبس الذي أحاط بها وحتى الأوصاف التي ألصقت بها في خضم الفكر المعاصر
4- التعريف بـ «فرانز فانون» ، كونه يعد وجها بارزا منذ فترة الدراسات ما بعد الاستعمار ، بل لن نجانب الصواب إن قلنا أنه يمثل الشخصية المتميزة بالنظر الى تشعب و تشابك القضايا العديدة التي تطرح حول هذه الدراسات اليوم،

علـما أن الجهـات الرسميـة الجزائريـة الـتي لم تُعـن مـع ذلك بنشـر أعـماله ولا أو بترجمتهـا أو بدراسـتها في الجامعـات الجزائريـة * ، بينما يـتردد اسمـه منـذ أكـثر مـن خمسـين سـنة في كل محفـل سـياسي وكل تجمـع ثـوري في الـبلدان الافريقيـة وفي أوسـاط الزنـوج بالـولايات المتحـدة الأمريكيـة وفي عـدد مـن الـبلدان الاوروبيـة وفي كامـل أمـريكا اللاتينيـة ، ويُـدوّي اسمـه عـلى غـرار اسم "شي- غيفـارا" شـهرة وتألّقاً.

لذلك تعتـبر مسـاهمتنا هـذه مثابـة الوثيقـة التاريخيـة المسـجِّلة للتيـارات الفكريـة الـتي كانـت تـدور ونـيران الثـورة المسـلحة مشـتعلة، وهي لا تـزال تلعـب دورا مفصـليا في النقـاش الثقـافي الدائـر في العـالم المعـاصر، وفي التأسـيس لنظـريات التحريـر الثقافي، خاصة في حقلي الدراسات الثقافية والدراسات الكولونيالية.

ولعـل المصـير المـدهش الذي لقيتـه كتـابات «فـانون»هـو الذي يفسـر تـلك العنايـة العالميـة بتفكـيره، كـما أنـه في الوقـت الذي تنكـب فيـه حركـة الزنـوج في أمـريكا عـلى كتـب «فـانون»وتعتبرهـا ملهمهـا ومرشـدها، نجـد الدراسـات عـن «فـانون»لم تتوقف في مناطق كثيرة من العالم.*

* عند تناولنا الحديث عن فرانز فانون في معرض تدريسنا لمقاييس في الاتصال وصحافة الثورة ، اكتشفنا – على مرّ سنوات التدريس – أن طلبتنا يجهلونه كلّيا

* لكتابات "فرانز فانون" حضور استثنائي في الجامعات الاوروبية الغربية وفي أميركا اللاتينية وفي الدول الافريقية

تقول الكاتبة أليس شركي : "إن الظرف العالمي الراهن يتطلب التعريف بـ"فانون»لما لصحة بعض الاستنتاجات التي استخلصها في دراسته للحالة الجزائرية وعدد من الحالات الافريقية" [13]

5- الأمل في أن تشكل المعلومات الواردة في هذه الدراسة مجالا يرتاده الباحثون للكشف عن جزء من خبايا الشخصية الجزائرية وهي تتفاعل فتتغير وتغير البيئة الاجتماعية.

سادسا : صعوبات البحث

الواقع أن معالجة مثل هذا الموضوع ليست بالسهولة بما كان . فتناول موضوع الشخصية الجزائرية كثيرا ما تم تغافله في ظل هيمنة الأطروحات النظرية الجزئية، سواء كانت نفسية أو بيولوجية، وابتعاده بالتالي عن البعد الثقافي الذي يعد من الأبعاد الأساسية لهذه الشخصية. فمكتباتنا لا تفتقر إلى نوع من الكتب بقدر ما تفتقر إلى تلك التي بإمكانها سد هذه الثغرة والإسهام في ارساء اطار نظري ومرجعي وثقافي يتناغم مع واقع الفرد الجزائري. هذا فضلا عن أن موضوع الشخصية عموما والأنتروبولوجية النفسية على وجه الخصوص ظل حكرا على الباحثين الاجانب من المنطقة الغربية. وكانت تطبيقاتهم في معظمها تعكس النظرة الاستعمارية ذاتية الطرح، تستهدف خدمة الأغراض الاستعمارية في الأقطار العربية التي بقيت - إلى وقت قريب - خاضعة للسيطرة المباشرة للاحتلال الأجنبي. وحتى إذا استثنينا الباحثين الأجانب الذين استهدفوا تكريس الإحتلال

[13] Alice Cherki : Frantz Fanon - Portrait - Ed. Apic- Alger - Dec.2013 – Page 192

الأجنبي للأقطار العربية، فإن الباحثين الآخرين الذين قاموا بدراسات تستهدف العلم لذاته - على قلتهم - كانوا ينطلقون من بعض الأفكار المسبقة عن المجتمعات العربية مما يحجب عنهم رؤية جزء هام من الحقيقة ويحول دون التوصل إلى نتائج مطابقة للواقع المدروس.

أما الدراسات العربية حول فكر «فانون» عموما فهي لا تزال في تقديرنا مطلبا قائما بالنسبة للفكر العربي المعاصر عموما و الفكر الجزائري على وجه التحديد، بل لا نبالغ إن قلنا انه مطلب ضروري بالنسبة للثقافة الجزائرية المعاصرة التي اهتم «فانون»بها في وقت مفصلي من تاريخها . ومن المؤكد ان معظم النقاد الذين تناولوا حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية و الذين اهتموا بـ «فرانز فانون» أمثال "شارل تايلور" و"اكسال هنات" توقفوا عند كتابه "معذبو الأرض " وأشادوا بأهمية دور هذا الكتاب في صياغة مفهوم الهوية و تشخيصه النقدي للسلاح الذي يمثله المستعمِر والمتمثل في فرض صورة نمطية على المستعمَرين، حيث يبين «فانون»في هذا الكتاب أنه لكي يتحرر المستعمَر فان عليه أن يحرر نفسه من تلك الصورة الدونية والمشوهة التي يفرضها الاستعمار عليه فرضاً.

سابعا : الدراسات السابقة والدراسات المرجعية حول الموضوع

لقد توسعت دائرة الاهتمام بكتابات «فانون» وأفكاره ونظرياته واتسع صداها في اتجاهات مختلفة من العالم، فاحتضنته ثورة الزنوج بأمريكا، واعتبرت أفكاره إنجيلا لها، وجعلته موضوعات لدراسات علمية، وأقيمت الملتقيات

والايام الدراسية* حوله وصدرت مجلدات لمؤلفاته في بريطانيا وأمريكا وجنوب افريقيا، كما شغلت المثقفين في عدد من البلدان الآسيوية كاليابان وايران، وصدرت حوله كتابات بلغات مختلفة اضافة إلى عدد من المقالات بالصحف *

التي تصدرها مختلف التنظيمات والتشكيلات السياسية.

وإلى جانب الاعتماد على بعض المجلات الخاصة التي رصدت أهم الاحداث السياسية والديبلوماسية والاقتصادية والاجتماعية ذات الصلة بموضوع الدراسة كمجلة (Voici pourquoi) التي كان يرأسها جاك سوستيل والتي كانت تدعو لفكرة "الجزائر فرنسية" والمقالات الكثيرة التي وردت في مجلة "الازمنة الحديثة" (Les temps modernes) الصادرة تحت اشراف "جان بول سارتر" والتي شارك فيها معظم المفكرين الفرنسيين أمثال "سيمون دي بوفرار"

* نذكر منها : - آخر يوم دراسي حول فانون - شاركنا فيه - بمدينة "ديجون" الفرنسية ، كان في 2018/04/06 - تحت عنوان « Héritages de F.Fanon dans les arts et la littérature des Ameriques » (الملحق) و الملتقى الوطني الثالث للثورة الجزائرية - باتنة 1990 وأعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة والجدل السياسي - منشورات وزارة المجاهدين - الجزائر 2007 والملتقى المغاربي 2003 (الثورة الجزائرية وبعدها الافريقي) والملتقى الدولي حول الاستعمار - منشورات وزارة المجاهدين - الجزائر والملتقى الدولي الاول حول تاريخ الثورة الجزائرية - جامعة 20 أوت 1955 - 11 و 12 ديسمبر 2006 - سكيكدة والملتقى الوطني الثالث "فرانز فانون" - مديرية الثقافة لولاية الطارف 2006

- Actes du colloque Fanon, CSPRP - Université Paris 7 - Fev 2008 - Ed. en ligne disponible sur http://www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html

* على نحو: - شرف الدين رضوان: "التعديب" قراءة في جريدة المجاهد 1962/1957 - النصر-الجزائر-2013/05/02 - - أفراح أوسامة : "فرانز فانون - حياة مناضل" جريدة الشعب-الجزائر 2015/07/21

- بن سعيد أحمد لخضر: "وداعا ايمي سيزار الرّمز" - الخبر الأسبوعي - العدد 515 - 07 إلى 13 جانفي 2009- الجزائر

- آن ماتيو: "من العبودية إلى العالمية فانون"- جواب امضطهدين مقال http:www.alqabas.com.kw./temp/issus/355c3002

- Ayme Jean : Entretien - in revue Sud-Nord - n° 22 -Ed. Eres, 2007

- Gollay Annabelle : Féminisme et post-colonialisme (Beauvoir, Fanon et la guerre d'Algérie) International journal of francophone studies, volume 10, n°03 - 2007

و"ريمـون أرون" و"ميرلوبـونتي" وغـيرهم وهم كثـيرون وكـذا تـلك الـتي هي واردة بالتفصيل في بيبليوغرافيا الدراسة، على نحو ما هو مذكور أسفله.*

والاطروحـات القديمـة المتمـثلة في تمجيـد المـاضي الاسـتعماري الفرنسـي والـتي استعرضـنا بعضـا مـن جوانبهـا في فصـل "السـمات الثقافيـة في كتـابات فـانون" (البـاب الثـاني: الفصـل الرابـع)، كـما تم الاعـتماد عـلى مـا جـاء في بعـض المصـادر المختلفـة الـتي تتعـرض لتـاريخ الجزائـر الثقـافي كأبحـاث أبي القـاسم سـعد الله[14] ومـالك بـن نـبي[15] ومصطفى الاشرف[16] .

وعـلى بعـض المصـادر العلميـة* والـتي تعـد كمرجـع أكاديمـي وان كان بعضهـا يـعـكـس نظـرة ذاتية تفتقد للموضوعية.

* مجلة الأصالة (أبو القاسم سعد الله): موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر – ع 14 - الجزائر 1973
مجلة النور (عبد القادر حسين ياسين) : الدكتور فرانز فانون ن المفكر الأسود الذي مزق الاقنعة البيضاء– ع26 – 8 ديسمبر 2015
مجلة الثقافة (محمد الميلي) اضواء على الثورة الجزائرية، فانون والفكر الغربي – ع1 – الجزائر – مارس 1971
مجلة الأخبار (تزغارت عثمان) : معذبو الأرض يعانقون فرانز فانون – 2011
مجلة الثورة الافريقية (حمداني حسن) الفكر السوسيولوجي عند فرانز فانون – رقم 71-72 – الجزائر 1964
Entretien – In revue « Révolution africaine » n° 3- Fanon Josie 1241 – 11/12/1987

[14] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 1962/1954 - عالم المعرفة - الجزائر 2015

[15] مالك بن نبي : مشكلة الثقافة – ط1 - مصر 1959

[16] مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة والمجتمع ، تر. حنيفي بن عيسى - دار القصبة للنشر - الجزائر 2007

* **على نحو :**- زبير رشيد : موقف أحزاب اليسار الفرنسية من القضية الجزائرية - أطروحة دكتوراه - جامعة حسيبة بن بو علي - شلف - 2013
- السمان غادة : فرانز فانون - الازدواجية والاستعمار - أطروحة دكتوراه - جامعة بيرزيت - فلسطين 2006
- طه طنطاوي : مقاومة الاستعمار في فكر فانون - أطروحة دكتوراه - قسم السياسة والاقتصاد- جامعة القاهرة 2009
- إلهام ديلمي : فرانز فانون وحركات التحرر في افريقيا 1925-1961 - مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر -تخصص تاريخ عالم معاصر - جامعة محمد بوضياف - المسيلة 2015-2016

وهنـاك منشـورات** تناولـت مسـيرة "فـانون" التاريخيـة في الثـورة الجزائريـة وافريقيا

إلى جانـب ذلك فقـد اسـتعنا في معالجـة هـذا الموضـوع بمجموعـة مـن مؤلفـات فانون منها :

كتابـه "بشـرة سـوداء أقنعـة بيضـاء" - 1952 وهي دراسـة عياديـة سريريـة حـدد فيهـا "فـانون" التراتـب الهـرمي الموجـود في المارتينيـك مـبرزا مـا عـانى منـه المنحـدرون مـن أصـل افريقي مـن القوالـب النمطيـة العنصـرية. وفي هـذا الكتـاب دعى "فـانون" الـتخلص مـن الاشـكالية بجميـع أشـكالها محللا فيـه حالة العصـاب الـتي يخلفهـا الاسـتعمار لدى السـكان الاصـليين، وبالتحديـد شـعورهم بالـنقص والاسـتلابأمام الرجـل الابـيض، حيـث تقـوم الفكـرة عـلى أن "الزنجـي" اذا اراد ان يكـون انسـانا، فعليـه أن يَتَشَـبَّهَ بـ"الأبيض"، وهـو مـا لا يـراه "فـانون"، بـل يقـف ضـده بقـوة فائقـة إذ يـرى أنـه عـلى الخاضـع للاسـتعمار أن يـتخلص مـن هـذه الذهنيـة ويتحـرر مـن كل الاوهام، ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على الاستعمار والعنصرية.

** **على نحو:** - شرقي محمد : المجتمع الجزائري في تصور فرانز فانون 1961/1953 - منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية - جامعة منتوري - قسنطينة - الجزائر 2008

- جونسون كوليت وفرانسيس : الجزائر خارجة عن القانون - تر: محمد معراجي - منشورات تالة - الجزائر 2014
- مقلاتي عبد الله : البعد الافريقي للثورة الجزائرية ودور الجزائر في تحذير افريقيا منشورات تالة - الجزائر 2014
- بلخوجة عمار : الحركة الوطنية الجزائرية – أبطال عالم – تر. مسعود حاج مسعود – منشورات ألفا – الجزائر 2015
- لوكا فيليب، فاتان جان كلود : جزائر الأنتروبولوجيين – نقد السوسيولوجيا الكولونيالية –تر. محمد يحياتن، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال – الجزائر 2002

وكتابه "سوسيولوجية ثورة" سنة1959 ، والذي حاول فيه "فانون" اماطة اللثام عن الاستراتيجية الثقافية الاستعمارية بالوقوف على آلياتها ومداخلها، وعلى كل ما قام به المحتل تفكيك الرموز الثقافية المحلية المادية منها والمنوية، وكل الأطروحات التي روّج لها المستعمِر وعلى رأسها التمسك بفكرة "الجزائر الفرنسية" ذات الهوية الجديدة وذات أنصار لتوجهها الثقافي لتوفير شروط ديمومة الهيمنة الاستعمارية في الجزائر.

اعتمد "فانون" في هذا الكتاب على منهجية وصفية للمجتمع الجزائري ليتبصر المرء ما حل بالمجتمع الجزائري خلال خمس سنوات من الثورة* بين عامي 1954 و1959 ، و ما التغيرات التي طرأت على بنيته بفعل الثورة . لقد رصد الكاتب أغلب جوانب الحياة الاجتماعية و السياسية في هذا المجتمع قبل و بعد اندلاع الثورة مبيّنا حجم التغيرات داخل الأسرة و الريف ومتوسعا في الموقف من الحايك ، ومن المرأة ، و من التكنلوجيا الحديثة ، و من اللغة الفرنسية، وعالج في فصوله التغيرات التي طرأت في شخصية أهالي السكان الاصليين بفعل الثورة التي أعادت انتاجهم من جديد وضخت فيهم حيوية ودماء جديدة.

لقد خصص "فانون" تحليلاته في الفصل الأول من هذا الكتاب المعنون" الجزائر ترفع نقابها " ** حول قضية الحجاب (الحايك) التي رأى أنها مسألة

* كتاب فانون هذا مزدوج العنوان على نحو "سوسيولوجية ثورة " أو "العام الخامس من الثورة الجزائرية"

** الفصل الأول بملحق هذه الدراسة (ترجمة شخصية كاملة لهذا الفصل)

سياسية ايديولوجية استعمارية تستهدف خرق المجتمع الجزائري وتفكيكه عبر مرافعات نموذجية وعلمية تختفي وراء المدافعة عن المرأة الجزائرية التي "حولها الرجل - في الزعم الاستعماري - إلى مادة عديمة القيمة والحركة والفعالية" منتهجا في ذلك تبريرا عقلانيا لدخول الجمعيات وحركات التضامن لتنفيذ او فرض هذا القانون الاستعماري عن طريق اشعار المجتمع الجزائري بدونيته أمام الاستعمار.

أما الفصل الثاني من الكتاب المعنون "هنا صوت الجزائر" * فيدرس فيه "فانون" موقف المجتمع الجزائري من التكنولوجيا الحديثة التي حملها الاستعمار ، والتغيير الذي طرأ على هذا الموقف بفعل اندلاع الثورة الجزائرية، حيث كان المجتمع الجزائري يتقبل بصعوبة أجهزة الراديو، لكون برامجه منقولة حرفياً عن برامج فرنسية لا تتوافق وقيم المجتمع الجزائري أو تقاليده . و يحلل فرانز فانون موقف كل من المستوطن و رجل البلد الأصلي الجزائري من الراديو، فيقول :" يمثل الراديو صوت فرنسا في الجزائر ويشكل مركز المعلومات الوحيد على مستوى الاعلام ... وهو دعوة يومية للمعمِّر بعدم التمازج مع السكان الاصليين وعدم نسيان لاحق لثقافته"

غير ان الوضعية ما تلبث أن تنقلب في خضم سيرورة الثورة حيث يطور الجزائري أجهزته الاستعلامية وحيث يبرز الراديو كوظيفة جديدة -بعد انشاء محطة اداعية بصوت الجزائر- لحيازه إعلاما من مصدر غير فرنسي حول أخبار الثورة،

*الفصل الثاني بملحق هذه الدراسة (ترجمة شخصية كاملة لهذا الفصل)

فإذا بالسلطات الاستعمارية تمنع بيعه بعد أن أضحى جزءا من الشخصية الجزائرية ووسيلة للتعامل مع أصوات المقاتلين.

وفي الفصل الثالث درس "فانون" التغيرات التي طرأت على الأسرة الجزائرية بعد اندلاع الثورة، فدرس علاقة الأب بالابن وعلاقة الأخ بأخيه وما طرأ على علاقات الزواج من تغير. ولئن كان المجتمع الجزائري قبل الثورة "باطرياركيا" إلا أن اندلاع الثورة دفع هذا العالم نحو الانهيار فتتغير وضعية الافراد داخل الأسرة وتتغير علاقة الابن بابيه والإبنة بأبيها. وتعصف الثورة عصفا بهذا العالم فيشارك الجزائري والجزائرية في الثورة، وعندئذ لن يعود الإبن المشارك في الثورة بحاجة إلى موافقة أبيه والإبنة المشاركة في الثورة بحاجة إلى موافقة أبيها، ولم تعد تابعة للزوج بل شريكته في العمل النضالي. وهكذا تفرض مقتضيات الثورة كسر ثوابت المجتمع التقليدية وتغيير المنظومة الأسرية التقليدية.

وكتابه "معذبو الأرض" الذي تم طبعه في سرية تامة في الثلث الاخير من عام 1961، عن دار ماسبيرو في فرنسا ، والذي ألفه "فانون" وهو في فراش مرضه ومات دون ان يشهد تاثيره عالميا، والذي قامت السلطات الاستعمارية بمنع تداوله بتهمة مساسه بأمن الدولة. وهو الكتاب الذي حلل فيه «فانون» العنف الكولونيالي والصراع من النظم الاجتماعية والنفسية التي تشكل نظام العالم، فبيع منه مئات الآلاف من النسخ المترجمة إلى خمس عشرة لغة. وقد نسب بعضهم

ذلك الصدى الواسع إلى المقدمة التي كتبها "جان بول سارتر"* ، وهو في ذروة تأثيره. غير أن الحقيقة ان العامل الاساسي الذي جعل كتاب "معذبو الأرض " يلقى ذلك الاستقبال، هو أنه صدر في وقت "ملائم" ليسد فراغا ويستجيب لتطلعات ضخمة، ويرد في الوقت نفسه عن أسئلة كانت موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث. فقد صدرت طبعته الاولى بعد أن انتصرت كوبا في كفاح طويل ضد باتيستا، وبرز للعالم اسم "فيدال كاسترو" و"شي غيفارا." بينما كانت شعوب أمريكا اللاتينية تتطلع للتحرر من قبضة الاحتكارات الكبرى. وذلك ما جعل عددا من المعلقين يعتبرونه دعوة إلى أممية جديدة على مستوى العالم.

يرسم كتاب "معذبو الأرض" الشهير ، والذي يقف على راس اعمال كتابات "فانون"، العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر ويخطط في كيفية اشعال الثورات من الاسفل وفي كيفية الحفاظ على الثورة من تلاعبات الاستعمار والنخب المحلية الخاضعة له.

* يهاجم "جان بول سارتر" في مقدمة "معذبو الأرض" لفانون، بل ويسخر من المجتمعات الاستعمارية الأوروبية التي ترتكب الجريمة وتعاير به الضحية فيقول :" علينا ألا نضيع الوقت في ثرثرات عقيمة أو في لغو يبعث على الاشمئزاز، فنترك هذه لأوروبا التي لا تفرغ من الكلام عن الإنسان وهي تقتله جماعات حيث تجده، في جميع نواحي شوارعها، وفي جميع أركان العالم. لقد انقضت قرون، وهي تخنق الإنسانية كلها تقريبا باسم مغامرة روحية مزعومة ... من ذا الذي يجرؤ أن يتكلم بهذه اللهجة؟ إنه إفريقي، إنسان من العالم الثالث ... إن أوروبا قد بلغت الجنون والاضطراب في سرعتها. إنها ماضية إلى الهاوية التي يحسن الابتعاد عنها، وبتعبير آخر، إنها أفلست، هذه حقيقة لا يجمل قولها، أليس كذلك يا أعزائي أهل أوروبا؟ لكنها حقيقة، نحن جميعاً مقتنعون بها في قرارات أنفسنا "

في هـذا الكتـاب الذي لم يـره صـاحبه مطبوعـا لأن المـوت كان اسرع ، يفضـح فيـه "فـانون" الاسـتعمار الجديـد، متمـثلا فـيما اسـماه بالبورجوازيـة الوطنيـة الـتي لـن تشـارك في ثـورة الشـعب مشـاركة صـادقة ، ولا اهابـت بالجمـاهير يومـا مـا إلى النضـال المسلح العنيف.

غـير ان مـا يتمـيز بـه الكتـاب عـلى وجـه الخصـوص هـو دعـوة "فـانون" إلى اسـتخدام العنـف ، كالسـبيل الاوحـد للـتخلص مـن الاسـتعمار، متـأثرا بتجربـة الثـورة الجزائريـة المسـلحة، ويفـرد - بالتـالي في كتابـه - بابا مطـولا خاصـا بالتنظـير لهـذا العنف، وهـو مـا تناولنـاه بالتحليـل في الفصـل مـا قبـل الأخير مـن هـذه الدراسـة بعنـوان "جدلية العنف الراديكالي عند فانون".

ففـي الفصـل الاول حـول العنـف يعطـي "فـانون" للعنـف مضـامين نفسـية تتمثـل في اتخـاذ العنـف وسـيلة لتطهـير الـنفس يسـتند منـه المسـتعمِر والمسـتعمَر معـا قـوتهما. فعنـف النظـام الاسـتعماري وعنـف المسـتعمَر يتـوازنان ويتجـاوبان في تجـانس مشـترك... فكـما ان الاسـتعمار لا يكـون إلا بالعنـف، فكـذلك التحـرر واسـتعادة المستعمَـر لذاتيتـه وانسانيتـه لا يتـم إلا بالعنـف أيضـا. يقـول "فـانون" : "العنـف الثـوري وسـيلة للقضـاء عـلى الاسـتيلاب" ويقـول : " العنـف يزيـل التسـمم ... يخلـص المستعمَر من عقدة النقص" [17]

[17] فرانز فانون : "الجزائر وافريقيا في مواجهة الاستعمار الاوروبي الحديث" -- العدد 32 - نوفمبر 1958

إنـه تحليـل دقيـق لتصـفية الاسـتعمار وصرخـة ينـادي فيهـا بـألا مخـرج إلا باستخدام العنف بوصفه جزءا لا يتجزأ من عملية التحرر.

معلـوم ان كتـاب "معـذبو الأرض" هـذا لا يـزال الكثـيرون يـذكرون الضـجة الـتي اثارهـا منـذ سـتين سـنة، هـزت أوسـاط اليسـار في فرنسـا وفي امـريكا اللاتينيـة وأمـريكا الجنوبيـة ، كـما شـغلت المثقفـين في عـدد مـن الـبلدان الآسـيوية. وهـو يعتـبر مرجعـا لا منـاص منـه في فهـم الظـاهرة الكولونياليـة ومـا بعـد الكولونياليـة. ومـن المؤكـد أن المقدمـة المطـولة (خمـس عشـرة صـفحة) الـتي خصـه بهـا الفيلسـوف الفرنسـي الكبير "جان بول سارتر" وهـو في أوج عطائـه الفكـري فتحـت آفاقـا واسـعة لانتشـار الكتاب ورواجه عالميا.

فهـل تسـمح قـراءة جديـدة الآن في هـذا الكتـاب بتقـديم ايجـابات ملائمـة عـن الاسئلة المطروحة على عوالم اليوم فيما يتصل بالعنف؟*

وكتابـه " لأجـل الثـورة الإفريقيـة [18] الذي ييسِّـر التعـرف عـلى أفـكاره وتنظيراتـه حيـث يشـكل هـذا الكتـاب مجموعـة مـن مقالاتـه حـول الاسـتعمار في الجزائـر وافريقيـا والـتي جُـمعت بعـد وفاتـه، ومجـلات أخـرى تضـاهيها أهميـة لا يسـعنا ذكرهـا

* دعا "فانون" في كتابه "معذبو الأرض" إلى العنف لأنه الوسيلة الوحيدة للقضاء على الاستعمار وذلك في قوله : " سواء قلنا تحريرا وطنيا، أم نهضة قومية،أم انبعاثا شعبيا،أم اتحادا بين الشعوب ، وكيفما كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة فإن محو الإستعمار إنما هو حدث عنيف دائما" . الملاحظة التي سجلها "فانون" بنشأة العنف الاستعماري هو أن الاستعمار ليس آلة مفكرة، ليس جسما مزودا بعقل ، وإنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى.

[18] فرانز فانون : "لاجل الثورة الافريقية" - تر. ماريا طوق ودواليا طوق - دار الفارابي - ط. 1 - 2007-01-01

جميعا هنا. في هذا الكتاب تطرق "فانون" - ضمن ما تطرق إليه – إلى العلاقة بين الثقافة والعنصرية. وبتقديره، لا يهدف الاستعمار الهيمنة الاقتصادية والعسكرية فحسب بل، ترسيخ الهيمنة الثقافية من خلال غرس "مركبات النقص اتجاه المستعمِر" وتحطيم الإرث الشعبي والديني واللغوي للشعوب المستعمَرة، الامر الذي خلق كتلة مثقفة من المستعمَرين تنم خصوصياتها الثقافية وأنماط معاشها وتجعل منها عوائق لنهضتها، وتقبل بالسيطرة بل وتُنظِّر لها. يمثل هذا الكتاب الجامع لمقالات كتبها "فانون" في جريدة "المجاهد" خلال الحقبة الأكثر نشاطا في حياته، الطريق الذي تسلكه أفكاره المتعلقة بظاهرة الاستعمار كونه اختبر هذه الظاهرة من الداخل ندد بالاستعمار ومكائد ازالة الاستعمار في آن معا، أي "بالخطر الأبيض الكبير" و"السراب الأسود الكبير" وهو ما تناولناه في فصل خاص متعرض "للكولونيالية" و "ما بعد الكولونيالية"

في تحليله لطبيعة العنصرية في كتابه هذا يذهب "فانون" إلى اعتبارها قمعا منظما يمارسه شعب ضد آخر ضمن سياق استعماري يفرض ضرورة اخضاع السكان الأصليين لانماط معيشتهم والحط من قيمهم الثقافية وجعلها في حالة احتضار مستمر ، الأمر الذي يرغمهم على الانغلاق على أنفسهم تحت الضغط الاستعماري.

في هذا الكتاب يتحدث "فانون" عبر مجموعة من الحالات الممتدة على فترة زمنية متباعدة عن الاستعمار وعن حركات التحرر الوطني في الجزائر وفي المغرب ويغطي مفهوم المستعمِر وقضية العنصرية الثقافية فصلين اثنين من كتاب "الأجل

الثـورة الإفريقيـة المتعلقـين بقضـية الجزائـر، بامتـداداتها الإفريقيـة لينتهـي الكتـاب بفصـل خـامس وأخـير عـن "الوحـدة الإفريقيـة*. فقـد ربـط "فـانون" في هـذا الكتـاب مصـير الثـورة الجزائريـة بمصـير القـارة الافريقيـة بكاملهـا، واعتـبر الثـورة الجزائريـة مقدمـة للثـورة الافريقيـة. ولقـد طـورت صحيفـة المجاهـد باسـتمرار هـذا الخـط "الثـورة الجزائريـة وتحريـر افريقيـا"، فجعلتـه عنـوانا لكتـب ومقـالات ووثائـق جمعتهـا جبهـة التحريـر الـوطني، وكانـت الاكـثر انتشـارا في تـلك الحقبـة مـا يبـين في وضـوح مـدى اهتمام "فانون" آنذاك بتلك المسألة.

أمـا الفكـرة الـتي كونهـا "فـانون" عـن افريقيـا في طـور كفاحهـا الاسـتعمار فقـد أصـبحت واقعـا ملموسـا حـين تسـلم مهمـة سـفير الثـورة الجزائريـة في آكـرا وكان عليـه عندئـذ دراسـة شروط قيـام تحـالف اشـد وثوقـا بـين الأفارقـة بالإضـافة إلى تجنيـد متطـوعين سـود وفـتح جبهـة جديـدة في الصـحراء الجنوبيـة. وتشـكل صـفحات الفصـل الأخـير مـن هـذا الكتـاب جـزءا مـن يوميـات غـير منشـورة سـابقا يـتجلى فيهـا مخطـط "فانون" النضالي في كامل وضوحه.

كان دور "فـانون" في هـذا الكتـاب فريـدا في الكشـف عـن بعـد الثـورة الافـريقي وفي الـرد عـن الذيـن اعتـبروا نشـاط الفـدائيين إرهـابا، حيـث كان الجـدل

*بينما كان "فانون" محررا لصحيفة "المجاهد" ربط مصير الجزائريين بمصير افريقيا كلها. كان في كل مقالاته في الصحيفة المذكورة وفي مجموع مقالاته التي جمعت عام 1964 بعد وفاته ينادي بالوحدة الافريقية. وكان "فانون" الذي قاد الوفد الجزائري إلى "مؤتمر الشعوب الافريقية" قد شعر بارتياح شديد في مناقشات المؤتمر التي تبنت الوحدة والتضامن الافريقيين والتصميم على تبني الكفاح المسلح – على غرار الجزائر- للتخلص من الاستعمار

قويا بين هؤلاء وبين الوطنيين الذين اعتبروه وسيلة من وسائل الدفاع عن حق مشروع، وهو الجدل الذي شغل حيزا معتبرا من اهتمامات المثقفين منتصف القرن الماضي.

وبالنظر إلى الاشكاليات التي يثيرها موضوع الدراسة، كان من الضروري الرجوع أيضا إلى مجموعة من المصادر والمراجع للوصول إلى نتائج موضوعية فتم توظيف نتائج بعض المؤلفات الخاصة لإحياء تراث "فانون".

وثمة كتب تناولت "فانون" بلغات مختلفة نذكر منها تلك التي أُلِّفت من المقربين منه على نحو "محمد الميلي" [19] الذي كان مشاركه في تحرير جريدة "المجاهد"* وكان مع "فانون" رفيقي سلاح ابان حرب التحرير، مما جعل كتابه هذا من أكثر الكتابات صدقا وأكثرها قربا لواقع فكر "فانون" وكتاب "اليس شركي" (Cherki Alice) [20] التي اشتغلت معه كطبيبة نفسانية بالجزائر وتونس، فكان أحسن ما أتيح لي أن أقرأه من ترجمات ، تناولت سيرته الذاتية ومساره النضالي وطريقته في التفكير وأسلوبه في الحياة.

[19] محمد الميلي: "فرانز فانون والثورة الجزائرية"- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1973

* المجاهد : تعد هذه صحيفة الناطق الرسمي لجبهة التحرير عرفت ثلاث مراحل : الحقبة الجزائرية من 1956 -1957- المرحلة الثانية مغربية من 1957/10/5 إلى 11/01 من نفس السنة ، حيث قررت لجنة التنسيق والتنفيذ نقلها إلى تونس – المرحلة التونسية من أول نوفمبر 1957 إلى الاستقلال

[20] Alice Cherki : Frantz Fanon - Portrait – Op.cit

وأطـــروحة أحـــد تلامذتـــه فـــي الطـــب ومساعـــده في مستشـــفى البليـــدة "ازولاي"[21] وكُتُـب زميليـه في الطـب النفسـاني ورفيقيـه في مسـار دراسـته الطبيـة بليـــون "جـــان بوستيـــل" [22] و "فرانســـوا سـانشيـــز" [23] وأســـاتذته، امـــثال المترتينـيكي "إيمـي سيـزار" [24] و"جـان بـول سـارتر"[25] والمفكـرة الوجوديـة الشـهيرة "سـيمون دي بوفـوار"[26] الـتي عرفتـه عـن كَثَـب مؤكـدة أن "رفيـق حياتهـا الفيلسـوف جام "بـول سـارتر" قـد ارتـبط ارتباطـا مؤسسـا عـلى الشـراكة في موقفـه مـع "فـانون" ضـد الاسـتعمار الفرنسـي وفي تأويـل عنـف الخاضـعين للاسـتعمار عـلى أنـه لـيس بظاهرة عدوانية وإنما هو مقاومة مبررة أخلاقيا" .

وكتـب المفكـرين السـابقين، النـبراس المضـئ الذي اهتـدى بهـم "فـانون" في التعـرف عـلى القضـية الجزائريـة والتحقـوا معـه في الثـورة الجزائريـة، أمثـال "فرانسـوا توسـكيل"[27] الطبيـب الأسـباني الأصـل الذي عمـل مـع فـانون في مستشـفي "سـان - البـان" وطـور القـدرات المعرفيـة لدى "فـانون" مـن خـلال مـده بكافـة أسـاليب العـلاج النفسـي والاجتماعـي وكيفيـة تأهيـل المـرضى الذيـن يعـانون مـن حـالات الاغـتراب

[21] J.Azoulay : Contribution à l'étude de la socialthérapie dans un service d'aliénés musulmans, thèse méd., Alger, 1954, (Thèse soutenue avec l'aide de son chef de service à l'Hopital de Blida , F.Fanon)

[22] J.Postel : « La vie et l'œuvre psychiatrique de F.Fanon » Volume 51 - n°10 - Décembre 1975

[23] F.Sanchez : Revue pratique de psychologie de la vie sociale et d'hygiène mentale 1956

[24] ايمي سيزار : "خطاب حول الاستدمار" – تر. ميشال سطوف – منشورات أناب – الجزائر 2008

[25] J.P.Sartre: Introduction à l'oeuvre de F.Fanon, in Les damnés de la terre, Ed.Maspéro, Paris 1961

[26] Simone De Beauvoir : « La force des choses » - Ed. Gallimard – Paris – 1965

[27] F. Tosquelles : Le travail thérapetique en psychiatrie – Eres – 2009 – (1ère ed. 1967)

والاقتلاع من الجذور، و"فرانسيس جونسون" [28] الذي نقل في كتابه قول "فانون" :"من أنا إذا لم احاول أن اعطي معنى لحياتي" ، و"شولي كريستيان" [29] و"شارل أجيرون" [30] و "ريمون ارون"[31] و"رينات زيهار"[32] والشاعر "لويس أراغون"[33] ، وهم أهل الفكر والادب الفرنسيين ممن حركت القضية الجزائرية ضمائرهم فعبروا عن تأييدهم لحق الجزائريين في تقرير مصيرهم فتجسد تعاطفهم في مواقف معلنة وقصائد ومؤلفات.

وكتاب بعنوان "فرانز فانون سيرة حياة " لمؤلفه الكاتب المترجم الامريكي المعروف "دافيد ماصي" [34]. وفي هذا الكتاب الجديد يخصص "دافيد ماصي" سيرة ضخمة للمناضل الأممي الشهير "فرانز فانون" فيقول :"لقد ظُلم "فانون" مرتين، مرة حينما اتهم بتحريضه على العنف من قبل النقاد ومن قبل مؤيديه الذين تبنوا أفكاره في ايديولوجيا الانقلابات والارهاب، ومرة حينما حاول البعض افراغ فكره من الصراع والتاريخ".

[28] Francis Jeanson : La foi d'un incroyant – Ed. Seuil – Paris - 1963

[29] Christiane Chaulet : F.Fanon , l'importun – Ed. Chevrefeuille etoilée, 2004

[30] Charles Robert Agéron «Jaurès et les socialistes français devant la question algérienne» in Le mouvement national - n°42 - 1963

[31] Raymond Aron : La tragédie algérienne – Plon – Paris – 1957

[32] Renat Zehar : « L'œuvre de F.Fanon » Ed. Maspéro – Paris – 1970

[33] Louis Aragon : « Le traité de style » Ed. Gallimard – Paris – 2000

[34] David Macey : " F.Fanon , une vie" Ed . Chihab – Alger 2012

وفي سبعة فصول يقدّم لنا "دافيد كوت"[35] سيرة المناضل "فرانز فانون" في كتاب يبحث عن خلفية النفسية الاجتماعية وتأثيرها على تكوينه، حيث يرى "دافيد كوت" أن "فانون" عانى طيلة حياته من التميز العنصري حتى وإن توهم في شبابه بأنه قضى على حاجز اللغة بفضل ثقافته وطاقاته الشخصية، وحقق أعلى المستويات العلمية واقترن بفتاة فرنسية بيضاء وعين رئيسا لدائرة علم النفس في مستشفى البليدة جوانفيل بالجزائر ، ومع ذلك ظلت بشرته السوداء تلاحقه كتميز وتطارده حتى في العالم الثالث. وفي عبارة موجزة يقول "إن من خَلَقَ فانون، هو الرجل الأبيض... إن الصرخة الفانونية، بعنفها وعنفوانها، وببعديها الثوري والفلسفي، ونفسيتها التي ترفض المهادنة وأنصاف الحلول، ما هي إلا نتاج لغطرسة الرجل الأبيض وبطشه". استحضار سيرة "فانون" في هذه الكتاب يتأتّى كنوع من الدفاع عن فكر مقاوم مستميت ضدّ الاستعمار، وهو الفكر الذي صقلته تجربة مقاومته للاستعمار في بلد عربي نامٍ، والذي احتكرته مع الأسف الأكاديمية الغربية، فسعت إلى تقزيمه واختزاله في مسألتيْن هما الغضب والعنف، وهو التلفيق الذي يستميت الفكر الغربي في إلصاقه بعدد من المفكرين الثوريين والتحرريين، وهذا التقزيم مُتعمَّدٌ بنيويًّا لأنَّ البنية المعرفيّة للفكر الغربي تقدّم نفسها على أنها الحامل الوحيد للفكر الإنساني التنويري.

يناقش "دافيد كوت" في فصله الاول كتاب "بشرة سوداء، اقنعة بيضاء" عبر منظورين، الاول متمثل في العلاقة بين فكر فانون والتراث الغربي والثاني

[35] David Caute : « F.Fanon » Ed. Seghers – Paris – 1970

متمثل في علاقته بالتراث الاصلاحي الزنجي، وفي هذا الفصل يقول الكاتب : "لم يتوسل إلى الغرب ، بل عمل على تفكيك المؤسسة العنصرية البيضاء وتاريخها إنطلاقا من مبادئ عقلية وفلسفية"

وحضر "فانون" بكثافة في كتاب الباحث "وحيد بن بو عزيز"، المعنون "جدل الثقافة"[36] والذي حاول فيه تامل أشكال ما بعد الكولونيالية في سياقه اليوم، قائلا "إن كل محاولة للتأصيل في الوقت الحالي تعد بمثابة سباق بدون نقطة وصول"

آليات ومفاهيم النقض ما بعد الكولونيالي تكشف عما سماه الباحث بـ"المنعطف الخطير الذي خلفه الاستعمار". يرى الكاتب ان "فانون" هو احد اقطاب ومرجعيات الفكر ما بعد الكولونيالي حيث أن "فانون" لم يكن فقط صاحب رؤية نقدية للوضع الاستعماري، بل كان أيضا "تنبؤيا بأوضاع الدول المستقلة حديثا" لأنه استطاع -كما يقول- أن "يرصد الحتميات التاريخية التي ستُشكّـِل الدول المستقلة، فضلا عن أنه فهم المحركات الدافعة للتاريخ، وما تمثله الطبقة الفلاحية من قوة تاريخية.

ومجمل القول إن معظم القراءات التي أنجزت حول كتابات "فانون" قد توقفت عند كتاب" معذبو الأرض"، ولم تلتفت إلى بقية كتبه ونصوصه الأخرى. وينطبق هذا الأمر على معظم القراءات التي أنجزت في حقل الدراسات ما بعد

[36] وحيد بن بوعزيز : "مقالات فيما بعد الكولونيالية" - منشورات ميم - الجزائر 2018

الاستعمار، وكذلك على فلاسفة الاعتراف الذين اهتموا بـ"فرانز فانون"، وبخاصة الفيلسوفين "شارل تايلور" و"إكسال هنات" اللذين أكدا على دوره في صياغة مفهوم الشخصية بما هي اعتراف متبادل بين الأنا والآخر، وضرورة التحرر من الاعتراف المزيف أو المشوّه، وأقرّا بأنّ "فرانز فانون" شخَّص تشخيصاً نقدياً ذلك السلاح الذي يستعمله المستعمِر والمتمثل في فرض صورة نمطية على المستعمَرين. وبيّنا أنه لكي يتحرّر المستعمَر عليه أن يُحرّر نفسه من تلك الصورة الدونيّة والمشوّهة المدرجة ضمن الصور المفروضة والنمطية، مما يجعله – بالنظر إلى مدى اسهاماته في اثراء الفكر البشري- في عداد رجال النهضة المبكرين.

الفصل الثاني:

التطورات الفكرية والتحولات الايديولوجية لـ "فانون"

يبدو أن ميلاد «فانون» كان لغرض محدد. فمن الناس من يولد لحمل رسالة معينة في حياته و من الرجال من يظهر لا ليعيش و لكن ليؤدي دورا محددا تخلقه الظروف خلقا من أجله .

فإذا كان محمد "عليه السلام" قد ظهر لمواجهة القوى الباغية المسيطرة على المال و على الناس، واذا كان المسيح قد خلق لمواجهة الظلم، و إذا كان كارل ماركس قد خلق ليلعب دوره ضد النظام الرأسمالي ، و إذا كان "ڤاري بالدبي" قد ظهر لمحو الفقر في "صقيلية" و إذا كان "لينين " قد أوجدته الحكومات الأوتوقراطية القيصرية في روسيا كما خلقت الإمبراطورية البريطانية "غاندي"، فقد جاء ميلاد "فانون" للوقوف في وجه الرجل الأبيض . و كانت هذه المواجهة مفروضة على «فرانز فانون» الذي ولد في "جزر الأنتي" بالمارتنيك الفرنسية و كانت رسالته للدكتوراه في الطب العقلي سنة 1951 بداية مرحلة من الصراع الطويل الدرامي .

كتاباته و بخاصة منها كتابه الشهير: "بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء " الذي ألفه عام 1952 ، كان بمثابة إعلان الحرب المباشر ضد الرجل الأبيض . و هكذا لا يشعر الإنسان بأنه قد كانت فترة ما بين لحظة ميلاد "فانون" و لحظة هذا الكتاب ، و كأنه ولد ليشرع توا في تأليف هذا الكتاب .

و مما لا شك فيه أن "فانون" عندما جاء إلى الجزائر سنة 1953 و هي سنة تعيينه مديرا للعلاج العقلي في مستشفى "البليدة جوانفيل" كان قد أحس لحظة وصوله لا بمهامه

العلاجية وحدها – و إن كان قد أفرغ لها كل عنايته و حبه – و إنما أحس أيضا بالانتماء الأصيل إلى الناس المحيطين به و شعر بأن شيئا يربطهم بهم، و كأنهم يقاسمونه بعض ما يضمره في قلبه وبعض ما يخفيه في طيات وجدانه .

و أول إحساس له هو أن هؤلاء الناس على أرض الجزائر ، مثله تماما و إن أبيضت جلودهم ، لأنهم مثله يعانون من الرجل الأبيض و يقاسون من مطامعه ويخضعون لنفسيته كرجل أبيض عندما يواجه هذا الرجل الأبيض أبناء من غير جلدته .

و قد سبق "فانون" إلى تحديد هذا المعنى الأستاذ "مانوني " في كتابه : "علم نفس الاستعمار"[37] حيث أخذ في توضيح الجانب النفسي الذي يسيطر على عقلية الرجل الأوروبي عند تعامله مع الرجال الأفارقة سواء كانوا من أبناء الشمال أو من أبناء الجنوب أو من أبناء الوسط .

و كان "مانوني " قد تعمق في دراسة الرجل الأبيض على أساس توضيح دوره في الحياة عند مخاطبة العقلية الإفريقية بأشكالها و ألوانها .. فهذه العقلية الإفريقية تعاني من الإحساس بالسواد بمجرد الشعور في التعامل مع الرجل الأبيض .. هذا الرجل المتغطرس المتكبر الذي يحاول أن يبدو ظريفا و مجاملا ولكنه لا يبْذل أدنى جهد حقيقي من أجل التخلص من إحساسه النوعي بالامتياز و من طمعه في أن يكون صاحب الحق الأوحد في الملكية حتى يكون ما يقدمه للغير

[37] Octave Mannoni « Psychologie de la Colonisation » Ed. Seuil – Paris – 1950 – Page 77

بمثابة الهبة والعطاء لا بمثابة الحق الطبيعي لأبناء الأرض نفسها . ولا يغفل «فانون» عن حقيقة أن "كل شكل من أشكال العنصرية إنما تحدده و تحتم وجوده مجموعة المركبات الثقافية والظروف التاريخية المحيطية" [38]

و الرجل الأبيض هنا هو المستغِل المستعمِر الذي يتلون إحساسه إزاء الناس بمجرد شعوره أمامهم بأنه من غير بشرتهم و بأنه إذا لم يتميز بلون الجلد فهو مميز "بالمدنية " و"الذكاء" و"الحضارة" و "التقدم " و "التحرر " و "البعد عن الخرافة " أو باختصار بأنه هو "سيد العالم" .

و يمكن أن نضرب مثلا لهذا الرجل العادي الذي يعيش في انجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في بلجيكا أو في سويسرا . فهذا الرجل يروح و يجيء وسط أهله و أقاربه وأبناء بلدته ويتعامل هنا و هناك ، و قد يلقى كل الألوان فوق أرض بلده ، و لكن إحساسه بالسيادة والامتياز و المدنية لا يظهر إلا عندما يكون وجها لوجه أمام الإفريقي خارج حدود بلاده ... فإذا به نفسية أخرى و إذا به رسول محمّل بأعباء التقدم و الرخاء إزاء غيره ممن لم يصل إليه والى شيء مما حققه وبلغه ووصل إليه .

درس «فانون» الطب في جامعة ليون بفرنسا و كان نبوغه مرموقا بين زملائه وأساتذته ، وانخرط في كلية الطب في الوقت الذي كان يتابع فيه دراسة الفلسفة. وفي نفس الوقت الذي كان يتابع فيه هذه الدراسة كان العالم من حوله

[38] David Caute – Op.cit- page 24

يعيش فترة صراع حاد ، من جملتها بلدان فرنسا والجزائر و الفيتنام . و كانت هذه التيارات الواقعية من جهة و الفلسفية من جهة أخرى مما دفع «فانون»إلى التفكير في حل مشكلته ، مشكلة الزنوج الذين كانوا يخوضون كفاحا بفرنسا .

و لما تخرج «فانون»من كلية الطب عام 1951 ، و بعد زيارته للمارتينك ، عين بمستشفى الأمراض العقلية في البليدة بالجزائر . و هنا وجد «فانون»نفسه مرة أخرى في بلد يشبه بلده و بين شعب يعاني أفراده ما عاناه ، فكانت تجربته في إطار مهنته و دراسته لحالات المرض بعد أن اندلعت شرارة الثورة الجزائرية حافزا متينا في استخلاصه نتائج الاستعباد و الاضطهاد ، فانضم توّا إلى الثورة الجزائرية ليكون عضوا من أعضائها .

والواقع انه إذا ما استثنينا بداية عهده الفكري في جزر المارتينيك ، والتي تأثر فيها بالأفكار السائدة عندئذ في تلك الجزر والتي تولدت عن ظروف خاصة، كانت العنصرية الحضارية أبرز مقوماتها، إذ نجده في بداية الامر متأثرا بأفكار الزنوجة على يد "ايمي سيزار"، إلا أنه عند انتقاله بعد ذلك لفرنسا ليلتحق وعمره 17 سنة بجيش "فرنسا الحرة" لمواجهة الاحتلال الألماني النازي لفرنسا إبان الحرب العالمية الثانية، واجه - على الرغم من انخراطه في الدفاع عن فرنسا - ظاهرة الاستعلاء العنصري التي مارسها الجنود البيض على الجنود السود، حيث تم عزل الجنود السود عن الجيش الفرنسي من اجل "الحفاظ على النقاء العرقي للجيش الفرنسي" ، وهو امر زاد من احساسه بالغبن من ممارسات تنم عن التميز العنصري على اساس الاثنية ولون البشرة.

وكان «فانون» قد كتب في احدى رسائله من جبهة القتال إلى أهله ما يفيد موقفه من المعاملة العنصرية التي لقيها من قبل "رفاق السلاح" ما مفاده :"إذا لم أعد، وإذا جاءكم خبر موتي في مواجهة العدو، فإنني اتمنى لكم ما امكن من المواساة، لكن لا تقولوا إنه اعطى حياته من اجل قضية نبيلة... هذه الايديولوجية المزيفة التي يختفي وراءها السياسيون البلداء لا يجوز أن تخدعنا. لقد أخطأت. لم يكن هناك ما يبرر قراري المفاجئ في أن أدافع عن الفرنسي المعمِر في الوقت الذي لا يهتم فيه هو بالأمر... غذا سوف أذهب متطوعا في مهمة خطرة ... اعرف انني سوف اموت"

من الواضح ان «فانون» قد تطوع وفاءا لالتزامه بمبدإ كان يؤمن به وهو الدفاع عن حرية الانسان وكرامته. لذلك فإن هذه الرسالة التي كتبها الشاب «فانون»تكشف عن واحد من اهم الخطوط التي تبلور شخصيته ، علما ان المعاملة التي لقيها بعد التحاقه بالمقاومة ضد الالمان قد جعلته يلمس لا محالة ان البيض الذي يحارب في صفوفهم كانوا يدافعون عن مصالحهم قبل ان يدافعوا مثله عن كرامة الانسان وحريته.

احساس «فانون» بهذا الغبن العنصري التاريخي والاجتماعي دفعه إلى التقرب من المثقفين بدوائر اليسار الفرنسي ليخوض الكفاح إلى جانب البروليتاليا الفرنسية ولينادي بتحرير الانسان الاسود من ذُلّ العنصرية البيضاء، فبلور أفكار الزنوجة لديه وعبر عنها في كتابه "بشرة سوداء، اقنعة بيضاء" وهو الكتاب الذي حاكى فيه «فانون»المؤثرات الانسانية البالغة التعقيد للاستعمار والعنصرية.

و الواقع أن الأضواء قد سلطت على "فانون" قبل اندماجه في الثورة الجزائرية مباشرة بعد تأليفه كتاب " بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء" عام 1952 ، وكانت لهذا الكتاب ردود فعل كثيرة في الأوساط الغربية التي امتلأت انفعالا وشحنة و أبت إلا أن تصرح دون هوادة أن «فانون»لها ، و لا يمكنه بذلك أن يثور عليها .

محاولة التحليل من الداخل لمسألة العنصرية أثار غضب المجتمع الفرنسي وأفكاره حتى وان كان عالم المثقفين آنذاك ميالا لليسار. "إنه دعوة للكراهية العنصرية"، هي - على حد تأكيداتهم - "ناجمة عن معانات «فانون» مرضا نفسيا". ويندفع اليسار إلى اثارة مبادئ المساواة والأخوة للتنكر لمسعى «فانون»: "إن فرنسا قد اعترفت منذ زمن بعيد بأن السود بشر".

ومع ذلك فإن «فانون»، المتأثر بالزنوجة ، ما لبث ان انقلب عن هذه الزنوجة عندما انتقل إلى باريس ، فتأثر بمعلمه الجديد "جان بول سارتر" ،حيث كان لهذا الاخير تأثير كبير على كتابات فانون. ذلك أن "سارتر" بدى وجوديا متخذا من الفلسفة الوجودية منهجا له ، وما لبث ان انتقل بعد ذلك إلى "الماركسية".

والحقيقة أن "فانون" مدين إلى "سارتر" في العديد من المفاهيم والتحليلات الخاصة بظاهرة العنصرية التي يتعرض لها السود والأفارقة. وخير ما يدل على مدى قوة العلاقة بين الطرفين هو تقديم "سارتر" لكتاب «فانون»"معذبو الارض".

فقد حاول "سارتر" في مقدمة كتاب "فانون" هذا أن يلخص أفكار «فانون» فيه التي تناولها في كتابه "معذبو الارض". وباستقراء مقدمة "سارتر"، يتضح الافتراض الذي سيق من قبل، وهو تأثير "سارتر" الشديد على فكر فانون.

فالمقدمة تكاد تكون عبارة عن مانيفاست افريقي يشابه إلى حد كبير جدا الأطروحات الشيوعية الماركسية التي تعالج أوضاع المجتمعات.

فقد أوضح "سارتر" - نقلا عن «فانون» - ان الاستعمار عمل على تقسيم المجتمعات الافريقية إلى طبقات، طبقة بورجوازية متحكمة وطبقة مغلوبة على أمرها، وأن الطبقة البورجوازية عادة ما تخدم طموحات المستعمر الأوروبي على حساب المحليين أو الطبقة الدنيا .

حقق «فانون» بين 1952 و 1961 تطورا فكريا عاليا فقفز من التمرد على الزنوجية في كتابه " بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء " إلى ثورة الجزائر التحريرية التي سجلها في كتابه "سوسيولوجية ثورة " [1] إلى صرخات وجهها للعالم الثالث وسجلها في كتابه "معذبو الأرض" [2] الذي أنهى تأليفه و هو على فراش الموت، مقاسيا كل ما سببه له سرطان الدم الذي أصيب به من آلام وأوجاع .

[1] Frantz Fanon : «Sociologie d'une révolution »

(ترجمة شخصية لهذا الكتاب - دار النشر – الرغاية – الجزائر العاصمة -1985)

[2] Frantz Fanon : « Les damnés de la terre » Op.cit

إن مجيء «فرانز فانون» إلى الجزائر قد اقترن بإحساسه بأن الاوروبي المستعمِر هو نفسه الرجل الأبيض الذي يطارده في كل مكان ، و هو نفسه الذي يملأ أذنيه و قلبه بمدى التميز الذي يعلو به عليه. و لم يجد في الجزائر إخوته في الوضع الزنجي و إنما وجد نفسه أمام العدو المستعمِر الذي كان بالنسبة إليه شخصيا خالق الوضعية الزنجية و مؤسسها .

لذلك فقد أحل كل غضبته السوداء محل إحساس الجزائري بالوطنية وأصبح بين يوم وليلة مواطنا جزائريا يدين بحرية الجزائر و استقلالها لأنها حريته هو نفسه إزاء عدو موحد .

و بهذا كان الهم المشترك عنده و عند الجزائريين ليس الوضعية الجنسية وإنما الالتقاء عند خالق هذه الوضعية الزنجية في صورة جديدة و في قناع جديد، هو قناع الرجل المستعمِر الغاصب . ولهذا كذلك فقد صدقت العبارة التي كتبها "سمويل رودي" في دراساته عن اليسار عام 1996 عندما قال : "لقد كان "فانون" في جوهر موقفه يمزج الصراع من أجل استقلال الجزائر بالثورة الاجتماعية" [39]

و علينا أن نلتفت هنا إلى أمرين :

[39] Samuel Rohdie : « Libération et violence en Algérie » - Ed. Seuil 1968 - (Page86)

أولا : أن «فانون»لم يفهم حرب الجزائر إلا من خلال الثورة الاجتماعية التي كان يؤمن بها كرجل أسود . فهذا الموقف هو الذي جعله يتآخى مع الجزائري في نقطة محددة وهي عداؤه للرجل الأبيض، بل لا يوجد في نظر "فانون" اختلاف بين العنصرية الاستعمارية و كل شكل من أشكال العنصرية الأخرى .

ثانيا: أن الثورة الاجتماعية عنده كانت لا تقف عند حد تحرير الجزائر وحدها وإنما تمتد لتغطي كل الحركات الثورية السوداء وراء الصحراء الكبرى و داخل أرض إفريقيا السوداء .

و يمكن القول باختصار بأن تعذيب الجزائريين حل في نظر "فانون" محل بشرته السوداء ... فكان عذابهم على يد الرجل الأبيض من نفس العذاب الذي أحس به من تعذيبهم له كرجل أسود .ذلك أن العذاب عندهم و عنده قد خلقته يد واحدة ، و بذلك كان اشتراك "فانون" لمعالجة الجرحى الجزائريين تضميدا لجراحه السوداء .

لكن «فانون» لا يأتي إلى الجزائر كرجل أسود و حسب ، و لكنه يأتي إليها كأسود مثقف يعاني مشاكل جوهرية و هي الإحساس بمدى حقيقة وجود الرجل المثقف وبين أقوام من الجماهير غير المتعلمة و هي تصبو إلى اصطناع أساليب العقل و الحكمة الثورية في آن معا إزاء عدو قوي شديد البأس . فإما أن ينجح الرجل المثقف في أداء دوره كعامل مع الناس و للناس، و إما أن تنزل الهزيمة بفكرة

الثقافة ذاتها كسلاح للشعب ، يواجه به الأعداء الطامعين في جهله و في مرضه وضعفه وبالتالي في خنوعه .

لهذا فقد شعر «فانون»لأول مرة بقضية الإنسان المثقف أمام الجماهير وأحس أن من واجبه أن يضع صيغا جديدة تحكم الأسلوب الوجودي للرجل المثقف بين الجماهير التي لا حظ لها من ثقافة أو من معرفة ، و ذلك بأن يحقق هذه الصيغة في سلوكه الشخصي .

و الواقع أن «فانون»عانى معاناة شديدة من جراء هذا التفكير في وسيلة الرجل المثقف إلى النفاذ و التعمق داخل نفسيات الجماهير العامة و داخل ضمائر المثقفين كرجال مسئولين عن توجيه الشعوب لبلوغ درجة الأهلية للحياة الجادة العميقة . فقد كان «فانون»يعتقد بأن المثقفين إذا لم ينجحوا في خدمة القضايا على هذا المستوى الشعبي ، صاروا خونة للأمانة العقلية التي حملتها لهم البلاد . فإما أن يبلغ صوت المثقف آذان الجماهير و إما أن يظل دائما في حكم الفاشل الذي لا يحقق رسالة ولا يخدم قضية ولا يفيد إخوته من قريب أو من بعيد .

و صرف «فانون»ذهنه لقضية ما إذا كان يمكن توصيل الثقافة كأسلوب عمل وحركة إلى الناس ... و الناس في وضع يكاد لا يعلو كثيرا على مستوى الأمية . وعلى هذا فإيمان الناس بشيء يجب أن يكون وليد إيمان المثقف نفسه بهذا الشيء . ومن هنا نجح "فانون" لأول مرة في اصطناع أسلوب جديد لكتاباته يخدم

قضية الاتصال بالجماهير و لا يؤذي حقيقة موقفه كمثقف يحرص على أسلوبه العلمي في التكوين و النشأة .

يوضح لنا فيليب لوكاس "ان «فرانز فانون» قد اهتم بالايثنولوجيا والفينومينولوجيا والماركسية والوجودية والتحليل النفساني والفلسفة في آن معا" [40]

لقد كان «فانون»يبتلع الكتب فيقرأ من دون تمييز فرويد وليفي ستروس وهيڤل ولينين وماركس .. واهتم - وهو لا يزال في سنته الرابعة من الطب - بالدروس في التحليل النفساني الذي أوحى له نشر أولى نصوصه وهي "تزامن أعراض مرض شمال افريقيا" [41] الذي أبرز فيه التصرف العنصري والمرفوض للهيأة الطبية امام مريض من شمال افريقيا يعاني من آلام.

كتب «فانون» مقالاته الفرنسية بطريقة جديدة لعل أحدا لم يلتفت إليها حتى الآن عند تفسيره لها. فالغالبية العظمى من المؤلفين الذين تناولوا "فانون" تكلموا عنه كماركسي مؤمن بالمنهجية الجدلية ، و لكن المدقق في عبارات «فانون»وفي أسلوبه وفي طريقة انتقائه للألفاظ و الجمل و في انتقالاته من عبارة إلى عبارة، يحس في التو بأن "فانون" قد تأثر بالمنهجية الفينومينولوجية (الظاهرية) في الأسلوب.

---

[40] Philippe Lucas : Sociologie de Frantz Fanon - SNED - Alger - 1971 - Page195

[41] F.Fanon : « Le syndrome nord-africain » - Revue « Esprit » - Paris - Février1952

و فلسفة "الظاهريات" قامت ، أول ما قامت ، على أساس أنها مذهب نفساني بحث ، ثم تحولت بعيدا عن علم النفس مع الإبقاء على المنهجية النفسية داخل إطار وصفها للظواهر في أوائل هذا القرن، و ملأت أوروبا بين سنتي 1920 و 1930 .. و كان ظهورها على يد الفيلسوف الألماني "أدموند هوسرل"

يقول الدكتور الديدي * في كتابه : "الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ":"إن الظاهرية عند "هوسرل "عبارة عن وصف تحليلي لعمليات التمثل و الحكم والمعرفة وهي مختلفة عن اختصاصات علم النفس أو علم المنطق . فعلم النفس يدرس الأشياء من حيث تطورها و نموها ونشأتها الأولى و ارتباط الوقائع بعضها ببعض ، و هذا هو ما نطلق عليه اسم التفسير العلمي والتناسبي . أما الانشغال بقوانين الفكر المثالية فمن مهمة علم المنطق . و معنى هذا أن المنطق يدرس عمليات الفكر من حيث هي نتائج مستخلصة من مقدمات سابقة عليها . و المنهج الظاهري يعادل العلوم المنطقية و النفسية بل و الطبيعية أيضا في صدقها وسلامة نتائجها. إنه يهدف إلى أسلوب خاص بالشعور الذاتي يختفي منه كل شك كما يهدف إلى أن يصبح علما من العلوم "[42]

*كان لهذا الكاتب – يوم التحق بجامعة وهران قادما من ألمانيا –كأستاذ لعلم الاجتماع بوهران في الثمانينات – دور بارز وكفء في تلقين "المنهجية الظاهرية" لطلبتنا. فحَظِيتُ بأن كان المشرف على أطروحتي في الماجيستير عام 1983 مما جعلني لا أمسك نفسي عن الإعراب بأنني مدين له بالتقدير والعرفان.

[42]عبد الفتاح الديدي : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة 1966 – صفحة 21

و يؤكد شعورنا بالارتباط الوثيق بين منهجية «فانون»و المنهجية الظاهرية ، أن «فانون»لم يلبث أن حضر محاضرات الفيلسوف الفرنسي الظاهري " موريس ميرلوبونتي " سنة 1950 و ما بعدها بجامعة السوربون ، فكان تأثره بالظاهرية بالواسطة ، و إن كانت الواسطة هنا تتمثل في لقائه بميرلوبونتي الذي أضفى هو نفسه على الظاهرية تجديدات كثيرة .

و قد ثبت حضور «فرانز فانون» محاضرات ميرلوبونتي عن طريق القوائم الزمنية التي ظهرت بالملحق الثالث من كتاب "علم الاجتماع عند «فرانز فانون» "لفيليب لوكاس" [43]

كما أن الوصف أوضح المسار الجامعي لـ"فانون" بمدينة ليون الفرنسية والدروس التي كان يستقيها من ميرلوبونيي هو من دون شك ما تناوله جاك بوستيل[44]، أحد أصدقائه الذي تابع معه السنة الثالثة في الطب بمدينة "ليون" الفرنسية.

و يجعلنا هذا الأمر نتعرف باهتمام على منهجية الظاهرية عند هوسرل حتى نكتشف مقابلاتها و مماثلاتها في أسلوب "فانون" ، و ذلك لسبب بسيط و هو أن الظاهرية خالية من روح المذهب. و لا يعني الانتماء إلى الظاهرية من الناحية الفكرية إطلاقا ما يعرف عادة باسم التشيع المذهبي. و لا يعدو الاشتغال

[43] فيليب لوكاس (P. Luca) - المرجع السابق - ص 190

[44] ج. بوستيل (J.Postel) - المرجع السابق – ص 430

بالظاهرية أن يكون تعاونا على بذل مجهود مشترك لدى عدد من الباحثين الذين اكتمل لهم الاستعداد لمواصلة البحث من أجل تحقيق المثل الأعلى العلمي شيئا فشيئا .

و نحن نعتقد أن هذه النقطة ظلت خفية على كل من كتبوا عن "فانون". فهم يتناولونه ويتناولون أصدقاءه من الوجوديين دون أن يفطنوا إلى خصائص التعبير الظاهري و خصائص المنهجية الظاهرية التي اعتمد عليها من أجل الوصول إلى التعريف بالشخصية الجزائرية تعريفا نفسيا ظاهريا في آن معا . ذلك أن المنهج الذي استخدمه "فانون" هو المنهج المتمسك بالعلم الوصفي ، والظاهرية دراسة وصفية خالصة للوثائق التي تمر بالفكر وتخطو من مجال المعرفة الملاحظة إلى مجال الدراسة . و نجد هوسرل مؤسسها يعجِّل بتعريف الظاهريات بوصفها الواعية تجريبا في إطار الطبيعة . و لهذا يعتبر هذا البحث تفسيرا خاصا ل "فانون" على ضوء منهجية في الأسلوب و تأثر بميرلوبونتي و بتكوينه العلمي النفسي المتخصص في الأمراض العصبية .

و معنى هذا أن "فانون" أدرك بذكائه أن الوصف الظاهري هو أقرب أسلوب يخدم به فكره بين شعب قليل الثقافة و قليل الحيلة أمام عدو غاشم . فاستخدم هذا الوصف الظاهري استخداما واضحا لا لبس فيه .. و لو لم يكتب "فانون" في كتبه من الأبحاث لخدمة القضية الجزائرية لتحولت كتاباته بطريقة آلية لتكون وسيلة نموذجية لتقريب ماهية المنهجية الظاهرية من أذهان من لا يعرفها . فالمنهجية الظاهرية تعتمد على الوصف الظاهري ، و الوصف الظاهري يضع

المواقف أقواسا و يسقطها إسقاطا على صفحة الوعي فيجعل هذه المواقف تتكلم من خلال تعبيره عنها .

و كان الوصف عند «فانون»مبنيا على تقاليد فكرية عالية ، و يمثل نمطا نموذجيا من اضطراد العبارات واحدة بعد أخرى في سياق ظاهري و واضح لنقل حقيقة الموقف ، ولترجمة الوضع القائم إلى لغة يعتبرها العلماء وصفا ظاهريا كحقيقة اجتماعيةٍ قائمة ، و ينظر إليها العامة بوصفها محركا ذا فاعلية لأذهان الناس فيما يتعلق بحقيقة كيان الثورة و قوامها .

و لو لم يكن «فانون» طبيبا عقليا أو فيلسوفا ثوريا لكان مجرد كاتب ظاهري من الطراز الأول . و سيأتي يوما تقرأ فيه نماذج للمنهجية الفينومينولوجية من كتابات «فانون»كأبرع و أروع ما سطره قلم ظاهري .

نحن اتخذنا في هذا البحث الظاهرية كمحور رئيسي للمنهجية التي اتبعها «فانون»في أعماله. والواقع أن هذه النقطة تعتبر جوهرية جدا في البحث ، بل و من بين جملة وجهات نظر التي تناول بها الكتاب "أفكار فانون" نجد أن تفسير موقفه ابتداء من الظاهرية يلقي أضواء على تفكيره لا يمكن أن تتسنى لنا فرصة الوقوف على فكره بدونها .

و يكفي أن نفهم أن الانتماء الأصيل لـ"فانون" إلى مجموعة مفكري اليسار الفرنسيين كان مصدر الظاهرية لا اليسار في حد ذاته .. يكفي أن نعرف هذه الحقيقة لكي يتبين لنا الخيط الرئيسي في تفكير" فانون" .. و معنى هذا بعبارة

أخرى أن "فانون" عندما اتصل بميرلوبونتي و بسارتر كان شغفه الأكبر منصبا على متابعة المذهبية الظاهرية عند هذين المفكرين .

و إذا كان «فانون» قد تابع اليسار الفرنسي من خلال أعمال ميرلوبونتي و"سارتر" فقد كان هذا إضافيا و ثانويا بالنسبة لاهتمامه الأصلي بهما، بوصفهما المترجمَيْن الفرنسيَيْن للفكر الظاهري الألماني الحديث ، و هو الفكر الذي يهمه أصلا كمشتغل بالطب العقلي وكمتطلع مثل غيره من الأطباء العقليين إلى النتائج التي استفاد منها الطب العقلي من المذهب الظاهري.

وهنالك اتجاه جديد في الطب العقلي (البسيكياتري) يشيع اليوم بين أصحاب اتجاه مضاد للبسيكياتري عند "لانغ" (Laing) و بعض الأطباء الجدد، و يذهب هذا الاتجاه إلى حد اعتبار الظروف السياسية مسؤولة عن ظهور بعض الأمراض العقلية كطريقة للتكيف الوظائفي معها بدون أن يكون المرض في هذه الحالة مرضا بالمعنى الصحيح للكلمة. وكان علم النفس الوظائفي قد أظهر الدور الوظيفي للوعي ذاته و لعدد من الأمراض كالهستيريا و غيرها مما يكون لها دور وظائفي محدد عند مواجهة خطر خارجي و عند مواجهة تهديد معين في المجتمع .

و كان "فانون" مَنْ أبرز هذا الاتجاه و وضع أسسه التي تجسمت فيما بعد في صورة اتجاه كامل . و إذا كان قد استفاد من شيء في فكرته العلاجية للأمراض العقلية التي تنشأ بناء على أحداث طارئة خارجية تهدد الشخص ويضطر إلى الاستخدام الوظائفي للمرض العقلي من أجل مواجهة هذه الأخطار الطارئة،

و إذا كان قد استفاد من شيء في تأسيس اتجاهه ، فذلك نابع بغير شك من اهتمامه بوضوح مما جاء في كتاب "ديمولان " (De Moulin) عن الأمراض النفسية والأمراض العصبية (Névrose et Psychose) .. فهذا الكتاب يمثل بحثا في الاتجاه العلاجي الجديد المبني على أسس مشتقة من صميم المذهب الظاهري الذي استخدمه "فانون" ليكتب عن الجزائر حيث كان صاحب نظرية جديدة في العلاج النفسي بمستشفى البليدة ابتداء من "اعتبار المرض والجنون نتيجة للوضع السياسي للسكان المحليين"، واعتبار مصدر المعاناة الانسانية الكلية للشعب الجزائري إنما هو الاستعمار الفرنسي وجرائمه.

وهكذا كانت تجربته كطبيب بمستشفى البليدة عاملا في تعميق تكوينه الطبي النفسي الاجتماعي بعد معالجته لحالات عديدة وتشخيص أسبابها الاجتماعية المرتبطة بسياسات العزل الاجتماعي والاستلاب الممارسة ضد المرضى الجزائريين، وإدخال اساليب "العلاج الاجتماعي" و"العلاج المهني" سعيا إلى تحرير المريض من القيود المفروضة عليه وربطه بجو إجتماعي ينسجم مع بيئته الأصلية.

معايشته للواقع الكولونيالي في الجزائر من خلال تجربته الطبية هذه، وتشخيصه لحالات الجنون والاضطرابات النفسية للمرضى الجزائريين، وربطها بالتمييز العنصري والاستلاب الثقافي المفروض من الاستعمار تم انتماؤه للثورة وتعرفه على ايديولوجيتها من خلال احتكاكه بالجيل الاول من قادتها الأوائل تلك الايديولوجية التي توجت مسارا طويلا من النضال والتراكم وصولا إلى تأسيس الجناح العسكري الذي فجر الثورة حيث اصبح "فانون" كغيره من مثقفي الثورة

وقادتهـا يوظـف الخطـاب الاشـتراكي ضمـن خصوصـيات المجتمـع الجزائـري الثقافيـة الاجتماعيـة والدينيـة ، فنجـده في كتابـه "سوسـيولوجية ثـورة" يـدافع بقـوة عـن قضـايا وقـيم المـرأة والأسرة واللبـاس التقليـدي النسـوي في معـرض حديثـه عـن التغيـيرات الجدريـة الـتي احـدثتها الثـورة في المجتمـع الجزائـري ويجـزم بان الحفـاظ عـلى الثقافـة والشخصـية الوطنيـة وتعبئتهـا يعتـبر جـزءا مـن المواجهـة الكـبرى مـع المسـتعمِر بعـدما كان يطالـب بعكـس ذلك قبـل انضـمامه للثـورة بسـنوات. كـما يـتخلص بفعـل الثـورة مـن آثار الفكـر الزنـوجي الذي تبنـاه بـحدة لـيرى بوعيـه الجديـد ان المقاومـة ضـد الهيمنـة هي وحـدها مـا يجمـع الشـعوب المسـتعمَرة ولـيس لـون البشـرة ، كل ذلك، إلى جانـب أدبيـات الثـورة الجزائريـة الـتي صـاغها كلهـا في قالـب خطـاب عـالم ثالـثي يجعـل مـن معركـة التحـرر الـوطني في الجزائـر جـزءا مـن المعركـة العالميـة ضـد الهيمنـة لـكل دول الجنوب بافريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية.

وحـاول «فـانون» تطبيـق طريقـة "توسـكفيل" في العـلاج الاجتماعـي لكنـه اصـطدم بالعديـد مـن الصـعوبات. فالأسـاليب الـتي جربـت مـع الاوروبيـين لا يمكـن أن تـنجح هي نفسـها مـع مـرضى جزائـريين تختلـف بيئـتهم الاجتماعيـة عـن البيئـة الاوروبيـة، ووصـل إلى أن الآلة الاسـتعمارية انتجـت تـلك الانعكاسـات الهدامـة، عـلى نـزلاء السـجون بتـدنيس ثقـافتهم وحرمـانهم مـن عـائلاتهم، ثم تـرحيلهم إلى فرنسـا، لمعـالجتهم في مؤسسـات غـير متوافقـة مـع حاجـاتهم، وبالتـالي فـإن حـالات الجنـون كانـت نتيجـة لعـزل الاشـخاص عـن بيئـتهم الاجتماعيـة وعـن أهلهـم وعـن ديـنهم وثقـافتهم، فأصـبحوا غـرباء عـن وطـنهم، ومـا ألفـوه وتعـودوا عليـه، ومحـرومين حـتى مـن المسـاحة

الكافية، ناهيك عما يشاهدونه كل يوم، من أعمال وحشية. ويؤكد "فانون" أن الحادث الذي أطلق المرض في الحالات التي عرضها في دراسته، هو بالدرجة الاولى ذلك الجو الدامي، الذي لا يرحم ، وهو تلك الاعمال التي لا تعرف الروح الانسانية ، وهو ذلك الشعور الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون "قيام الساعة"، ويؤكد "أن الحرب هي التي تقلب العالم رأسا على عقب وتحطمه وهي السبب المباشر ومن ثم كانت أعماله تندرج في المنطق الذي يدعو إلى القطعية مع الاغتراب والاستعباد. [45]

كما حاول «فانون» أن يكتب مؤلفاته جميعا كأنها صفحة واحدة من عمل واحد، فهو في الواقع يواصل عملا فكريا لا ينقطع ، و إن كان قد اعتاد التوقف من حين إلى حين أمام ظواهر معينة من اجل التقاط دلالاتها الخاصة بالظاهرة في كل موقف على حدة . و حاول «فانون»أن يخلق سياقا عاما لفكره ، لا ينتهي بانتهاء الكتاب و لا يبدأ من جديد بكتابة مقال و لكنه يمضي في مؤلفاته جميعا كأنه يبسط عملا موحدا لا تجزئة فيه و لا تقطيع بين أنحائه و بين أفكاره ، و كأنه يخلق (بانوراما) كاملا أو منظورا كاملا لوضع فكري موحد يحاول به أن يستخلص ماهيات المواقف المختلفة التي تبرز كنه الشخصية الجزائرية المناضلة .

لقد جاء كتاب «فانون» الأخير "معذبو الارض" في فترة حاسمة من تاريخ العالم الثالث - وجاء كتابه هذا مناسبا لطرح قضايا النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث.

[45] عبد القادر غراب : فرانز «فانون»رجل القطيعة ، تر : عبد السلام يخلف، ط2، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 55

فهناك دراسات تكشف النهب الذي تعرضت له الجزائر خلال قرن وثلث قرن من الزمان توضح الحقيقة حول ما يسمونه المنجزات الايجابية للاستعمار، تبين حقيقة المستفيدين من تلك المنجزات، يقول «فانون»: "ان العالم الرأسمالي قد تعرف على الثروات التي يزخر بها باطن الارض الافريقية من موارد منجمية وطاقوية: "بترول وغاز وحديد ومغنسيوم وفوسفات ونحاس وأورانيوم"، فيشرح ميكانيزم الاستغلال الذي وضعه الساسة الغربيون لنهب هذه الثروات"[46]

والواقع أنه عند تناوله لمثل هذه المواضيع في كتابه "معذبو الأرض" تعدى حدود العالم الثالث واستُقبِل بنوع من الأممية.

ولم يتوان في كتابه هذا وهو على فراش الموت مدى ما كان يعانيه من عنصرية. *

لقد وجد "فانون" في الجزائر هذا التحرر وعلم أنه ينتمي إلى شعب افريقي لا يمكنه أن يرفضه من أجل لونه. ذلك أن فانون:

كان رجلا زنجيا :

و كم كان الصراع عند «فانون» حين تطرقه إلى الزنوجة في كتابه "بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء"[47] . لقد كان ل"فانون" وهو المنحدر من أصول افريقية حساب مع

[46] «المجاهد»- العدد 32 الصادر في نوفمبر 1958 بعنوان "الجزائر وافريقيا في مواجهة الاستعمار"

* اني اتوق إلى أن أكون مندمجا ومغمورا بالموجة البيضاء التي شكلها رجال من أمثال ساتر واراغون - ولا أطلب شيئا غير ذلك («فانون»: " لأجل الثورة الافريقية" – المرجع السابق - ص22)

الاستعمار، وكان عليه أن يواجه عنصرية ذات أوجه مختلفة في الشارع و في الحافلات و في الكليات الجامعية .. آلاف من الأوضاع التي مست أحاسيس «فانون» العميقة و أثارت عداءه للرجل الأبيض، للرجل الأوروبي العنصري المستغل.

و أمام هذا الجدار المنيع الذي لم يعترف فيه "فانون" بأي أساس اجتماعي واقتصادي ، يقرر أن يلقي "صراخ الزنجي" و يستوعب لنفسه هذه المرة بتلك الأناشيد و الأشعار التي ما فتئ ينطق بها الزنوج أمام الرجل الأبيض .

صحيح أن «فانون»"بشرة سوداء أقنعة بيضاء" ثائر ، لكن موقفه هنا أقرب إلى التمرد على القيم البيضاء منه على القيم الزنجية.

ومع ذلك، اذا أردنا أن نفهم مدى التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في "فانون"، أنه في هذه المرحلة لم يكن يفكر في استقلال وطني للمارتينيك أين ولد، ولا للشعوب الزنجية الاخرى في افريقيا أو غيرها، بل كان يسعى فقط إلى حياة أفضل من دون تمييز.

ذلك أن تحليلات "فانون" اندرجت من تعريف العنصرية في اطار مجموعة مميزة هي "مجموعة استغلال شعب من طرف شعب آخر لتصل إلى نتيجة واحدة تتمثل في أن "نتيجة النضال المنطقية هي التحرير الكامل للتراب الوطني" [48]

[47] Frantz Fanon : « Peau noire, masques blancs » Op.cit - Page 72

[48] Fanon « Racisme et culture » in « Pour la Révolution africaine » Ed. Maspéro - Paris 1964 - P. 37

مما لا شك فيه أن أول عنصر يجب الإشارة إليه هو العنصرية التي كانت تتملكه مرارتها طوال حياته. يقول : " عندما أتحدث إلى من يحبونني يقولون إنهم يحبونني على الرغم من لوني، وحينما أتحدث إلى من يكرهونني يعتذرون بأنهم يكرهونني بسبب لوني. وفي الحالتين أجدني حبيس الحلقة اللعينة إياها"[49]

واذا كانت العنصرية ظاهرة مرئية يمكن ادراكها وادانتها وتجاوزها، فإن هنالك صورا أخرى تتخذها الهوية تَوَقَّف عندها كثيرا "فرانز فانون" بالتشخيص والنقد. وأهم هذه الصور هي صورة الاستلاب / الاغتراب. فقد وصف الانسان الزنجي، وبخاصة القادم من جزر المارتنيك موطنه الأصلي، بأنه : "يفعل كل ما بوسعه حين يصل إلى فرنسا لكي ينفي هويته الزنجية، فتراه يقول متباهيا : "إن الزنوج افريقيون، أمّا هو فإنسان مهذّب تشرّب الحضارة الاوروبية، وان كان ملوّنا" ويقول: "ليس لي أية فرصة في أن أمرَّ دون أن أُعرَف . أنا محدد من الخارج - أنا لست عبدا للفكرة التي يحملها الآخرون عني - أنا عبد لصورتي" [50]

إن هذا الاستلاب الذي يعاني منه الانسان الزنجي ومن يماثله في الوضعية الدونية والمنزلة القانونية، وما كان من الممكن وضع حد له، سواء بنقده أو تجاوزه، ولو لم يتمكن بعض الافراد من الانعتاق منه والتحرر منه، بحيث أصبحوا بالنسبة

[49] David Caute : « F.Fanon » - Op. cit

[50] فرانز فانون : بشرة سوداء اقنعة بيضاء – المرجع السابق – ص 88

للزنجي أولا، ولبقية المستعبدين في العالم ثانيا، نموذجا في التحرر. ومن هؤلاء الذين توقف عندهم «فرانز فانون» الشاعر والكاتب والمناضل المارتنيكي "إيمي سيزار" الذي قال ذات يوم "ما أجمل أن يكون الإنسان أسود" [51]

ولا تختلف حالة الزنجي عن حالة المستعمَر ، فكلاهما في نظر الرجل الأبيض الذي هو المستعمر يخضعان للنظرة العنصرية والدونية. فإذا كانت العنصرية تجعل الانسان الزنجي عبارة عن وحش يحب الخطيئة ، فإن المستعمَر قد تم تحويله من قبل السياسات الاستعمارية إلى (حيوان) أو إلى (شيء/جماد) . والاستعمار بما هو نظام قائم وفريد من نوعه يَخلُق شعورا قويا ودائما بالنقص في نفوس الشعوب المستعمَرة.

وتلك ذات دلالات لتصبح كتاباته عندئذ موضوع اهتمام بفكره في أمريكا عند ثورة الزنوج. *

1- وكان «فانون»رجلاً فرنسياً

فهو لم يكن زنجياً فحسب ككل الزنوج المستعمرين ولم يكن رجلاً فرنسياً كالرجال الفرنسيين بإفريقيا الغربية أو إفريقيا الاستوائية. لقد كان «فانون»مارتينيكياً، اي أنه كان مواطناً بأتمّ معنى الكلمة منتمياً إلى إقليم "فرنسي-"

[51] ايمي سيزار : "خطاب حول الاستدمار"- المرجع السابق – ص 37

* تضاعفت خلال السنوات الاخيرة اهمية مسار وعمل فرانز «فانون»في الساحة العالمية. فقد أعيد طبع كتاباته وترجمتها وأنشأت نوادي دولية تحيي أفكاره وقدراته التنبؤية. وفي نفس الوقت خرجت حرب الجزائر من الظلام بحيث ظهرت عن طريقه مراجعات بيوغرافية ووثائقية وتحليلات تاريخية وأفلام

وهذه الوضعية كفيلة لوحدها بأن تدعم أكثر فأكثر طابع الجرح الكبير لسواد لونه، فهو في الوقت نفسه "فرنسي" إزاء زنوج إفريقيا المستعمرين و"زنجي" أي أنه في موضع أدنى إزاء "الفرنسيين البيض".

وهكذا وباتصال «فانون»المباشر مع الواقع العنصري لعالم البيض سيحس ويرى ويدرك أنه "مخالف" للصورة التي تبنتها طفولته وتربيته السابقة، وهو الاتصال الذي سيزيل على مدى السنوات الكثيرة جميع هذه الأوهام ليرسم خلالها «فانون» من "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" إلى "معذبو الأرض" إيديولوجية مادية للتاريخ...

إن دراسة موقف النخبة الفرنسية المثقفة من ثورة الجزائر يساعد على فهم تكوين "فانون" وتطور موقفه والتزامه الشديد النظري والفعلي بمساندة الثورة الجزائرية، ذلك أن مفهوم المثقفين إرتبط أساسا باليسار الفرنسي الذي إكتسح الحياة السياسية والفكرية في فرنسا خلال القرن العشرين

فقد إختلفت مواقف النخبة الفرنسية المثقفة من الجرائم الفرنسية المرتكبة في حق الشعب الجزائري من القتل الجماعي وتطبيق أساليب التعذيب والتشريد والنفي... الخ، حيث أن هناك بعض المثقفين الفرنسيين الذين نددوا بهذه الأعمال وساندوا نضال وكفاح الشعب الجزائري في الاستقلال والحرية، والبعض الآخر لم يكتف بعدم التأييد والسكوت المتحفظ بمبادئهم الفلسفية التي يؤمنون بها فقط، بل أعلنوا عن حقيقة تفكيرهم المعارض لحرية الشعب الجزائري.

هـدفنا مـن هـذه الدراسـة هـو أن نبـين حقيقـة المثقفـين الذيـن إلتزمـوا بمبـادئهم ودافعـوا عنهـا منـذ الحـرب العالميـة الثانيـة حـتى الثـورة الجزائريـة، وحـاولوا تجسـيدها في الواقـع حيـث نجـد أن بعضـهم شـارك مشـاركة فعليـة في تحريـر الجزائـر، والـبعض الآخـر بالكتابـة والمسـاندة المطلقـة لشـعب غـير شـعبهم، ومـنهم : (جـان بـول سـارتر – فرانسيس جونسون – فرانز فانون وغيرهم) .

إن العلاقـة الـتي دُعمـت فـيما بـين المثقفـين "سـارتر" و"فـانون" و"جونسـون" هي مـن أجـل الهـدف الواحـد والمشـترك بينـهم أثنـاء الثـورة الجزائريـة، فمـثلا " سـارتر" إهـتم بالثـورة الجزائريـة لأنـه يـرى بـأن المثقـف الـواعي يجـب أن يقبـل "المسـؤولية الجماعيـة" لا كمثـل عامـة المـواطنين بـل كفـرد له مـيزات خاصـة وفـرص ثمينـة، وعبقريـة قـد تجعـله يـؤثر عـلى عامـة النـاس . ويمكـن القـول بـأن هـذا هـو الذي جعـله يهـتم ويلـتزم شخصـيا بالثـورة الجزائريـة في نهايـة الخمسـينات وبدايـة السـتينات .فقـد أفصـح سـارتر عـن موقفـه في سـنة 1956 ونادى بالإعـتراف بالجزائـر كـدولة والتفـاوض مـع جبهـة التحريـر الـوطني للخـروج مـن المـأزق الذي تعيشـه الجزائـر، وإسـتطاع مـن خـلال كتاباته ولقائه مع المثقفين أن يشكل رأيا عاما معارضا للسياسة الرسمية الفرنسية.

ولعـل مـا يؤكـد مثانـة الصـداقة بـين "فـانون" و"سـارتر"، ان هـذا الاخـير قـد تـأثر في سـنة 1961 بمـوت أعـز صـديق له وهـو " فرانـز فـانون" المفكـر الثـوري المعـاصر الذي قـابله آخـر مـرة في رومـا بإيطاليـا، حيـث قـرأ كتابـه " المعـذبون في الأرض " وكتـب له مقدمـة كانـت عنيفـة وشـديدة اللهجـة للإسـتعمار الفرنسـي في الجزائـر، أعلـن فيهـا مسـاندته وتأييـده لا لنضـال الشـعب الجزائـري فقـط بـل أعلـن

تأييده أيضا للحركات التحررية في العالم الثالث . وفي مقدمة "المعذبون في الأرض" لفانون كان "سارتر" في مقاله أكثر صراحة في الدفاع عن العنف الممارس من قبل المقاتلين الجزائريين لاسترجاع كرامتهم وحريتهم المسلوبة . حيث أعلن سارتر في هذا الإعلان الصريح تضامنه مع جيش التحرير الوطني وندد بشدة ومن جديد بوحشية القوات العسكرية والفرنسية وعاتب الرأي العام الفرنسي علي سياسة السكوت والصمت على هذه الأعمال الإجرامية واللاإنسانية واللاأخلاقية واللاحضارية.

العلاقة بين "فانون" و "جونسون" * هي أعمق من ذلك وبدأت عندما قامت "الشبكة السرية" لـ"جونسون" وتنظيم الإتصال أو اللقاء السري الذي سهل لـ"فانون" الإنضمام إلى صفوف جبهة التحرير الوطني وذلك في جانفي 1957، وبذلك يكون "جونسون" و" فانون" قد قررا الدفاع والنضال من أجل القضية العادلة للشعب الجزائري دون أن يأخذا بعين الإعتبار موقف الرأي العام الفرنسي عامة أو الإتجاه اليساري خاصة الذي كان موقفه سلبيا أي بين المد والجزر تجاه الثورة الجزائرية . وفعلا فقيادة جبهة التحرير الوطني رحبت بشخصية "فانون" وبمواقفه السياسية والثورية التي تساهم في تطوير فلسفة الثورة الجزائرية الفتية، إذ إلتزم بالدفاع عن الشرعية التاريخية للشعب الجزائري فكرا وروحا وعملا، حيث

* فرانسيس جونسون: تفرغ للنضال مع الجزائريين وتولى تهريب الاموال التي يجمعها المناضلون بفرنسا إلى بنوك أوروبية ... وهو الذي تولى نشر أول كتاب لـ"فانون" عام 1952 "بشرة سوداء، اقنعة بيضاء". تعاطف مع الكفاح الجزائري فساهم في التعريف بشرعيته لدى الرأي العام الفرنسي، حيث نشر في العام الثاني من اندلاع الثورة كتابا ألفه بمعية زوجته عنوانه "الجزائر الخارجة عن القانون" (L'Algérie hors la loi) ، عرض فيه الفضائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء حرب التحرير

كُـلِّف بتمثيـل الجزائـر في عـدة مناسـبات دوليـة، وفي شـهر مـارس عـين كممثـل للحكومـة الجزائريـة المؤقتـة في آكرا (غـانا). ومـن هنـا يتضـح لنـا أن تأييـد "فـانون" للثـورة الجزائريـة والوقـوف بجانبهـا هـو كسـب مئـات المثقفين إلى جانـب القضـية العـادلة . فموقـف كل مـن "جونسـون و"فـانون"كان لصـالح الثـورة الجزائريـة لا بالعاطفـة أو بالدعم المعنـوي أو بالكتابـة فقـط بـل بالعمـل الميـداني الفعـلي الذي كان ضـد وطـنهم الأصلي.

والواقـع انـه لم يكـن عـدد المسـاعدين للثـورة الجزائريـة كبـيرا عـلى الـرغم مـن أن جبهـة التحريـر كانـت ترحـب بهـم وبمشـاركتهم الفعليـة والعمليـة إلى جانبهـا وعـلى هـذا الأسـاس نجـد كلاّ مـن فـانون وجونسـون وسـارتر دعمـوا مـوقفهم السـياسي الذي لا يتمثـل في المسـاعدة الماديـة فقـط بـل في مواصـلة العمـل النضـالي لتحقيـق إسـتقلال الجزائر واسترجاع السيادة الوطنية للشعب الجزائري.

إن إنخـراط "فـانون" في خدمـة الثـورة الجزائريـة بـكل حريـة ووعـي وفاعليـة جعـله نموذجـا ثـوريا عمليـا متميـزا عـن غالبيـة المثقفـين والسياسـيين الفرنسـيين، وقـد قـاده فهمـه الـواعي لجـوهر مشـكلة الجزائـر إلى إدانـة خطـاب الاسـتعمار بقلمـه، ثم تحـول إلى الانخـراط في صـفوف الثـورة ودعم المجاهـدين، وذلك مـن خـلال مشـاركته الفعلية في الثورة التحريرية .

في خضـم تكوينـه السـياسي والايـديولوجي، بـدأ "فـانون" يبتعـد شـيئا فشـيئا عـن حزبـه اليسـاري الفرنسـي الذي كان منتميـا له ومؤمنـا بتنظيراتـه، خصوصـا بعـد

انضمامه الكلي في الثورة التحريرية وتعاطفه بفلاحيها، عائدا في ذلك بدرجة قليلة، إلى تأثير "إيمي سيزار"* في مسألة التعلق بحياة الفلاحين وقيمهم باعتبارهما "فلكوراً ناجماً عن اكتساح الثقافة الغربية" كما كان لخلو حياة الفلاحين الجزائريين من كل مظاهر الحياة الأوروبية سبباً أكبر في انجذابه إليهم بحكم عدائه لمظاهر التأثير الغربي بالجملة. أما السبب الأهم في تَشَكُّل هذا التعاطف لدى فانون فيعود إلى أنّ الثورة الجزائرية تطورت وتمركزت منذ البداية في الريف على نقيد إستراتيجية الأحزاب التي تعتمد على المدن حصرياً في إحداث التغيير السياسي المنشود، وإذ ذاك كان الفلاحون مادة الثورة وأساسها.

هناك توصل "فانون" إلى خطأ النظرية الكلاسيكية للثورة في العالم المستعمَر بتجاهلها لطبقة الفلاحين من الصراع؛ كان ماركس يصفهم بـ "أكياس البطاطا" وماركسية القرن العشرين تؤمن فقط بثورة الطبقة العاملة.

كان الحزب الشيوعي الفرنسي يرى مستقبل الجزائر كمقاطعة من فرنسا الاشتراكية، وحسب ديفيد كوت مؤلف السيرة الفكرية لفانون، فإنّ القائد الفيتنامي الشهير نجوين نغي وجّه انتقاداً لاذعاً لفانون لمساندته ثورة فلاحين، وعلق على ذلك قائلاً: لن يكتسب الفلاحون وعياً ثورياً لأنهم يفتقدون التكوين العلمي الضروري الذين يمكِّنهم من التنظيم والتعبئة.

---

* ايمي سيزار : Aimé Césaire واحد من أكبر الشعراء المناهضين للاستعمار ، من عائلة المارتينيك ، يحمل الذاكرة الأليمة للشعب الذي جعل منه سلاح معركة لتحرير الشعوب من الطغيان الكولونياني. هو شاعر الزنوجة وله كتاب حول الاستدمار 1953 ، تر : ميشال سطوف ، منشورات و.و.ن.ت. ، الجزائر ، 2008 .

وقد ردّ "فانون" بأنّ تجاهل الفلاحين من العملية الثورية يعني ببساطة استبعاد الطبقة الثورية الوحيدة التي لا تخشى أن تخسر شيئاً بالثورة، بل تطمع أن تكسب بالثورة كل شيء.

وفيما يشبه الانقلاب على مفهوم الماركسية للثورة همّش فانون طبقة العمال (التي لا وجود لها واقعياً في المستعمرات) في خططه الثورية، وأحل محلها الفلاحين الذين يعيشون على هامش الحياة الحديثة، منغلقين على كل تأثير استعماري؛ فـ"الفلاح الجائع هو المستغل الذي يكتشف أنّ العنف وحده هو الوسيلة المجدية لتحرره." فالفلاح لا يثور وحده بل لابد من إعداده للثورة، وهي مهمة منوطة بالأقلية الثورية داخل أحزاب المدن والتي تعجز عن التأقلم مع المسارات السياسية التي يخطها الاستعمار للأحزاب "الشرعية" فتلجأ إلى الريف فيحتضنها الفلاحون ويخفون كوادرها عن عيون الشرطة ويقدمون لهم يد العون المادي والمعنوي، وإذا أُضيف هذا العون إلى خبرتهم السياسية وأفكارهم التي أُنضجت في المدن، يكون لدينا عندئذ ثوار قادرون على فكفكة الاستعمار.

إستراتيجية فانون هذه لم تكن سوى تصوير دقيق لانشقاق الجناح الثوري من الطبقة السياسية الجزائرية، انفجار 1954، الذي افتتح تاريخاً جديداً تماماً للجزائر واجتذب فقراء المدن والمنبوذين والمجرمين.

لقد قيل إن العالم الثالث اكتشف ذاته وخاطب نفسه بصوت "فرانز فانون". فقد قلب هذا المفكر الماركسي- ، الذي جمع بين التنظير والممارسة من خلال مشاركته في حرب التحرير الشعبية بالجزائر، العديد من يقينيات الماركسية

اللينينية. ومساهمته كانت واضحة في دراسة البنيات الكولونيالية، تجاوز فيها ثنائية الاستعمار والخاضعين للاستعمار. وتكمن هذه الإضافة، في أنه رفض " الجدل" الذي اعتبر مرور دول العالم الثالث من الاستعمار ضرورة تاريخية لتحول المجتمعات نحو الحداثة والاشتراكية

بالنسبة لـ"فانون"، فان أحد هذين الطرفين زائد ويجب أن يزول. وهذا الزوال عليه ان يكون تاما و شاملا وبلا رجعة : " إن محو الإستعمار على أي مستوى درسناه هو إحلال نوع انساني محل نوع انساني آخر كليا شاملا مطلقا بلا مراحل انتقال".

لقد مثلت المدن بالنسبة لكارل ماركس الحضارة التي يمكن أن تقضي على حياة البلادة للقرووين. أما بالنسبة لفانون فهي على العكس، فمدن المستعمرات هي رمز الغزو الكولونيالي، وهي الدودة الزائدة التي من خلالها يغرس المستعمر اليات تحكمه، كما انها هي رمز نجاحه و تعايشه مع الخاضعين لسيطرته.

لقد وجهت انتقادات عديدة لـ"فانون"، وغالبيتها ركزت على انحيازه للفلاحين ولثقافتهم . والواقع أن فانون لم ينظر للفلاح بعين ماركس، اي ذلك الانسان المحافظ المرتبط بأرضه الصغيرة و التي تنتهي عندها حدود الوطن بالنسبة اليه. ففلاح "فانون" هو انسان معذب، و في عذابه تتجسد مهانة الأمة بإسرها. إن انتماؤه للأرض هو انتماء قومي للأمة باسرها.

فالأرض بالنسبة لـ"فانون"، تمثل القيمة الملموسة والثابتة الوحيدة التي تدل على هذه الأمة، فهي رمز الخبز والكرامة واستمرار النسل في عالم كولونيالي مزق

فيه المستعمر البلد لشطرين وحطم شخصيته القومية وشوه جميع قيمه الروحية والاجتماعية المتوارثة.

لذلك فالفلاح بالعالم الثالث هو فلاح ثوري يمثل العنصر الباقي من الامة الذي يابى اي حوار مع المستعمر، عكس سكان المدينة التي أنشأها الاستعمار لتؤمن نوعا من التعايش معه و تأمين وجوده بوجودهم. و من هنا يرى "فانون" أن الطبقة الثورية الوحيدة في المجتمع الكولونيالي هي طبقة الفلاحين، متناقضا بشكل جذري مع كل التصورات المتوارثة عن الماركسية.

يبقى ان نشير، أن "فانون" لا يرفض الماركسية، كما انه لم يسع الى تحويل استنتاجاته النظرية الى مذهب شعبي، بقدرما سعى الى تكملة التحليل الماركسي من خلال تطبيق نفس المنهج على العالم الكولونيالي، الذي تختلف فيه مسارات شعوبه ومجتمعاتها عن المسار الاوروبي الذي نشات فيه الماركسية.

وبما أن "فانون" منخرط دائما في النقاش حول طبيعة الثورة التي يعد قوامها من الفلاحين وليس البروليتاليا، فإن احتكاكه في الثورة الجزائرية جعله يتابع نشاطه الفكري على صعيد مزدوج: مواصلة دراسته للحالات النفسية التي تقع ضمن نطاق اختصاصه، وتوسيع ثقافته السياسية وتعميقها، وذلك قبل أن يتفرغ كلياً للعمل في صحافة الثورة ضمن هيئة تحرير جريدة "المجاهد"، في وقتٍ كانت فرنسا تتأهب لتحويل الجزائر إلى معسكر اعتقال كبير من خلال إقامة الخطوط المكهربة وزرع الألغام على حدودها الشرقية والغربية، ويسجل ما لا يعرفه من دقائق الحياة في الجزائر ، الاجتماعية منها والسياسية.

فقد كانت هذه الثورة صاحبة الفضل الأكبر في تطوير فكره ودفعه في منحنى ثوري لم يعرفه من قبل، بعد ان استوعب مبادئها وهضم أفكارها. بذلك انتقل فانون من التمرد الفردي على "القيم البيضاء" و"الزنوجة" وماضيها، إلى الإدانة الكاملة للاستعمار ومن ثَمّ الانخراط في أممية جديدة على مستوى العالم الثالث بعد أن أتاحت له جبهة التحرير اتصالات جديدة مع العالم الخارجي وكلّفته بالتواصل مع حركات التحرير الإفريقية وجعلته متحدثاً دبلوماسيا باسمها.

كما أتيح له في ظل هذه الوضعية أن يتلمس عن قرب تلك المعطيات التي مكّنت الثورة الجزائرية من أن ترتفع فوق ظرفها المحلي إلى مستوى التجربة التي يغمر إشعاعها محيط العالم الثالث كاملاً، وسرعان ما أدرك "فانون" الدروس التي يمكن استخلاصها من التجربة الجزائرية وتقديمها للعالم الثالث كي يستفيد منها في صراعه ضد الاستعمار، وكانت الملاحظات التي أوردها في "معذبو الأرض" بصدد التحرر الوطني ثمرة لهذا الاحتكاك المباشر.فإذا كان الاستعمار الفرنسي للجزائر مختلفاً عن أي تجربة استعمارية أخرى في عنفه وجذريته ومحاولته محو الشخصية الوطنية الجزائرية والقضاء على أي جيب من جيوب المقاومة؛ فإن الثورة الجزائرية دُفعت بطريق رد الفعل إلى أقصى- درجات الراديكالية في طريق استرجاع الحقوق عن طريق الكفاح المسلح، وفي خضمها قطع فانون مع ماضيه الفرنسي، تماماً، على المستوى السياسي إلى درجة أنه دعا سارتر لـ"تطهير نفسه من الفرنسة" و"تردكلة" أفكاره، التي هي مزيج من الماركسية والوجودية وعلم النفس، لتصبح على مستوى راديكالية الثورة الجزائرية.

أبـرز الباحـث الأسـترالي في مقـال نشـرته يوميـة "ذي نانمبيـين" ان الثـورة الجزائرية " أثرت بشكل عميق على تفكير الزعيم الجنوب افريقي "نيلسون مانديلا" والفيلسـوف والكاتـب "فرانـز فـانون" بحيـث رسّـخت لديهـما جـزءا كبـيرا مـن مفهـوم الاستعمار والقمع والحرية"

وفي المقـال المعنـون "مـاذا تَعلَّـم مانـديلا وفـانون مـن الثـورة الجزائريـة خـلال الخمسـينات"، ذكّـر الباحـث الاسـترالي بـ"زيارة منـديلا لوحـدات جـيش التحريـر الـوطني بالمغـرب عـام 1961 " وكـذا بخروجـه مـن السـجن عـام 1990 ، حيـث "كانـت الجزائـر أول بـلد يـزوره" ، معتـبرا ذلك "عمـلا رمـزيا اعترافـا باسـتلهامه مـن الثورة الجزائرية في مواجهة الابرتيد"

وحسـب ذات الباحـث، فـإن الـزعيم الافريقـي قـال في سـيرته الذاتيـة "اسـتَلهَمتُ الكثـير في رحلـتي الطـويلة مـن أجـل الحريـة" وقـارن فيهـا "الثـورة الـتي قادها المؤتمر الوطني الافريقي بثورة التحرير الجزائرية كونها الاقرب إليها"

فحركات التحـرر الـتي ألهبـت منتصـف اقـرن المـاضي في أمـريكا اللاتينيـة وآسـيا وافريقيـا مثلـت الإطـار السـياسي لفكـر "فـانون" الذي كان همـه الاول أن تجـد شـعوب العـالم الثالـث المسـلوبة الـثروات والقـرار، مكانهـا بـين القطبـين الشـرقي والغـربي . ولم يقتنـع "فـانون" بإمـكان عـزل القضـية الجزائريـة عـما يعانيـه "معـذبو الأرض" بـل كان نضـاله المكثـف خـلال السـنوات الأخيرة مـن حياتـه يتركـز عـلى توحيـد الجهـود بـين كل حـركات المقاومـة ، ويـرى ان نجـاح الحـركات الثوريـة لا يواجـه معوقـات خارجيـة

فحسب بل موعوقات داخلية أيضا كالعقليات البورجوازية التقليدية في المجتمعات المحرّرة وكالفساد في الانظمة الحاكمة.

لَكَمْ ينطبق هذا التحليل على الواقع العربي الرّاهن؟

البـــاب الـثاني

الفصل الأول :

مفهوم الشخصية ومحدداتها في الجزائر

المبحث الأول : مفهوم الشخصية

تتعدد سبل الحديث عن الشخصية، خاصة فيما يتعلق بإبراز الاحوال الروحية والفكرية والسيكولوجية الجماعية التي تميز مجتمعا من المجتمعات.

لذلك كان السبب الرئيسي في عرض هذا الفصل هو ابراز سمات الشخصية التي تساعد على فهم الأسباب المفسرة لقيام الشخصية الجزائرية بسلوك معيّن في مواجهة مواقف معينة – كما استجلينا ذلك من كتابات "فرانز فانون" - أي أن ثمة متغيرات جانبية نراها مؤثرة في تشكيل الشخصية وضبط ملامحها وظلالها هي مقرونة بالأحداث التاريخية الكبرى التي عاشتها الجزائر.

ولعلني لن أكون قد جانبتُ الصواب إن قلتُ أن مفهوم الشخصية هو من بين المفاهيم التي يحاصرها التعقيد في اكثر من جانب واحد إلى درجة انه أصبح من بين مفاهيم العلوم الانسانية التي يصعب الإقتراب عنها والتسلل إلى ميادينها بلا عناء. وهو مفهوم تشتت استعماله بين علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والأنتروبولوجيا، وله اشتباكات بالتاريخ وتقاطع مع علوم اخرى كالبيولوجية. ولهذا السبب التبست تعريفاته وعسرت مقابلاته بتعريف اكاديمي يوثق الاجماع.

يتفق الباحثون على أن موضوع الشخصية هو على درجة كبيرة من الحساسية والتعقيد نظرا لتشعبه وتشابكه حيث أن خصوصياته لا يمكن أن تتأسس بمعزل عما يحيط بها من عوامل حركية المجتمع الذي يصوغ هذه الشخصية مراعيا عناصرها الاساسية والتي هي اللغة والدين والتاريخ والانتماء الحضاري.

فالشخصية الجامدة المغلقة لا تؤدي إلا إلى التلاشي والذوبان في منظومة الآخر الثقافية والحضارية واللغوية.

إن محاولة الهيمنة المحلية والداخلية مباشرة بعد استقلال الجزائر، ومنها الصراعات الفئوية والجهوية حول السلطة، وتعدد الإيديولوجيات حول البناء السياسي والاقتصادي للجزائر المستقلة، أدى إلى سوء فهم المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، مما مكن البعض بإدخال عدة اعتبارات إيديولوجية في تقييم هذه الشخصية بحسب متطلبات النزعة السياسية الجديدة والمتمثلة في المذهب الاقتصادي المتبنّى ، وكذا الخيار الإقليمي العالمي ، وكلها اعتبارات شغلت الجزائر عن قوميتها ولم يهتم أحد بالكشف عنها وإبرازها سواء من الطبقة المثقفة أو القاعدة من عامة الشعب. من هنا فإن التطلع إلى الحقيقة الجزائرية لمعرفة القيمة الدقيقة لمقومات الهوية القومية كانت مخاوف الجميع، سواء المسئولين عندنا أو الساسة الأوربيين والعرب والذين ينتمون إلى العالم النامي، بالرغم من بساطة الحقيقة ونزاهة ما تحمله من نقاوة وتعايش.

لقد تعددت الاتجاهات المعرفية في العلوم الانسانية التي بحثت في قضايا الفرد ومكانته ودوره،وحقيقة سلوكاته، وعلاقته وتصوراته .

وفي هذا الاطار يشكل الانسان محورا رئيسيا في حقل علم النفس والأنتروبولجيا التي تأسست لهذا الغرض، حيث تشكل دراسة الشخصية الموضوع الأساسي الذي تأسس من اجله فرع خاص جمع بين علم النفس والأنتروبولوجيا

والـتي تعتـبر الثقافـة والشخصـية مـن الموضـوعات الهامـة الـتي تؤسـس هـذا الاتجـاه المعـرفي، وحيـث دارت حـوله الدراسـات العديـدة بهـدف الكشـف عـن العنـاصر الـتي تشكل بناء هذه الشخصية للوصول الى فهم منطقي لها.

ويعــود سـبب تنــوع الدراسـات وكـثرة الاهتمــام بموضـوع كهـذا إلى اختــلاف الاتجــاهات مــن جهـة، وإلى الخلفيــات والأغـراض الــتي كانــت تختفـي وراء هــذه العمليـات من جهة أخرى

يُعــرّف "روباك" الشخصـية بأنهــا مجموعــة مــن الاســتجابات والاســتعدادات والاتجاهات الاجتماعية والمعرفية والانفعالية.

ويعرفهـا "مـاي" و"فليمنـغ" بأنهـا مجمـل السمـات والصـفات والعـادات الـتي مـن شـأنها التـأثير في الآخـرين وفي اتجاهـاتهم. وكان تعريـف "عـثمان فـراح" للشخصـية كونهـا التنظـيم الهيكلـي الداخـلي لاسـتجابات الفـرد الانفعاليـة الذاتيـة والخارجيـة، بالإضـافة الى العمليـات العقليـة العليـا، كالادراك والتـذكر الـتي تحـدد شـكل الأنمـاط السـلوكية الاستجابية للفرد.

ويعـرف علمــاء الاجتمــاع الشخصـية تعريفـات عـدة باعتبارهـا احـد العنـاصر الأساسية.

"رالـف لينتــون" : يـرى أن نفـس المجتمـع يقبـل بنــمط واحـد مـن الشخصـية وهـو مـا سـمـاه بالشخصـية الأساسـية، وفي نفـس الوقـت يقبـل بأنمـاط متعـددة مـن الشخصــية ســمــاها بالشخصــيات الوظيفيــة. فالشخصــية الأساســية : تشــير الى

مجموع العناصر المشتركة بين افراد المجتمع، وهي مواقف واستجابات تتجلى في مختلف أنماط السلوك والإحساس او التفكير. وأما الشخصية الوظيفية فهي ترتبط بالوظيفة الاجتماعية للأفراد كما يسمح لهؤلاء بأن يتصرفوا بمجرد معرفتهم للمواصفات المرتبطة بالمكانة التي يحتلونها بالمجتمع.

وهكذا فالمجتمع حسب رالف لنيتون " يبلور شخصية أساسية مشتركة بين جمع أفراد المجتمع، وشخصية وظيفية مرتبطة بالأوضاع والوظائف التي يؤديها الفرد داخل المجتمع. ويلاحظ انه بقدر ما يكون المجتمع منغلقا ومتخلفا تذوب شخصية الأفراد في الشخصية الاساسية العامة للمجتمع، في حين تطغى السلوكيات ذات النزعة الفردية في المجتمعات المتطورة والمتفتحة. " [52]

والواقع أن العلوم الاجتماعية تعاملت مع الشخصية كنتيجة حتمية لمحددات متعددة بيولوجية وسيكولوجية وسوسيو ثقافية، اي لعوامل اجتماعية تشكل توجهات الفرد وتصوراته وقيمه وعاداته .

وإذا كان "كانط" قد بنى تصوره لمفهوم الشخص على أساس الوعي الاخلاقي لاعلى اساس الوعي المعرفي كما هو الشأن عند ديكارت، فالشخص البشري عند "كانط" هو كائن يتميز عن الكائنات والموجودات الطبيعية بالعقل والإدارة والحرية والكرامة.

[52] رالف لينتون، في كتاب أحمد سهير كامل : سيكولوجية الشخصية – مركز الاسكندرية للكتاب – الاسكندرية 2003

"سارتر" : يرى ان الانسان يصنع ذاته باستمرار وفق ما يختاره لنفسه وفقا للصورة المستقبلية التي يضعها نصب عينيه "ليس الانسان شيئا اخر غير ما هو صانع بنفسه"..فهو الذي يمنح للاوضاع الاجتماعية والثقافية وغيرها معنى محددا انطلاقا مما يرغب فيه وما يطمح اليه.

لهذا يرى "سارتر" انه لا يجب على الانسان ان يفعل ما يضر بنفسه أو بالانسانية، فالانسان كما يتخيله "سارتر" هو انسان حر لكن حريته مرهونة بالتزامه بالمبادئ الاخلاقية و القيم الانسانية التي يجب عليه تجسيدها في وجوده لكي يقدم صورة مشرقة عن انسانيته.

بعد هذه الالتفاتة المحتشمة إلى مفهوم الشخص جاء الاهتمام بالمحددات الثقافية التي تسهم في إبراز ملامح الشخصية الجزائرية وصقل قسماتها المميزة وترسيخ هويتها.

وقد تبين لنا بأن اهم العناصر التي لها تأثير كبير على هذه الشخصية هي العناصر المتمثلة في الدين واللغة والطقوس والمعتقدات والقيم والاتجاهات

فما لا يترك اي مجال للجدال والشك أن للدين دوراً بارزاً في تشكيل عقل الجزائري وتخليق نفسيته ووجدانه وهويته إذ يمثل القاعدة التي ترتكز عليها ذاكرة الماضي والحاضر والمستقبل. وكان ضروريا لحماية المجتمعات البشرية من الزوال والاضمحلال ، به تتغذى الخصوصيات

الثقافيـــة. وبـــه تســـهم العوامـــل الأســـاسية في إشـــــــاعة الاســـتقرار الاجتمـــاعي وتعزيـــزه مـــن خـــلال ترسيـــخ أواصر الجمـــاعات وتوطيـــد تمـــاسكها وتوحيـــد أفكارهـــا وأحاسيسهـــا وسلوكاتها، وبه يتحقق للفرد تكيّفه واندماجه واستقراره النفسي.

وتســـهم اللغـــة بدورهـــا كـــذلك في صبـــغ الشخصـــية مـــن خـــلال إنمـــــــاء قـــدراتها الذاتيـــة والعلميـــة وتقويـــة ربـــاط الجماعـــة وتوجيـــه أفرادهـــا وصـــهرهم في وحـــدة قويـــة راســـخـــة وحمـــاية هـــويتهم مـــن التشوهـــات وألسـنتهم مـن الرطـانات وتحصينهـم مـن التشتت والتدهور النفسي.

وبفضـــل اللغـــة ومـــن خلالهـــــــا تتحقـــق تنشـــئـــة الفـــرد الاجتماعيـــة وتتشكل ذاته ويتعمق شعوره بالانتمـاء إلى حضارة موحدة.

وتبـــدو الشخصيـــة في المجتمـــع الجزائـــري مشبعـــة بكثـــير مـــن المعتقـــدات والطقـوس التي تغذيهـا بغذائهـا وتشرط كثيراً من سلوكاتها.

فسلـــوك الفـــرد واتجـــاهاته وقيمتـــه المختلفـــة، وممارســـاته وإدراكاتـــه وتصـــوراته للأشيـــاء، ونظرتـــه للكـــون، وكـــذلك تفـــاعله مـــع باقي الافـــراد والجمـــاعات، جميعهـا تثـب إلى بنيـــة الشخصـــية الـــتي تتـــداخل مجموعـــة مـــن العوامـــل في تكوينهـــا، كالعوامـــل البيولوجيـــــة والـــنفس - اجتمـــــاعية موروثـــــة وتكوينيـــــة. كـــما تفعـــل العوامـــل السوسيـــوحضارية للمجتمـع أو الجماعـة الـتي ينتمـي إليهـا وينشـئ داخلهـا فعلهـا، إن العوامـل المحـددة للسـمات والأدوار هي الـتي تميـز شخصـاً عـن الآخـر وهي ذاتهـا تصنـع المواقف المرتبطـة بالتطور الحضـاري التاريخي وبالأنمـاط الثقافية.

فالقـوى والعوامـل النفسـية الإجتمـاعية الـتي يتعـرض لهـا الفـرد خـلال عمليـة التنشئـة الاجتمـاعية تشـكل عاداتـه وأنمـاط سلوكـاته وتصـوراته للكـون والحيـاة وقيمـه الاجتمـاعية واتجـاهاته الفرديـة، لذا تختلـف طبيعـة العلاقـات الاجتماعيـة مـن منطقة لأخرى .

فالمجتمـع بمـا يحتويـه مـن أشـكال شـبكات العلاقـات الإنسـانية والأفكـار والطقـوس والقيم جميعهـا تشـكل الوسـط الذي يتشـكل فيـه الكائـن الإنسـاني وتتحـدد معالم شخصيتـه العامة - الشخصية القاعدية - ومواقفـه وأدواره.

حركيـة المجتمـع الجزائـري افـرزت ظـواهر اجتماعيـة مختلفـة مـن بينهـا العـادات والتقاليـد والإرث الثقـافي العـام. وقـد ارتبطـت العـائلة الجزائريـة بالمجتمـع في علاقـة جدليـة ومارسـت ممارسـات ناتجـة عـن الوجـدان الشـعبي لتلبيـة رغباتهـا المعيشـية في ظـل الاحـتلال، وكانـت قائمـة مـع قيـام المجتمـع تتحـرك بحـركات أفـراده الثقافيـة والاجتماعيـة تحـاول ان تحـافظ عليهـا الذاكرة الجمعيـة مـن خـلال احيائهـا في كل فـترة ومناسـبة، لأهـا تـترجم نمـط تفكـير وفلسـفة شـعبية وتـدابير ماديـة ومعنويـة مـن اجـل مجابهـة الظـروف الاستعمارية السائدة.

ويظهـر جليـا عـلى مسـتوى الحيـاة الاجتماعيـة إبان الثـورة وجـود رباط روحي يـربط حركيـة العـائلة بعاداتهـا وتقاليـدها عـلى مـر الـزمن ، إذ تشـكل العـائلة النـواة الأولى الـتي يقـوم عليهـا المجتمـع كونهـا تلقّـن افرادهـا ثقافـة المجتمـع ومعاييـره وقيمـه، واعتـبرت الأسرة -كـما يحـددها "فـانون" في كتابـه "سوسـيولوجية ثـورة"- نظامـا اجتماعيـا مصـغرا يوجـه سـلوك الأفـراد وينظمـه داخلهـا في اطـار محـدد ، يعتمـد عـلى احـترام

معاييرها وقيمها وعاداتها. وقد شكل هذا الرباط الروحي بين العائلة في حركيتها وبين عاداتها ملجئا يعود إليه الافراد ليجدوا فيه الامن والاستقرار والاطمئنان وذلك قيامهم بها وتبنيها خوفا من الاغتراب الثقافي.

ومما لا شك فيه أن تصرفات المجتمع تمثل العناصر التي صاغته الثقافة الشعبية ووسيلة يستعملها المجتمع كقوة ضابطة لسلوكيات أفراده يستخدمها كوسيلة لحماية ذاته وهويته الثقافية والاجتماعية.

في اطار هذه المكانة التي تحتلها العائلة بقيت العادات الاجتماعية والتقاليد احدى العناصر الأساسية التي عملت العائلة على الحفاظ عليها وحمايتها لأنها تعتبرها ساترا لشخصيتها ورمزا مهما في خضم المعارك والتغيرات الاجتماعية والثقافية التي تواجهها أمام الممارسات الجديدة القائمة على التضاد والتناقض

لقد أصبح للعادات والتقاليد دور في المحيط الاجتماعي والتنظيم ، واعتبرت المحرك الأساسي للمجتمع، تُعبِّر عن حالات معنوية ذات علاقة روحية عميقة الجذور بنفسيات المجتمع وقيمه الثقافية والاجتماعية

ومن المعلوم أن المدينة هي الأكثر تعرضا لمقومات الحداثة لاتصالها بمفهومي الحضارة والمدنية كاساسين تقوم عليهما الحداثة ، فتجد العائلة نفسها في مرحلة انتقالية من نمط تقليدي يخضع لضوابط وقواعد تمليها التقاليد إلى نمط جديد يتبنى بنفسه الحداثة والعصرنة فكريا وسلوكيا ، اجتماعيا او ثقافيا أو اقتصاديا مما يجعل

العائلة تعيش صراعات نفسية وثقافية وتعيش تغريبا ثقافيا يزعزع وحدتها ويماسك افرادها وكيانها

ومما يلاحظ ان دراسة الشخصية فيها يخص الجزائر والعالم العربي عموما قد بقيت حكرا على الباحثين الاجانب والذين - ان لم تكن استخلاصاتهم تهدف الى خدمة الاغراض الاستعمارية فيها - إلا انه حتى اولئك الاقلاء الذين استهدفوا العلم لذاتهم ، كانوا ينطلقون من بعض المسلمات الخاطئة عن الواقع الثقافي للمجتمعات العربية.

وفي الجزائر، وقت سيطرتها الكاملة للاحتلال الفرنسي(الاستيطاني) لمدة طويلة، لم تجر فيه اية ابحاث علمية موضوعية حول الشخصية الجزائرية ككيان مستقل عن الشخصية الفرنسية، حيث كان المحتل الفرنسي يعتبر البلاد جزءا من فرنسا ترابا وشعبا، وبالتالي ظل يحظر على الباحثين الخوض في دراسة موضوع الشخصية القومية الجزائرية الا من زاوية اثبات الاصل الغربي للمجتمع الجزائري، قبل اختلاطه بالعنصر العربي بعد الفتح الاسلامي...وذلك بهدف ابقاء المجتمع الجزائري غير شاعر بشخصيته المتميزة التي تؤكد لديه الشعور القومي، وتدفعه بالتالي الى طلب الاستقلال.

وقد انطلى الامر على وجه الخصوص على المؤرخين الفرنسيين الاستعماريين الذين ما فتئوا يصرّحون بأن المجتمع الجزائري لا يعدو كونه اشتاتا

من الشعوب المختلفة (بربرية وفينيقية ورومانية وعربية وتركية وفرنسية)* لا تربط رابطة ثقافية تجعلها ذات شخصية متميزة بخصائص معينة...وهذا ما كان يهدف المحتل الفرنسي الى تأكيده دوما في اذهان الجزائريين، ولا يزال .

ومن المبادئ التي كان يقوم المستعمِر الفرنسي بتطبيقها، وهو اعتبار ان المجتمع الجزائري مكون من عنصرين او عرقين، وهما العنصر البربري والعنصر العربي.

وكان لمن تأثروا من أبناء منطقة القبائل بالأطروحات الفرنسية ومنظريها الدور الكبير في تبني الأفكار القائمة عن النزعة البربرية التي كان يمهد لها الاستعمار ويعلن عنها [53]

هذه المساعي الاستراتيجية شَجَّعت وسمحت لدعاة البربرية بحرية التحرك والدعاية والانتشار داخل خلايا التيار الاستقلالي، خاصة في ظل الانسداد الذي وصل إليه هذا التيار بفعل رفض السلطات الاستعمارية والاستجابة إلى أدنى مطالب الجزائريين، خصوصا بعدما عرفته الجزائر عند نهاية الحرب العالمية الثانية من أحداث سياسية وتطورات اجتماعية وثقافية ساعدت النخبة ذات النزعة البربرية على أن تخرج من عزلتها وتحاول فرض وجودها في الساحة الجزائرية .

* أنظر الفصل الرابع من هذا الباب "السمات الثقافية في كتابات فانون"

[53] مومن العمري : "الحركة الثورية في الجزائر، من نجم شمال افريقيا إلى جبهة التحرير الوطني 1926-1954" دار الطليعة - قسنطينة - ص ص 205-206

مجازر الثامن ماي 1945 وما اعقبها من قمع في مختلف أنحاء الوطن ومنها منطقة القبائل دفعت الحركة الوطنية الجزائرية بجناحيها السياسي والإصلاحي إلى مواجهة الواقع الاستعماري الفرنسي بالجزائر وما يفرضه من تحديات، مما جعل مناضلي الحركة الوطنية يحجمون عن الخوض في أفكار دعاة البربرية ويعتبرونها من أساليب الاستعمار وأداة يستعملها للتفرقة العرقية في شمال افريقيا، وبذلك لم تسمح لمنظري السياسة البربرية من الفرنسيين ومن اللذين تأثروا بهم أن يحققوا ما كانوا يأملون إليه بعد أن عجزوا عن نشر أفكارهم، بحيث لم يعد للأصل العرقي أي أثر بعد الامتزاج الثقافي والاجتماعي في المجتمع الجزائري

من هنا يمثل عمل "فانون" اول محاولة علمية تتناول المجتمع الجزائري كوحدة ثقافية يفترض ان تكون ذات سمات مشتركة تطبع الشخصية القومية عن طريق الثقافة لا تُدخل في حسابها العوامل الاثقافية المكتسبة. اما العوامل العرقية فهي غير مكتسبة وبالتالي غير ثقافية وتسقط من حساب الباحث في الانثروبولوجيا الثقافية.

ذلك أنه من الامور التي لا جدال حولها في الانثروبولوجيا هو ان الثقافة هي المسؤول الاول على تحديد الشكل الرئيسي للشخصية القومية في اي مجتمع، وبالتالي يكون من الحتمي ان تختلف من الشخصيات في بعض خصائصها باختلاف الثقافات. وطالما ان المجتمع الجزائري لم يعرف ثقافة واحدة طوال وجوده، يكون من الاهمية بمكان تحديد السمات الاساسية للثقافة الغالبة التي كان لها الدور الرئيسي في تشكيل الشخصية الرئيسية للمجتمع

المبحث الثاني : بعض محددات الشخصية الجزائرية

الى جانب النماذج السابقة نجد اتجاها آخر اعتمد في محاولاته لفهم الشخصية الجزائرية على اختبارات الشخصية لتحديد الأنماط السائدة والكشف عن بعض السمات الغالبة عليها، ومن بين هذه المحاولات الاختبارات الخاصة بالفحص النفسي الجماعي.

هذه الدراسات أثبتت علاقة نمط الشخصية بالعامل الثقافي الاجتماعي وتوضح أن الشخصية الجزائرية تتميز عن الشخصية الغربية في بعض السمات ومنها ما يتعلق بالعلاقات الإنسانية المنسوبة إلى أصالة و تكوين "الأسرة الجزائرية التي تمثل جماعة متماسكة قوية التنظيم يصعب التوغل داخلها " *.

هذا فضلا عن قيم النشاطات و المهن الرجولية و مقاومة الخوف وكبت المشاعر الانفعالية.

فيما يخص مقياس الانفعالية الذي يقيس اعتدال المزاج ، والحركة ، والاهتمام والتفاؤل والتوازن في مواجهة الميول الاكتئابية و النزعة الدورية فان المزاج المفضل بالنسبة لهذا الاختبار هو الانطوائي المتزن المنطقي والمنظم والمؤدب والمنضبط ، الا ان الفرد الجزائري يبدو انفعاليا متميزا بالتردد والقلق، وهو ما يشيع الاعراض الاكتئابية والقرح المعدية التي يشير اليها الاخصائيون في

* فانون: "سوسيولوجية ثورة" - الفصل الثالث

الوسط الطبي النفسي الجزائري ، ووجود صعوبات شخصية متميزة بانفعالات قوية وتجاذب و جداني لدى فرد يعيش لحظته بعمق ويبقى وفيا لماضيه وتقاليده.

هذه بعض المحاولات التي خصصت لفهم الشخصية الجزائرية من منظورات مختلفة يمكن أن نعتبرها لبنة أولى من اللبنات التي قد تساعد كل من يهتم بهذا الموضوع على استجلاء ببعض جوانبها وادراك كنهها ووظيفتها، كما قد ترشد الاخصائي النفسي- في ممارسته الميدانية الى الاستعانة بها في تفسير المنتجات النفسية والمرضية.

البعد الآخر الذي يبرز كعنصر اساسي من عناصر الشخص الجزائري هو التطلع إلى تهذيب النفس و الرقي بها إلى مرتبة تجعلها تتسم بالخلق القويم و تحظى بالاحترام والتقدير . هذا الاحترام الذي يرمز إليه في الجزائر بمفهوم "النيف". اذ يعبر عن المتطلبات العقلانية التي يمليها الواقع الاجتماعي كما يعبر في نفس الوقت عن شخصية الفرد و سلوكه و عن طبيعته الخاصة و عن توازنه المنسجم و انضباطه في المجتمع وفق القيم الاخلاقية المستوحاة من المرجعية الثقافية و الدينية.

فمن خلال الحياء والشرف تتحدد نظرة كل جزائري إلى العالم اذ ان التربية التي يتلقاها في هذا المجال و يعتبرها البعض صارمة تجعل سلوكه الفردي منسجما تماما مع المطلب الجماعي . فالحياء قد يصبح سمة ملازمة للشخص الجزائري بإمكانه ان يصنع منه انسانا خجولا ومنطويا و متحفظا.

و كثيرا ما تعتمد الطرق التربوية للحفاظ على سمعة العائلة والحفاظ على شرفها على المراقبة . فالفتاة في الوسط الجزائري ، يخبرنا محمد ديب " تظل تحت المراقبة المشددة منذ السنوات الأولى و إلى سن البلوغ و قد يكلف الأخ الأكبر بهده المهمة الذي يعد لها إعدادا كاملا و مبكرا."

و على الرغم من التحولات التي يعرفها المجتمع و التطورات التي تفرض على الافراد أنماطا جديدة من السلوكات و من القناعات فإننا نلاحظ بان الشخصية الجزائرية لازالت تصر على التمسك بالنموذج القيمي و الثقافي التقليدي لأنه هو وحده الذي يكفل استقرارها ويحفظ لها أصالتها و تماسك وحدة هويتها و يقيها الاضطرابات الاجتماعية و الثقافية والنفسية .

كل هذا يكاد يحدث بسبب الضغوطات النفسية الاجتماعية التي تزاحم متطلبات القيم و تدفع الشخص الجزائري إلى تكييف سلوكاته وفق مكانة شخصيته أو وفق الأدوار التي ينتظرها منه المحيط . هذه التأثيرات و هذا البعد النفسي الاجتماعي يجعل من الشخصية الجزائرية شخصية متباينة في سلوكاتها واتجاهاتها وقناعتها فهي إما ملتزمة بالقيم السائدة أو مبتعدة عنها و منساقة وراء تطور الأعراف و التقاليد أو خاضعة للاساليب التربوية المتجددة .

تتأكد لنا أهمية دراسة الشخصية الجزائرية في الوقت الحاضر، لِما طرأ على الثقافة الجزائرية من تغيرات أهمها مرحلة الاحتلال ، والحروب التي تخللتها مرحلة الاستقلال والتي تشكل انتقالا كليا أعقبه تغير ثقافي كبير ، و لاشك أن تلك

التغيرات أثرت على السمات الرئيسية للشخصية الجزائرية ، كما تناول «فانون» ذلك في كتاباته ، لان الشخصية ليست شيئا ثابتا ، بل هي عرضة للتطور والتغير بنفس النسبة التي تتغير بها الثقافة السائدة .

ولعل اسهام «فانون» في تبيان الثقافة و الشخصية في بلد عربي كالجزائر ، يعتبر إنجازا ثقافيا يضاف إلى رصيد الأبحاث التي أخذت تتجه إلى التأصيل ، والاستقلال بموضوعاتها الخاصة ، كما أكد على ذلك علماء الاجتماع العرب في مؤتمر النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي المنعقد في الجزائر سنة 1973 .

و يتبين مما حاولنا إثباته لأهمية دراسة الثقافة والشخصية أن معالجة هذا الموضوع يدخل بالضرورة في نطاق علم النفس الفردي و علم النفس الاجتماعي .

ولذلك يمكن القول أن دراسة الثقافة والشخصية تتكامل فيها هذه العلوم الإنسانية تكاملا كبيرا ، ولعل هذا ما حدا ببعض العلماء أن يطلقوا على الثقافة والشخصية كفرع جديد من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية اسم (الأنثروبولوجيا النفسية). ذلك أن الشخصية هي مجموعة من الدلالات التي تكشف عن طبيعة الافراد في أي مجتمع من المجتمعات .

و لما كانت دراسة الثقافة و الشخصية تلتقي فيها الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع و علم النفس، فإن ثمة صعوبة كبيرة تعترض طريقها تتمثل فيما يفرضه هذا الاتجاه الثقافي النفسي الجديد من ثنائية منهجية تطرح على الباحث تساؤلا لا مناص من تحديد الإجابة عليه وهو: هل تبدأ الدراسة من الثقافة ثم تنطلق الى

معرفة السمات الأساسية للشخصية الوطنية المتأثرة بتلك الثقافة .. أم على العكس من ذلك أي تبدأ الدراسة بالشخصية أولا ثم تنتقل الى معرفة السمات الثقافية التي تُكوِّن الشخصية المشتركة و تطبعها بطابعها الخاص ؟ وقد آثرنا خيار هذه النقطة الأخيرة لنبدأ بدراسة الشخصية في فصلنا الاول هذا لننتهي بالسمات الثقافية في فصلنا الرابع اللاحق.

الفصل الـثـانـي:

الدلالات العامة للشخصية الجزائرية من خلال كتابات فرانز فانون

اذا تتبعنا أعمال «فانون» فسنجد انه يمضي في سياق موحد بلا تقطع ولكن مع عدد من التوقفات التي تناسب طبيعة استكشاف واستخلاص الماهيات والدلالات المعبرة عن حقيقة الشخصية الجزائرية.

ولقد كان «فانون» يدرك بوضوح أن عمله هنا فيما يتعلق بوصف التجربة الجزائرية لا يؤدي إلا لشيء واحد هو ابراز الشخصية الجزائرية، ويدرك هو نفسه هذه الحقيقة إدراكا لا شك فيه، لأنه كان يعتقد كما يقول هو نفسه في كتاب "سوسبولوجية ثورة" ان "الموقف الاستعماري يجعل الاشياء تأخذ طابعا خاصا، وعلى أولئك الذين يحاولون ان يستخلصوا الشخصية الجزائرية الأساسية أو يعمدون إلى معرفة نفسية المواطن الاصلي... على أولئك جميعا أن يفهموا فهما واضحا بأن ذلك غرور لا يمكن تحقيقه في صورة علمية واقعية أثناء فترة الصراع من أجل التحرير" [54]

"الثورة التي يخوضها الشعب حاليا - يقول "فانون" - تقلب ميدان الحياة الخاصة للجزائريين المستعمرين قلبا، وتؤدي إلى تغيرات جذرية. فثمة عدد من سلوكات الرفض للجزائريين هي مرتبطة بهيكل الوضعية الاستعمارية نفسها وليس بـ"شخصية أساسية غير قابلة للتغيير". علامات هذا التغيير في السلوك حيال النظام الاستعماري هو أنه لم يعد الخاضع للاستعمار يتصرف أي تصرف حقيقي

[54] سوسيولوجية ثورة - المرجع السابق ص 67

دقيق مع المستعمِر بل كله تصرف غامض مظلم لا يتمكن المستعمر من التحكم فيه" [55]

إنه واقع يجعل من المستعمَر يتبنى تصرفات غير حقيقية تجاه الهيئة القضائية الاستعمارية كان قد سبق لـ "فانون" أن ذكّر بها منذ 1955 في مقاله:"تصرفات الاعتراف بشمال افريقيا" [56]

خلال معركة التحرير تُعطى دفعة هامة للقدرات الخلاقة عند الجزائريين فتتجدد قيم الماضي وينبعث أطهر وأخلد ما فيها، مجددة الشخصية الجزائرية لتزويدها بديناميكية جديدة.

ذلك ان الشخصية الجزائرية لم تكن ترغب في أن تعبر عن شخصيتها من خلال السلوك الظاهر وقت الحرب وإنما كانت تسعى الشخصية الجزائرية هنا إلى تحقيق أي نوع من السلوك قد يتطلبه الموقف، وهذا بطبيعة الحال يختلف عن الشخصية الأساسية للجزائري كما تجلت بعد ذلك في فترة السلام عقب الاستقلال.

الشخصية الجزائرية كما تجلت في أعمال «فانون»ليست شخصية عادية محكومة بالأوضاع الطبيعية لحياة الكائن البشري. وبالتالي لا يمكن أن يكون

[55] Alice Cherki : op. cit - P 238

[56] «فانون»"الاعلام النفساني - مجلة "الدفاتر الحرة" - مجلد 51 - رقم 10 - ديسمبر 1955

السلوك الذي تؤديه هذه الشخصية مرتبطا ارتباطا بحقيقة الشخصية التي تؤدي ذلك السلوك، لأنها قد تقبل اداء سلوك استثنائي بقصد تحقيق الهدف العام الذي ارتضته الثورة لنفسها.

وقد يستلزم هذا الهدف مئات وآلاف أنواع من السلوك قد لا تصدر مباشرة عن الشخصية تعبيرا عن حقيقتها ووضعيتها ولكنها تقبلها بدفاع عملي للوصول إلى الغرض المطلوب.

ومما يؤكده «فانون»"أن الجزائرين العاديين - حتى الأميين منهم - يملكون معارف نفسية واجتماعية تعلموها في سياق حياتهم اليومية استعانوا بها في التعامل مع ظروف الاستعمار".

ولئن كان هذا السلوك وليد كبت بالمعنى البسيكوباتولوجي كآلية دفاعية نفسية لاشعورية ناجمة عن الحيلولة دون وصول الرغبة المكبوثة الساعية للحصول على الحرية والاستقلال، إلاّ ان الواضح أن المؤثرات الخارجية ووجود الانسجام بين الذات العضوية والذات النفسية جعل الترابط بينهما ميكانيكيا بواسطة التفاعل وردود الأفعال .

وهنا نصل إلى ما نود أن نبرزه في هذه الدراسة وهو أنه فعلا قد استخدمت هذه الشخصية قدراتها الكاملة إبان حرب التحرير ونشأ فوق الأرض الجزائرية مجتمع جديد... فكما يقول «فانون»في مقدمة كتابه : "سوسيولوجية ثورة":

" إن هـذا الدم الـبريء الذي يتفجـر مـن الشرـايين المتنكـرة فـوق الـتراب الـوطني قـد رفع إلى الوجـود إنسـانية جديـدة" [57] أو كـما يقـول في الصـفحة 12 مـن نفـس الكتـاب : "...قـد تبنـت الأمـة الجزائريـة اليـوم شخصـية اسـتثنائية أخـرى لم تعـد مرسـومة في آفـاق خياليـة ولم تعـد وليـدة خيـالات غامضـة قـد اعتجنتهـا الخرافـات والأوهـام. ذلك أنها قلب الجزائري ذاته، وهو رجل ذو طبيعة جديدة وأبعاد مستحدثة لوجوده..."

لقـد اهـتم الاسـتعمار الفرنسـي بموضـوع الشخصـية الجزائريـة ، حيـث كان اهتمامـه هـذا يهـدف أساسـا إلى محـاولة الفهـم والوقـوف عـلى مَـواطِن الضـعف والقـوة لدى الإنسـان الجزائـري. فهـو لم يكـن عسـكريا بقـدر مـا كان ثقافيـا، وذلك بتوجيـه اهتمامـات مراكـز البحـث الفرنسـية باتجـاه مسـتعمرات كالجزائـر لتوظـف البحـوث فيهـا وفقا لأهداف المشروع الاستعماري الفرنسي.

ومـا لا شـك فيـه أن الأخصـائيين في التربيـة الصـحية الأساسـية، علـيهم أن يفكـروا بإمعـان في هـذه المواقـف الجديـدة الـتي تتفجـر أو الـتي تلـوح خـلال صراع التحريـر الـوطني لشـعب متخلـف. ومـن ذلك الوقـت الذي يتطلـع فيـه جسـم الأمـة أن يخلـق لنفسـه طريقـة ديناميكيـة متماسـك مـن أجـل الحيـاة، يصـبح كل فعـل مـن الأفعـال ممكنـا، وبالتـالي فـلا يمكـن في هـذه اللحظـات المليئـة بالصـراع أن نستكشـف نمطـا موحـدا للشخصـية الجزائريـة وإنمـا سـنجد أن هـذه الشخصـية الجزائريـة كـما تتمثـل في

[57] سوسيولوجية ثورة - المرجع السابق - ص 8

عهد الثورة وحرب التحرير قد سمحت لنفسها بالقيام بأي تصرف محتمل الوقوع من أجل بلوغ الهدف النهائي" .

وقد حاول «فانون» من جانبه أن يسقط أضواء على جانب من أوجه الحياة الجزائرية أثناء حرب التحرير من أجل ابراز وضعية خاصة من أوضاع هذه الشخصية وتقبلها ككل من حيث هي جزء من رسالة المواطن الجزائري في الحياة، تخليصا لأرضه من أيدي المستعمر وتحريرا لجنسه العربي من الاغتصاب ومن عبودية الاستعمار.

ان الطابع المميز للمجتمع الجزائري هو انه مجتمع مترابط، متضامن، متماسك، قد صيغت شخصيته بعناصر القوة وسمات التميز القائمة بين القيم الأخلاقية والسلوكية وبين القيم السياسية والعملية وبين الجوانب المادية والروحية

لقد تعامل المجتمع الجزائري مع نمطين للممارسات الثقافية والاجتماعية، عادات قديمة معبرة عن هويته وعادات جديدة مغايرة، ناجمة عن صراعات تولدت نتيجة ظهور اتجاهين :

أ- اتجاه يدعى : الأصالة والتراث والهوية ، والذي لا يتحقق إلا بالمحافظة على القديم والإبقاء على العادات والتقاليد القديمة

ب- واتجاه آخر يدعى العصرنة والحداثة والتجديد ، ينظر إلى هذه العادات والتقاليد على انها من القِدم مرَّ عليها الزمن، عادات وتقاليد تلتقي مع ذلك في جملتها لتكوّن وحدة المجتمع وهويته

الواقع أن فشل الاستعمار على الرغم من محاولاته التي كانت تكتسي في كثير من الاحيان طابع التكالُب والنفسية المريضية في مقاومة الشعب الجزائري الذي يعتَبر المحافظة على شخصيته القومية مسألة حياة أو موت -كان يتمثل فشله هذا في جهله بنفسية الشعب الجزائري واعتماده النظرة العنصرية المتعالية.

إن تطور المجتمع الجزائري وتخلصه من التقاليد البالية ومظاهر الحياة الجامدة قد تم في سنوات قليلة من الكفاح الثوري لسبب أصيل وهو أن هذا الكفاح وما يتطلبه من صفات جديدة قد هز المجتمع كله هزا عنيفا جعله بعيد النظر في قيمه وأساليب تفكيره وسلوكه ليكيفها مع مقتضيات الثورة. وفي مثل هذا الجو الثوري تصبح بعض مشاكل التطور مشاكل زائلة لا تتوقف الثورة عندها كثيرا بل تتركها تنحل من تلقاء نفسها لتواكب السير الثوري الصاعد.

"فانون" يحلل التحول الجذري للأسرة الجزائرية وسط الكفاح التحريري. ومن المعروف أن الشباب بتجرده عن المصالح الخاصة واستعداده الطبيعي تقبل الأفكار الجديدة، وهو الذي يستجيب قبل غيره لنداء الثورة. ويعطي الدكتور "فانون" صورا حية عن التحول الجذري في العائلة بفعل استجابة الشباب أولا

للثورة إذ هم الذين يشكلون الخلايا السرية لجبهة التحرير أو يصعدون إلى الجبال لحمل لواء المقاومة المسلحة .

وينمو تيار الثورة ويمتد فيشمل الشعب بأجمعه فيبدأ الآباء في إتباع أبنائهم في الطريق الثوري، ولكنهم يقعون في تناقض بين خوفهم على حياة أبنائهم وتسليمهم بضرورة مشاركتهم في الكفاح. ويكون الأبناء بجرأتهم وتجردهم هم دائما في الطليعة وينتصرون على تردد آبائهم. وبالطبع فإن انسجام الجيل الجديد مع كل مقتضيات الثورة يجعله هو الذي يلعب فيها الدور الرئيسي ويحتل مراكز القيادة والتوجيه من أبسط خلية أو قسم محلي إلى أعلى مستوى. وهكذا يصبح الابن مسؤولا عن أبيه وموجها له في طريق الكفاح الثوري، وبذلك ينهار أحد أسس المجتمع القديم الذي يجعل الأب سيدا في أسرته ليترك المجال لهذا التنظيم الثوري الجديد.

ونجد نفس التحول يطرأ على المرأة الجزائرية بمشاركتها الإيجابية في الكفاح كفدائية وممرضة ومناضلة في الخلايا السرية (الفصل الثاني من كتاب "سوسيولوجية ثورة"). ويتناول هذا التحول علاقاتها العائلية كأخت أو زوجة أو إبنة أو أم فتتأكد شخصيتها من خلال الكفاح ويتم هذا التطور الحاسم بشكل طبيعي تفرضه ظروف الكفاح التحريري دون حاجة إلى إثارة مشاكل سطحية وقضايا مصطنعة تجاوزها الكفاح الثوري، ومن هنا تأتي إضافة الثورة الجزائرية

وعمقها. فالتجارب النضالية الثورية التي تعيشها هي نفسها التي يتم فيها التحول الجذري لكل مظاهر الحياة وينمو من خلالها المجتمع الثوري الجديد.

نلاحظ من خلال أهم النقاط التي تطرق لها الدكتور "فانون" في كتاباته أنه ركز على مسألة تطور المجتمع الجزائري في العديد من الجوانب بسبب الثورة الجزائرية ومدى أهميتها بالنسبة للجزائريين، كما أنه أدرك حقيقة الثورة لشملها لجميع الفئات الإجتماعية، وخاصة كفاح ومشاركة المرأة الجزائرية التي برهنت على ذلك بعملها الفعال في تحرير الجزائر. يقول " فانون": « إن الثورة في عمقها، وحقيقتها هي التي تحول الإنسان وتجدد المجتمع، فهي متطورة جدا. وهي الأكسجين الذي يبدع وينظم الأفراد وتلك هي... الثورة الجزائرية».

كما تحدث" فانون" في جريدة "المجاهد" حول مسألة العنف في الجزائر، قائلا : " لقد رأينا كيف كان هذا العنف طوال فترة الإستعمار يدور في الفراغ، وينصب في تيارات الاستحواذ أو في الحروب بين الأشقاء . والمشكلة الآن في فهم هذا العنف وهو يغير اتجاهه . فالاستعمار وتصفية الاستعمار هما بكل بساطة مسألة تناسب في القوى . إن الشعب الجزائري بعد كل قرار من هذه القرارات يزيد من توتر عضلاته ويضاعف كفاحه. والشعب الجزائري بعد كل مجزرة من المجازر الكبرى التي يتعرض لها يزداد وعيا وتنظيما ويعزز مقاومته".

إن العنف يوحد الشعب المستعمَر، بينما يعتبر الاستعمار في جوهره وبحكم طبيعته عامل تجزئة وتفريق وأكبر عنصر لخلق الخلافات الإقليمية والطائفية. إن الاستعمار لا يكتفي بملاحظة وجود التفرقة القبلية بل يدعمها ويوسعها . وهو يسعى إلى تغذية الزعامات القبلية وبعث الحياة في الخلافات الدينية والمذهبية .

يقول "فرانز فانون": "إن محو الاستعمار وهو يستهدف تغيير نظام العالم إنما هو، كما ترون، برنامج لقلب النظم قلبًا مطلقًا. ولكنه لا يمكن أن يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزالًا طبيعيًا أو تفاهمًا وديًا، أي أنه لا يمكن أن يعقل، ولا يمكن أن قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري ويغذيه، إن التجابه الأول الذي تم بين هاتين القوتين إنما تم تحت شعار العنف."[58]

والعنف عندما يدخل الميدان التطبيقي يتخذ طابعا قوميا شاملا وينطوي في جوهره على محو كل تفرقة إقليمية أو قبلية. إن العنف يجعل من الإنسان المستعمَر شخصا جريئا معتزا بنفسه واثقا بشخصه . ويرد إليه إعتباره أمام نفسه .. وحتى إذا كان الكفاح المسلح ذا طابع رمزي فقط وتوقف بعد مدة وجيزة نتيجة لحدوث تصفية الاستعمار بسرعة، فإن الشعب يجد الوقت الكافي ليقنع نفسه أن

[58] المجاهد : "من خطاب فرانز فانون" – ج 4 – ع 34 – 24 ديسمبر 1958

التحرر من الاستعمار قد جاء نتيجة لكفاح الجميع ونضال كل فرد وأن الزعيم ليس له فضل خاص.

يقول «فانون»:"سلوك المستعمَر ليس متميزا بمخالفة القواعد الاجتماعية ولكنه وسيلة للعيش في ظل قسوة الظروف المعيشية... ان التمسك بالمحيط التقليدي الراكد يؤدي إلى رفض مطلق للحضارة الاستعمارية وحتى للتطور التقني"[59]

وعند تعرضه لرفض "الحضارة الاستعمارية" و "التطور التقني" نتابع وصف «فانون»في حالة معاملاته الطيبة للأمراض العقلية بالبليدة حيث يشير إلى أنه يتشابه في الموقف الاستعماري في نظر المواطن كل سلوك، كعزوف الجزائريين عن الذهاب لاستشارة الطبيب أو الموظف الاداري أو قائد الحرس أو رئيس البلدية لعدم المبالاة حيال المجتمع الاستعماري وعدم الاطمئنان والثقة في الجهاز الاستعماري(*)

[59] "سوسيولوجية ثورة" – المرجع السابق - ص 115

(*) لأن الحكومة الفرنسية أعلنت عن حظر بيع الادوية للجزائريين ، ولأن الشخصية الجزائرية عانت عناءا مرا من وفاة المجاهدين المحتمين بديارهم واللاجئين لمساكنهم سرا أبت الخضوع للمستعمِر وأبت على نفسها إلا أن تتحمل الظروف القاسية لتستخدم أسلوبا في التحايل من اجل محاربة الموقف والاعتماد على طاقات جديدة في التفكير والمواجهة والتكيف ،كالذهاب إلى حد الاعتماد على الاجانب لتوسطهم في الحصول على الدواء مقابل بعض المنافع المغرية

يقدم «فانون» في كتاباته أمثلة واسعة عن امتناع الساكن الاصلي من الاستفادة مما يعرضه عليه المعمر الاجنبي على غرار مستثمرين زراعيين يرفضون الحماية التي يقترحوها عليهم الجيش الفرنسي ، بل حتى مساعدة بعض مناضلي حزب جبهة التحرير في التخفّي والإطعام.

إنه وعي وطني عجل الاستعمار بوجوده. مثل هذا الموقف الخاص بعدم الاطمئنان في الجهاز الاستعماري حيال المسألة الطبية مثله في شان عدم الاطمئنان له في جهاز الراديو الذي يخصص له «فانون»فصلا كاملا في كتابه "سوسيولوجية ثورة" [60]

يعمد «فانون»في هذا الفصل المعنون "هنا صوت الجزائر" فيدرس موقف الشعب الجزائري من التكنولوجيا الحديثة التي حملها الاستعمار والتغيير الذي طرأ على هذا الموقف بفعل اندلاع الثورة.

وعلينا ان نتلتفت هنا إلى عنصرين هامين :

أ- العنصر الأول: أن هذه الأجهزة باتت تفرض نفسها بصعوبة في المجتمع الجزائري كونها تقنية حاملة لصوت المجتمع الكولونيالي، معبرة قبل كل شيء عن هذا المجتمع وقيمه، معرضة بكيان السكان الأصليين وبأنماط حياتهم المعيشية التقليدية، حيث أن برامجه التي هي صدى لمحطات الاذاعة الفرنسية في باريس تصب

[60] الفصل الثاني من الكتاب : ترجمة شخصية ، ملحقة بهذه الدراسة

كلها في قوالب غربية لا تتكيف مع التدريج الوراثي للسلطة الابوية آنذاك، بصورتها الصارمة ذات الموانع والمحرمات الاخلاقية المتعددة والمتفشية في الاسرة الجزائرية*

ب- العنصر الثاني: أن اقتناء اجهزة الراديو هذه لدى المجتمع الاوروبي قد تم في الجزائر بوتيرة من العجلة والاندفاع لا مثيل لهما، حيث أصبح هذا الجهاز يمثل الأداة الوحيدة التي تربط المعمِّر "بالوطن الأم" و "بعالم المتمدنين" ، مقوية يقينه في الاستعمار التاريخي**

إعتبارا لهذين العنصرين فإن معارضة المجتمع الأصلي من حيث المبدإ للسيطرة الاجنبية، أدت في حد ذاتها إلى تغييرات جوهرية وتحولات جديدة في وعي المواطن الاصلي الذي - بمجرد اكتشافه ان ثقافة المعمِّر من تقنيات وطب وراديو تعدّ وسائل يجب تسخيرها لصالحه دعما لكفاحه وأخذ مصيره بيده - بات

* يقول «فانون»: "يرد بعض الجزائريين ممن شملتهم دراسة سوسيولوجية حول سبب امتناعهم اقتناء جهاز الراديو قولهم : "تتخذ تقاليد التوقير والاحترام عندنا أهمية وتبرجا بحيث يصبح مستحيلا عمليا الاصغاء في جلسة عائلية إلى البرامج الاداعية الفرنسية ، وذلك لأن الاشارات إلى مواضيع العشق والغرام او حتى مواقف الهزء التي يراد بها الإضحاك في برامج الاداعة، تثير في وسط الاسرة عددا من التوترات غير المحتملة" («فانون»- "هنا صوت الجزائر" – الفصل الثاني من "سوسيولوجية ثورة" – أنظر الملحق المترجم طيه)

** يقول «فانون»: "إن الراديو يذكّر المعمّر وهو في المزارع بواقع السلطة ويمده بالأمن وراحة البال ... هو دعوة يومية للمعمّر بعدم التمازج مع السكان الاصليين وعدم نسيان ثقافته الأصيلة مما يجعل الجماعات المنتشرة من المعمرين وراء استصلاح الاراضي تردد :"لولا الخمر والراديو لاستعربنا " («فانون»:"هنا صوت الجزائر" - المرجع السابق)

يتخذ اساليب جديدة حيالها ويستشعر فيما يتعلق بجهاز الراديو، خصوصا بعد دخول محطات الارسال القومية في سوريا ولبنان ومصر، بالحاجة الحيوية إلى أن يكون على المام بتطور الأحداث خطوة بخطوة فيَتَقيَ ما يعتبره مناورات دعائية كاذبة من جانب الغازي المحتل

ذلك أن العالم الاستعماري المغلق الذي لم يترك فرصة للجزائري في ان يجد نفسه في هذا الراديو الممجِّد للمستعمِر يدفع بعض الجزائريين للقول بأنه "فرنسيون يتحدثون لفرنسيين"، وهو امر جعل امتلاك الجهاز في الجزائر سنة 1955 يمثّل الوسيلة الوحيدة للحصول على أنباء الثورة من مصدر غير فرنسي

وتتخذ هذه الضرورة صفة الحتمية والامر الملح عنما يعلم الساكن الأصلي أن اخبار الجبال متدفقة في امواج القاهرة وسوريا والبلاد العربية جميعها تقريبا*

وهكذا "فجأة - يقول «فانون»- تبدو الاسرة الجزائرية لا مبالية إزّاء احشمة القديمة، فتتبلور شخصيتها على التوّ لتكتشف نفسها وقد اكتسبت مناعة ضد كل الوان التندّر الماسة الوقحة". كما لا يعد الاستماع على صوت الجزائر كحرص على الاستماع للطرف الآخر بل كمطلب داخلي للتلاؤم مع الامة المكافحة

* في الفصل الثاني من كتابه سوسيولوجية ثورة بعنوان "هنا صوت الجزائر" يتحدث «فانون»عن أهمية الراديو في الريف كوسيلة شعبية لاستقاء الاخبار الصحيحة عن النشاط الثوري في الداخل و الخارج و كيف انتصر الشعب الجزائري بوسائل محدودة من فرنسا في معركة الدعاية، كما يذكر الحماس الرائع الذي استقبل به الريف الجزائري اذاعة وطنية حرة تقدم صوت الثورة في قلب الجزائر ، ثم يدرس الاثار السوسيولوجية النفسية التي تحدث على الجماهير الريفية في تتبعها و نقلها لأخبار الثورة.

يقـول "فـانون": "اذاعـة الجزائـر هي صـوت سـلطة الاحـتلال... فرنسـيون يتحدثون إلى فرنسيين" [61]

هكـذا يتغـير موقـف المجتمـع الجزائـري مـن الجهـاز خصوصـا نهايـة 1956 حـين وزعـت منشـورات تعلـن بـدء إرسـال "صـوت الجزائـر الحـرة". وحـددت المنشـورات مواعيـد الإرسـال وموجـات البـث. يقـول "فـانون" إن كافـة أجهـزة الراديـو نفـدت مـن الأسـواق في أقـل مـن عشـرين يومـا، وراجـت تجـارة الأجهـزة المسـتعملة. وزاد الطلـب على أجهـزة "الترانزيسـتور" لعـدم تـوفر الكهـرباء في المنـاطق النائيـة. وبـين لـيلة وضحاهـا "فَقَـدَ المـذياع هويتـه كشيء معـادٍ، ولم يعـد جـزءا مـن ترسـانة الاحـتلال الـتي يوظِّفُهـا في القهر الثقافي" [62] .

يقـوم المعمِـر بالتشـويش عـلى محطـة الثـورة ممـا يضـطر المحطـة إلى نقـل موجـة الإرسـال عـدة مـرات في فـترة البـث الواحـدة. ويصـف "فـانون" معركـة موجـات البـث هـذه عـلى النحـو التـالي: "غالبـا مـا كان مسـتمع واحـد يلصـق أذنـه بالجهـاز ليـتمكن مـن الاسـتماع للصـوت. ويسـتقبل بقيـة الجزائـريين الحـاضرين معـه في الحجـرة صـدى ذلك الصـوت عـبر الناقـل، والذي عـادة مـا يكـون محـاصرا فعـلا في نهايـة الإرسـال، إذ يسـألونه أسـئلة محـدّدة فهـم يريـدون أن يعرفـوا مـا قالتـه الإذاعـة بشـأن معركـة بعينهـا ذكرتها الصحافة الفرنسية في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة

[61] فانون : "سوسيولوجية ثورة" - الفصل الثاني "هنا صوت الجزائر" - المرجع السابق - ص 73
[62] فانون : "سوسيولوجية ثورة" - الفصل الثاني "هنا صوت الجزائر" - المرجع السابق - ص 88

فالإقبال الجنوني على إخلاء كل مخزونات اجهزة الراديو يدفع الجيش الفرنسي إلى منع بيعها بل ومصادرتها فيدفع هذا الحظر إلى ابتكار مقومات جديدة للشخصية الجزائرية وما تتضمنه من عبقرية في سبيل التكيف مع الوضع الجديد بأسلوب ذكي فتتفجر الطاقات الابداعية و "يتم فيها الاصلاح المرمّق لبعض الأجهزة العاطلة او حتى تركيب وتشغيل بعضها لتصل إلى المدن والبوادي"[63]

إنه جانب من جوانب محاولة الجزائري الاسترجاع لصالحه لكل خطوة يخطوها المستعمِر في اتجاه تطوير تقنياته في مجال معاملاته حيال جهاز الراديو أو حيال الطب الذي كان «فانون»من رواده أثناء حرب التحرير

لعل أول ما "روّع" «فانون» هو المشهد الفاقد لأدنى مبادئ الانسانية الذي واجهه حال وصوله لمستشفى "بليدة جوانفيل" لتقلد مهامه.

أول احساس له أن ثمة تمييزا عنصريا فيما بين الاوروبيين وأهالي السكان الاصليين يعم وسط المستشفى، ومعنى ذلك أنه كانت ثمة أجنحة رجال أوروبيين ونساء أوروبيات، ورجال "مسلمين" حسب المصطلح المستخدم حينها ، ونساء "مسلمات".

---

63 Charles Robert Agéron : « Un aspect de la guerre d'Algérie : La propagande radiophonique de FLN » In « La guerre d'Algérie et les algériens 1954-1962 - Armand Colin - Paris - 1997 - Page 259

غير أن ما "حرّك شعوره" - حسب مصطلحه الشخصي – وما أرعبه هو رؤية "مصالح مكتظة لمرضى مهملين ، مرتدين لأثواب رثة مُسَلَّمَةٍ لهم من الادارة، بأرجل حافية، يجعل مظهرهم شبيها بالمعتقلين. أما البعض منهم الأكثر هيجانا، فهم مقيدون بأَسِرَّتِهِم والبعض الآخر مقيد بشجر روضة المستشفى. أما اولئك الذين لم يسعدهم الحظ فاصبحوا يعانون من انفصام الشخصية او مصابين بمرض السل، يتم عزلهم ، عارين تقريبا ، ومقيدين في حلقات حديدية، داخل غرف حبس فوق حزمات من التبن"[64]

فوجئ "فانون" بهذه المعاملات، وأدرك الصعوبات التي تواجهه فعبر عن ذلك قائلا :"على الرغم من الظروف الموضوعية لممارسة الطب النفسي، فقد بدا لي أنه لا بد من بذل جهود ضخمة لتغيير اسلوب طبي تتوافق قواعده مع المشاريع الانسانية"[65]

[64] رسالة إلى أحد أصدقائه الفرنسيين بعث بها «فانون»نُشرت عام 1964، بعد وفاته ، في مقال بعنوان "رسالة إلى فرنسي" - "لأجل الثورة افريقية " باريس - ماسبيرو - مجموعة "الدفاتر الحرة" رقم53-54 -1964 - ص 55

[65] أليس شركي : المرجع السابق – ص 36

وكان "فـانون" ذكيـا في تعـامله مـع المـرضى الجزائـريين، "فـاهتم بالحفـلات الدينيـة والفـن، وتشـكلت لجـان تهـتم بالموسـيقى والسـينما والخياطـة وممارسـة الرياضـة وطـوّر مكتبة المستشفى..." [66]

كـما اعتمـد "فـانون" - حـال وصـوله - منهـاج العـلاج الاجتماعـي فمـا لبـث أن تغير جو المستشفى بضعة أشهر بعد ذلك

أَوْلَى «فـانون» في عمـله بمستشـفى البليـدة الكثـير مـن الاهـتمام لتبـني إدخـال البعـد الاجتماعي والثقـافي في معالجـة المـرضى النفسـانيين، وربـط بـين حـالة "الاغـتراب الشخصـي" الذي يعيشـه الجزائريـون، وبـين الاضـطهاد الذي يمارسـه الواقـع الاسـتعماري. ولم يـتردد في أن يعتـبر المسـتعمِرين الفرنسـيين وراء شـعور الجزائـريين أبنـاء الـبلاد أنهـم "مهمشـون"، بـل "يعيشـون حـالة مـن الاسـتبعاد". وهـو مـا يجسـد معاناتهم حالة "الاغتراب الحقيقي" *

[66] Mural Numa : « Psychologie et politique à Blida » in « Pensée d'aujord'hui avec F.Fanon » - acte du Colloque - Fanon CSPRP - Université Paris 7 - Fev2008 - Edition en ligne disponible sur http://www.csprp.univ.paris-diderot.ffactes,fanonhtml »

* رؤية «فانون»لواقع العلاقة بين ظاهرة الاستعمار وبين حالة الاغتراب التي يعاني منها الخاضعون للسلطة الاستعمارية توازت مع تأييده على الصعيد السياسي العام لقضية الثورة الجزائرية

عمل "فانون" ، حال وصوله إلى المستشفى بمساعدة "جاك ازولاي" - الذي كان مدعما له في جهوده الاصلاحية والعلاجية، خاصة في مجال اقدامه على تطبيق العلاج الاجتماعي- على اعادة تنظيم التعامل مع المرضى، وادخل أساليب جديدة في العلاج الاجتماعي (Sociothérapie) والعلاج المهني (Ergothérapie)، الذي يعتمد على تحرير المرضى من قيودهم

ولم يقتصر علاج "فانون" في الجزائر على الضحية المعرّضة للتعذيب، بل أيضا على الجلاد الذي هو الطرف الثاني في العملية. فقد أعطى نماذج للطرفين والحساسية القائمة بينهما داخل المصحة العقلية، وكذا بعض الاعراض البادية عليهم كالرهاب المصحوب بالهذيان الحاد أو المزمن والاضطرابات العصبية سواء كانت في شكل أرق مزمن، أو توقر نفسي شديد كالهلع والذهول، خصوصا منها "الأعراض الجسدية التي تمثلت في ارتفاع ضغط الدم وكذا حالات القرحة المعدية" [67]

كما تعرض للتجاوزات التي قام بها الاستعمار داخل الجزائر، حتى من قبل الأطباء الذين ساهموا في تعذيب المساجين والمشبوهين.

يشير «فانون» إلى أن السجين عندما يُستنطق، يقاوم ويرفض الإدلاء بمعلومات، وأن ثمة عسكريين ونفسانيين يعملون مع الجيش الفرنسي ومعهم

[67] محمد تومي: طبيب في معاقل الثورة، حرب التحرير الوطني 1954-1962، تر: حضرية يوسفي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر،2010، ص153

اختصاصيون في علم الاجتماع النفسي، يحقنون السجين بعقار يحطم الشخصية، وهو البانتوطال فيصبح المريض منوما مغناطيسيا، حيث يُعزل المعتقلون في بادئ الأمر لمدة طويلة لإضعافهم نفسيا، ثم "تتم برمجة عقولهم لتقبل أفكار جديدة، وتلك طريقة غالبا ما تؤدي إلى وقوع المعتقلين في أزمات نفسية حادة.

وهنا نقف لحظة لنشير إلى أن «فانون»كان يرى أنّ "الاستعمار في حد ذاته هو السبب في عدد من الأمراض العقلية التي نشأت في ظل الاستعمار كنوع من التكيف مع وضع شاذ غريب"[68].

فقد اكتشف أن القمع الاستعماري كان أحد أهمّ أسباب إصابة بعض الجزائريين بالجنون، وكان وجود «فانون» إلى جانب الأطباء المرضين في مستشفى البليدة دافعا لتطوير أساليب العلاج النفسي للمرضى وتحقيق نتائج أكثر فعالية بعيدا عن استخدام الأساليب التقليدية في العلاج*

[68] Fanon.F « A propos d'un plaidoyer » in « pour la révolution africaine » - Paris – La Découverte – 2001 – Page 32

*عمل «فانون»داخل المستشفى مع أطباء داخليين حول بحوث أُقترحت عليهم، كانت كلها تتمحور حول دراسة العلاج النفسي للجزائري في وضعيته الاستعمارية، جُسّدت بنشر دراسة موضوعها "تصرف المسلمين حيال الجنون" أنجزت من فرانسوا سانشيز ، احد الأطباء الداخليين الذي تم اعتقاله في جانفي1957

يقدم «فانون» أمثلة كثيرة لحالات معاملاته الطبية في مستشفى البليدة وعن التصادم فيما بين الشخصية الجزائرية وبين السلطات لأن أهالي الجزائر عانوا عناء مرا من وفاة المجاهدين المحتمين بديارهم وأبوا على انفسهم إلا أن يتحملوا الظروف القاسية

أما الطبيب «فرانز فانون» فلم يتحمل من جهته أكثر مما تحمله تجاه هذا الوضع بالمستشفى فكانت رسالة استقالته من منصبه شديدة اللهجة، وجهها إلى الحاكم الفرنسي روبير لاكوست، الوزير المقيم بالجزائر بين 1956-1958، كَتَب فيها " أن المرضى في ظل نظام كولونيالي تعسفي كهذا لا يمكنهم ان يشفوا من مرضهم، بل يزداد مرضهم تفاقما" واصفا في رسالته "جرائم الاستعمار الغربي الذي يضطهد الانسان في بلده ويقتل إنسانيته".

ردا على رسالته بالاستقالة توصل «فانون» برسالة تلزمه مغادرة الجزائر.

ومن المهم أن نعرف أن هذا الالزام بالطرد قد أنقد حياته إذا ما علمنا بمصير المفكرين الكثيرين الذين انضموا للثورة فأصبحوا مهددين كونهم "الخارجين عن القانون"

واذا كانت فرنسا لا ترضى بهذه الرؤية الضيقة في تناولها واستيعابها للحقيقة الجزائرية مصرة على استبدالها بنظرة متعددة الجوانب لأنها بكل بساطة تعتبرها نظرة مغلقة و مجزأة ، محاولة أن تجعل من تفسير هذا السلوك تفسيرا ميكانيكيا،

إلا أنها تضطر بغتة - بعد أن أفرغت جهدها الجهيد من أجل المحافظة الذاتية على الصورة المحتقرة التي كان الجزائري يرى نفسه فيها من قبل - تضطر لقبول هذه الشخصية الجديدة المفاجئة ولتحمل أعباء هذا الوعي الذي ما فتئ ينتشر في المدن والجبال.

وهكذا تتجلى الشخصية الجزائرية في أوضح صورة من حيث استخدام أساليب جديدة مبتكرة لمواجهة كل موقف واستخراج حيل استثنائية للتعبير عن طاقاتها في مواجهة الأخطار وبأساليب ذكية مبتكرة. فيها الحيلة والدهاء، ولكن فيها أيضا احتمال الألم والعناء من أجل إخفاء الحركات السرية اللازمة لسير حرب التحرير في طرقها الجديدة. وإذا اعتبرنا الذكاء هو المرونة والحركية للتكيف مع الأوضاع، فمعنى هذا أن الشخصية الجزائرية كانت تتمتع بصفات خاصة مثل الصبر والكتمان، والعناء واحتمال الألم ولكنها تتميز أيضا وعلى الخصوص بقدر من الكفء لمواجهة الموقف والتكيف معه بسلوك ذكي.

تلك هي الشخصية الجزائرية التي يعبر عنها «فانون»في مؤلفاته ... إنها لم تكن مجرد شخصية جزائرية بالمعنى الفكري أو الإيديولوجي، بل هي الشخصية الجزائرية بالمعنى النفسي وبالمعنى المرتبط بدلالات الطب النفسي، لأن «فانون»كان طبيبا للأمراض العقلية وكلامه عن الشخصية الجزائرية وإن كان مصبوغا في قالب أدبي فهو يعبر بغير أدنى شك عن دراسة نفسية من الدرجة الأولى لهذه الشخصية فضلا عن أن استخدامه للمنهج الظاهري كان يستهدف :

1- استخدام الأسلوب الوصفي

2- استخراج الدلالات المعبرة عن الملامح الأصلية

3- تحديد الملامح النفسية وتشخيص الحالات

فالجزائري أمام الظلم والاضطهاد الذي ما فتئ يتعرض له بكل ألوانه، وأمام التحقير بشخصيته من جانب الاستعمار في أشكال مختلفة منذ ما يزيد في قرن وربع قرن وجد نفسه مضطرا إلى أن يصرح في تعبير واضح وملموس وأن يعبر عن حقيقة تاريخية وهي أن الحل الوحيد يتمثل في تغيير الموقف فدفعته تياراته الداخلية بشكل تلقائي إلى أن "يكتسي لباس العنف، ويقتنع أخيرا أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يستخدمها اليوم بقصد إعطاء معنى لموته هي الحصول على بندقية والانضمام إلى جيش التحرير الوطني ... فالحياة تحت السيطرة قد فقدت معناها منذ أمد مديد"[1]

ومعلوم أن هذا القرار يعد قرارا حاسما أخرجته تلك التيارات العميقة التي حافظت عليها الشخصية الجزائرية مدة طويلة والتي لم ترد أن تظهرها بكامل حدتها قبل هذا الأوان لأنها كانت تعلم وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى أن كل دعوة لمقاومة مسلحة إنما هي دعوة خطيرة وعملية صعبة الوصول نظرا لما بلغته الآلة العسكرية الاستعمارية من قوة عظمى جعلتها مسيطرة على الوضع بأم المعنى.

آنذاك لم يبق للشعب الجزائري من وسيلة غير التمسك بشخصيته، أي بثقافته العربية الإسلامية وتقاليده وعاداته .... هذه التقاليد وهذه العادات التي كانت تظهر في صور

الثقافة التقليدية المتمثلة في حفظ القرآن والتردد على المعاهد الدينية والمدارس الحرة وحتى الزوايا الطرقية الكثيرة.

وهكذا تضطر فرنسا بغتة – بعد أن أفرغت جهدها الجهيد من أجل المحافظة الذاتية على الصورة المحتقرة التي كان الجزائري يرى نفسه فيها من قبل – تضطر بغتة لقبول هذه الشخصية الجديدة المفاجئة ولتحمل أعباء هذا الوعي الذي ما فتئ ينتشر في الجبال والمدن. فالجزائري عند تناوله البندقية قد فسر الخطأ الفادح الذي ارتكبته فرنسا عندما لخصت وصف الجزائر برمز الحايك الأبيض" ونداءات "يا ولد" التي كانت توجهها لأبناء الجزائر الصغار، حاملي القفف في الأسواق. وبالفعل فإن هذا الحايك الذي يعد عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية سيصبح مركز ثقل في معركة ضخمة تعبئ فيها قوات الاحتلال أكثر مصادر ثروتها قوة وتنوعا.

الفصل الثالث:
ميزة دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية وميكانيزم الاستعمار لتحطيمها في تحليلات فانون

"اكتشاف دور المرأة و اكتشاف دور الثقافة الوطنية في الحفاظ على كيان الشعب يمثلان مظاهر تأثير الثورة الجزائرية في «فرانز فانون» " [69]

نحاول هنا أن نسقط أضواءا على جانب واحد من أوجه الحياة الجزائرية أثناء حرب التحرير من أجل الكشف عن جزء واحد من خبايا الشخصية الجزائرية وهي تتفاعل فتتغير فتُغير البنية الاجتماعية كلها ، تحريراً لجنسها من الاغتصاب والعبودية.

وقد تناولنا في هذا الفصل جانبا مما تميزت به كتابات "فرانز فانون" بخصوص دور المرأة في الإعداد النفسي للثورة حيث كان لـ "فانون" تحليل هذا الدور بتوسع وتحليل استراتيجيات الاستعمار في تحطيمه .

تحت عنوان "الجزائر ترفع نقابها"[70] خصص «فانون»فصلا كاملا ، يعد من أبرز و أعمق ما تم تناوله من تحليل حول جدلية النقاب*، و الذي كان من

---

[69] جان بول سارتر في مقدمته لكتاب «فانون»"معذبو الأرض "

[70] الفصل الأول من كتابه "الجزائر ترفع نقابها" (L'Algérie se dévoile) (ترجمة شخصية لهذا الفصل كليا ملحقة بهذه الدراسة)

*استخدمنا في هذه الدراسة - بلا تمييز - مصطلحات "النقاب" و "الحجاب" وحتى "الحايك" لنكون أقرب إلى استجلاء مفهومه المعتمد في الجزائر، بحيث تعني هذه المصطلحات كلها مفهوما واحدا اوحد

العناصر الأساسية إبان الثورة * أسهمت ضروريات القتال في ظهور مواقف وتوجهات جديدة بشأنه، حيث اختفت -كما سنرى ذلك - تلك الميزة المحرمة التي يتخدها "الحايك" في الوضع الاستعماري اختفاءا شبه كلي في سياق النضال التحرري

يقول "«فانون»" أول ما يلاحظه السائح مباشرة هو "الحايك" الذي تلتحفه النساء .. فقد بقي السائح فترة طويلة قبل أن يعرف أن المسلم لا يتناول الخنزير في طعامه أو أنه يمتنع عن العلاقات الجنسية في النهار أثناء شهر رمضان، لكن حايك المرأة هذا يظهر بإلحاح و ثبات يكفيان لجعله طابعا مميزا للمجتمع العربي "[71]

نحن لا نذكر هنا بعض الأوساط الريفية كما لم نحسب حساب المرأة القبائلية التي لا تستعمل إطلاقا الحجاب خارج المدن الكبرى . حيث يؤخذ هذا التصرف للمرأة القبائلية بوصفه واحدا من موضوعات عديدة أخرى وعنصرا من عناصر الدعاية الاستعمارية التي تَوَجّهَت لدعم فكرة التعارض بين العرب والبربر، والتي - حسب منظورها - فإن سكان القبائل أقرب إلى الفرنسيين منهم إلى باقي الجزائرين في أصولهم وعاداتهم وقدراتهم وقابليتهم مما يجعلهم متقبلين

*بل وحتى اليوم بفرنسا لما له من ردود فعل رافقت القوانين الفرنسية الحالية حول منع الحجاب داخل المؤسسات المدرسية ثم الحجاب الشامل في الفضاء العمومي

[71] الجزائر ترفع نقابها - المرجع السابق - ص 79

بطبعهم للحضارة الفرنسية. يقول الكاتب الفرنسي "ألكسي دي توكفيل" :"إن بلاد القبائل وان كانت مغلقة أمامنا إلا ان نفوس وضمائر سكانها متقبلة لنا"

بهذا التوجه اعتبر دعاة المشروع الاستعماري الفرنسي أن أحسن وسيلة لاستيعاب القبائل وصهرهم في بوتقة المجتمع الفرنسي- هو نشر التعليم الفرنسي بينهم بعد أن فشلت محاولات التنصير. وقد بدأت العملية بأكرا عندما تم تأسيس المدارس الوزارية بمنطقة القبائل لتكون نموذجا للمدرسة اللاتينية الفرنسية المكلفة بنشر الثقافة والقيم الفرنسية.[72]

الحايك الذي بات يعد مظهرا من مظاهر التغيرات الاجتماعية التي أدخلتها الثورة على المجتمع و عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية - سوف نرى انه سيصبح فرس الحلبة في معركة ضخمة تستخدم فيها قوات الاحتلال كل مخططات هجوماتها و فلسفاتها ، بعد أن صار ينظر للحايك صورة من صور الوجود المحرك للشخصية.

ولم يكن موقف كهذا نتيجة لحدس طارئ. فالأخصائيون في المسائل التي تعنى بالسكان الأصليين والمسؤولين في الدوائر المختصة بالعرب، نسقوا اعمالهم بالإستناد على تحليلات علماء الاجتماع معتمدين الصيغة المشهورة :"لنعمل على أن تكون النساء معنا وسيتبعنا الشعب تلقائيا". كما تحدد الادارة الاستعمارية مذهبا

[72] محمد الصغير فرج : "تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954 - تر. موسى زمولي -الجزائر - مطبوعات تالة - ص188

سياسيا دقيقا . يشرح «فانون» كيف بدأت الحملة على الرجل الجزائري بإشعاره بالمهانة. يبدأ الحصار الفرنسي باللجوء للنساء الفقيرات حيث توزع الجمعيات النسائية الدقيق عليهن وتسخط بالمناسبة على الحريم وعلى الحايك قبل أن يأتي دور النصائح العملية وحث النساء على التمرد ورفض التبعية للرجل وعلى نزع الحجاب ... ويُحاصَرُ الرجل في العمل أيضا فيصبح موضع انتقاد زملائه الاوروبيين وموضع انتقاد رؤسائه في العمل، كما يصبح محل توجيه أسئلة من نوع: "هل زوجتك سافرة؟ لما لا تصطحب زوجتك إلى السينما وملاعب الكرة والمقهى؟"

ويتابع «فانون» أن الأوروبيين يصعّدون من محاصرتهم الرجل الجزائري، فإذا بالمدير يدعو الموظف الجزائري وزوجته بمناسبة احد الاعياد كعيد الميلاد أو رأس السنة، ولا تكون الدعوة جماعية وإنما يُطلَب كل جزائري إلى مكتب الادارة ويُدعى بالاسم للمجيء بصحبة "عائلته الصغيرة"، وباعتبار ان الدائرة هي اسرة كبيرة فَلَسَوف ينظر نظرة سيئة إلى الذين يحضرون من دون زوجاتهم. ويعاني الجزائري امام هذا الانذار الرسمي لحظات صعبة.. فالمجيء بصحبة زوجته معناه الاعتراف باندحاره و"تعريض زوجته للمهانة" والتخلي عن مقوم من مقومات شخصيته، يتّقي بفضله محاولة طمس شخصيته الأصلية، ولجعله أسلوبا في مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي، وحضوره وحده معناه امتناع عن ارضاء رب العمل وتعريضه لبطالة محتملة، وتلك توترات سيكوسوسيولوجية لا يسع تحملها.

إنها دراسة أية حالة تؤخذ بالصدفة ودراسة نمو الكمائن التي ينصبها الأوروبي بقصد حصر الجزائري لكي يتميز ويعلن:"زوجتي محجبة ولن تخرج" أو لكي يتخادل ولسان حاله فيقول:"بما أنكم تريدون رؤيتها، فهاهي ذي"

إنها ملحمة المجتمع المستعمَر، بخصائصه في الوجود في مواجهة الأخطبوط الاستعماري للحايك، حيث تصبح المرأة محورية في برنامج التدمير الثقافي الذي سنّه المستعمِر إذ هي التي ستحوِّل الرجل إلى جانب القيم الغربية، وهي المعوّل عليها لتفتيت الثقافة الجزائرية[73]

الواقع أن عددا كبيرا من الفتيات الجزائريات كُنّ سافرات وكان عددهنّ في تزايد، لكن طريقة نزع الحايك هذه جعلت عددا منهن يرجعن للحايك حتى لا يُتصور ان سفورهنّ استجابة لطلب الإدارة الفرنسية

يقول «فانون»: "كل امرأة جزائرية جديدة يراها المستعمِر سافرة توحي له عن انّ المجتمع الجزائري قد بدأت أنظمته الدفاعية بالتفسخ... وكل حايك يسقط وكل جسم يتحرر من وثاقه التقليدي وكل وجه يبرز للمحتلّ يكشف على نحو ينبئ بأن الجزائر قد بدأت بالتَّنَكّر لنفسها وتقبُّل هَتك سترها من قبله. كما يبدو للمجتمع الجزائري مع كل حايك يسقط أنه يرضى بتغيير عاداته تحت ادارة واشراف الاستعمار"[74]

---

[73] زهور ونيسي : "مساهمة المراة في صنع النصر" - مجلة الأصالة - العدد 22 - أكتوبر 1974 - ص 130

[74] «فانون»- الجزائر ترفع نقابها - المرجع السابق - ص 73

وإذا كان المستعمِر ينظر إلى نزع حايك المراة الجزائرية على انه وسيلة لهتك القيم الحضارية والثقافية للمجتمع الجزائري ، وإذا كان يبني استراتيجية الغزو والهيمنة على هذا الأمر، فمن المنطقي أن ينظر الشعب الجزائري إلى التمسك بالحايك على انه وسيلة من وسائل المقاومة للحفاظ على الشخصية الحضارية ولمقاومة الذوبان في الثقافة الفرنسية.

ومع اندلاع الثورة ، يتبدل الموقف من الحايك جذريا بحيث تنخرط المرأة في جبهة التحرير فتقوم بمهام نضالية كالرجل وتسير سافرة في المدينة الأوروبية كي لا يُلفَت الانتباه بحايكها وهي تنقل الرسائل الشفهية للمناضلين أو عندما تكون حقيبتها محشوة بالقنابل والمسدسات التي ستسلمها لمناضل عند الزاوية.[75]

ويجري على الأقلام وصف الإمكانيات الضخمة للمرأة الجزائرية "التي حولها الرجل إلى مادة جامدة فقدت خطوتها و كيانها و حتى إنسانيتها " ، و تسعى لذلك بطريقة علمية نفسية مستخدمة ما لديها من وسائل بقصد إشعار الجزائرية أنها "مستدلّة" وبوصف الرجل الجزائري – و هي تتجه إلى المرأة – كونه ساذجا متوحشا ، محاولة بذلك دفع المرأة الجزائرية إلى تحويل عقيدتها وإخضاعها للقيم الأجنبية و انتزاعها من كيانها.

[75] عبد الكريم بوصفصاف :"جهاد المرأة الجزائرية في ولاية ميلة (1954-1962) " - دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر - سبتمبر 2008 - ص 73

كما تقوم بمهارة بالغة في عتاب نموذجي ضد الرجل مكثرة من النكات والنوادر و الأمثلة لوضعه في قفص الاتهام، ومُكثِرةً من المؤلفات المركزة على ادلال المراة في الوسط الغربي *

يقول «فانون»" يعاتب الرجال الجزائريون جهارا عن كونهم يحدّون من انتشار العادات الغربية المألوفة و عن أنهم لا يلعبون دورهم كنواة فعالة لقلب عادات المجتمع وعن أنهم لا يمتعون زوجاتهم بمزايا أكرم و أعمق "[76]

و الواقع أن فرنسا لم تكن تجهل أن المرأة الجزائرية هي عماد الثورة و الثقافة في آن معا ، و أن فقدان شخصيتها و خضوعها للتصرفات الأجنبية و تبديل عقلياتها من شأنه أن يقلل من الحماس الثوري و أن يحطم الحضارة الجزائرية الأصيلة بل ويؤدي إلى الاستسلام للعدو الباغي .

فقد قوّت فرنسا إيمانها خلال المعركة في المرأة الجزائرية بوصفها عنصرا من عناصر التأييد لنفاذ الحضارة الغربية إلى المجتمع الأصلي و للقضاء بالتالي على كل بوادر الشخصية الجزائرية ، و كان الأمل ينبعث إليها مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلص من الحايك .

* لقد كانت المرأة منذ القدم محطّ اهتمام الكتّاب والمثقفين والمنظرين في مختلف أنحاء العالم. وفي البلاد العربية بدأ الاهتمام بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ألّفوا حولها كتبا متنوعة تناولوا فيها المراة في جميع جوانبها وبمختلف اهتماماتها

[76] فانون: "سوسيولوجية ثورة" ، الفصل الثاني - المرجع السابق ص 92

بهذا الحايك الذي يتكلم عنه «فانون»طويلا حيث جعله العنصر المحدد للمجتمع الجزائري الخاضع للاستعمار، يُبيّن ما كان يسعى إليه مسؤولو الإدارة الفرنسية بالجزائر من مساع لتحطيم أصالة الشعب و القضاء على كل ما من شأنه أن يذكر عن قريب أو بعيد بالواقع القومي.

إنها فعلا :

أ- عملية ممنهجة لتحطيم أصالة الشعب وتفتيت أشكال الوجود المؤهلة لإبراز حقيقة وطنية

ب- مسألة سياسية وإيديولوجية استعمارية تهدف إلى اخضاع المجتمع الجزائري...وهي عملية دقيقة تختفي وراء ذريعة الدفاع عن المرأة الجزائرية

ج-تبرير عقلاني لدخول المجتمعات عن طريق إشعار المجتمع المستعمَر بدونيته

يقول «فانون»" تلك المرأة الجزائرية التي تَرى و لا تُرى كانت تحبط رجل الاستعمار وتخيفه لعدم وجود تقابل متبادل ، فهي لا تذعن و لا تعطي نفسها ولا تستسلم . وحتى النساء الجزائريات غير المحجبات كن يحققن وجودهن كغربيات كاملات بسرعة مذهلة تشعر النساء الأوروبيات إزاءهن بنوع من الحرج والتخوف، مما جعل النساء الأوروبيات اللواتي كنّ حسب رأيهن صاحبات الموقف في توجيه التطور وتصحيح أخطاء السفور يصرحن – وقد نافستهن المرأة

الجزائرية من حيث اللطافة والأناقة والجرأة: " أولئك السيدات غير المحجبات هن أيضا لا أخلاقيات بل وسفيهات"[77].

هكذا يرى «فانون»أن تمسك الجزائري بعنصر حاول المستعمِر بدعواته ومطالبه وتهديداته القضاء عليه، يعد سمة من سمات الشخصية الجزائرية وقوتها اذ كان ذلك مثابة إنزال الهزيمة بالمستعمِر في شكل مشهدي على مرأى ومسمع الجميع

فعناد رجل الاستعمار وإصراره في مشروعه بشأن سفور المرأة وتحويلها إلى حليف في عملية الهدم الحضارية، أدى عكس ذلك إلى تقوية السلوك التقليدي في ارتدائه والإبقاء عليه.

و يعيد «فانون»إلى الأذهان تاريخ الغزو الفرنسي في الجزائر المتعلق بالحملات المفاجئة للقوات في القرى و مصادر الثروات و الممتلكات و اغتصاب النساء و نهب البلاد ليبين لنا نفسية رجل الاستعمار المملوءة بالسلوك الإجرامي العنيف الذي طالما تذهب ضحيته نساء جزائريات يتعرضن لعمليات فض البكارة.... الشيء الذي يؤثر في أنفسهن أقصى تأثير . و هذه القسوة و ذلك التمسك والاغتصاب العنيف يوضحه لنا «فانون»لنستنتج الوضع المتخوف لدى المرأة الجزائرية إزاء رجل الاستعمار و قلقها الدائم كلما تم لقاء لها مع أوروبي .

[77] «فانون»: الجزائر ترفع نقابها - الفصل الاول من كتاب سوسيولوجية ثورة (الملحق) - ص 83

" في الحلم – يقول «فرانز فانون» – تصرخ المرأة كضحية و تدافع عن نفسها كأنثى الإبل لكونها ، بلا أخطار و بلا وعي ، و تتعرض للهزيمة من طرف الأوروبي و تغلب على أمرها و قد تمزقت تمزيقا"[78] .

الواقع أن المرأة الجزائرية كانت تحيِّر المستعمِر، فهي لا تستسلم، ولا تسفر ولا تعطي نفسها ولا تذعن له ، تراه ولا يراها من وراء حايكها ، فكانت تخلق له نوعا من الإرتباك النفسي ومن التصورات التخيُّلية الخادعة في الحلم والرغبة الجنسية التي لم يعرف كيف يتخلص منها.

والملاحظ أن الطمع الجنسي للأوروبي في المراة العربية ينطبق والطريقة التي ينظر بها للحايك ولممارسة التحجُّب في التخيُّل الغربي ، كما أنه ينطبق مع ما تناوله ادراورد سعيد[79] في كتابه عندما تعرّض لموضوع التصورات التخيُّلية الخادعة الجنسية الذكورية الغربية، وهو ما اعطى بالتأكيد دفعة للدراسات الأنثروبولوجية عن الحياة الجنسية والتاريخية، وأعاد التفكير في العلاقات المتشابكة للسيادة بين الشرق والغرب، حيث أدت نظريته إلى صقل المقاربات النسوية وتطوير الدراسات ما بعد الكولونيالية. فقد كان أول من ربط الخيالات الجنسية بنزعة الهروب إلى الشرق. ونتج عن هذا الوعي إنتاج فكري مهم استعار منهجه من "ميشال فوكو" (Michel Foucault) وتنظيره حول السلطة، وهَدَفَ إلى

[78] المرجع السابق ص 86

[79] ادوارد سعيد : "الاستشراق" تر. محمد عناني – ط1 – رؤية للنشر والتوزيع – مصر - 2006

تفكيك الصور النمطية في البحوث التي تتناول المجتمعات الإسلامية.[80] وقد واصل كثيرون ما بدأه "إدوارد سعيد" من جهود، مثل ماري لويز برات، وبيتر هيوم، وهومي بابا، وغاياتري سبيفاك، ورنا قباني وغيرهم. فمنذ ظهور كتاب "الاستشراق" ظهرت كمية مدهشة من الأعمال في شتى مجالات الإنسانيات. وركز الإنتاج الفكري ما بعد "إدوارد سعيد" على التحيزات والترميزات الثقافية النمطية والافتراضات المسبقة في الحقبة الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، وقد تم هذا على مستويين: من خلال التحليل النصي وفي الدراسات الأنثروبولوجية.

هذه حالة من الحالات التي تبينها لنا مأساة الوضع الاستعماري والتي تقابل النظامين وجها لوجه... تقابل الشعب الخاضع للاستعمار بكل مخصصات وجوده وتيارات شخصيته وخصائص سلوكه بأفعى استعمارية تسعى إلى تحطيم هذه البنية التقليدية التي لا تعد سوى مظهر من مظاهر الشخصية الوطنية.

و يسجل «فانون» هذه التيارات المنبعثة في نفسية المواطن الخاضع للاستعمار وردود أفعاله إزاء ذلك العنف فيؤكد "... أن المواطن المستغل يقوم برد فعل على نحو عنيف جدا أمام الإلحاح المستمر من قبل المستعمر الأجنبي على هذا القطاع أو ذاك من قطاعات التقاليد ..." و مثال لرد الفعل المعاكس هذا يعطيه «فانون»بكيفية جلية حينما يتكلم عن خاصية الحايك عند المرأة الجزائرية إذ

[80] ميدة يغينوغلو : "خيالات كولونيالية: نحو قراءة نسوية للاستشراق». (هي دراسة غنية ومدهشة للتمثيل الثقافي للغرب لنفسه من خلال الآخر، فهي تبحث في الاستشراق وتعبيره عن الاختلافات الجنسية والثقافية، كما تركز على مفهومي الخيال والرغبة، وربطهما بالبناء التاريخي المحدد وبالعملية الجماعية)

يقول : ".... لم يلبث المواطن الخاضع للاستعمار أن قابل الاعتداء الاستعماري حول مشكلة الحجاب بالتمسك بالحجاب "[81]

هذا إذن طابع نفساني يندرج ضمن السلوك العام الجزائري برز خلال حرب التحرير و هو طابع لاقى صعوبات كثيرة إذ كان المجتمع الجزائري يميل طيلة فترة الاحتلال إلى تحاشي رجل الاستعمار، ذلك أن عناد هذا الأخير وإصراره عن مشروعه بشأن القضاء على مختلف هذه الانعكاسات الثورية و السلوكات التقليدية إلا أن هذه السلوكات على الرغم من انها كانت تميزها بعض السلبيات فقد أصبحت تعتبر ايجابية في استراتيجية المقاومة ضد المستعمِر.

ظاهرة ردود الأفعال هذه عند الجزائري يتطرق إليها الكاتب "محمد الميلي" حينما يتكلم عن مقاومة الشعب الجزائري ضد محاولات طمس شخصيته فيكتب:"تؤدي هذه الحرب المطلقة التي شنها الاستعمار على الإسلام والعربية في الجزائر إلى رد فعل معاكس تماما : تمسك الشعب بالإسلام و العربية و اللجوء إلى أسلوب القنفذ في الدفاع ، أي الانغلاق و التقوقع حتى لا يجد الاستعمار منفذا للنيل من الشخصية الوطنية"[82]

ونفس التحليل يذهب إليه "فانون" عند قوله : "إن اصرار السلطة الاستعمارية على سفور المرأة الجزائرية يدفع المجتمع الجزائري والنساء بالذات يملن

[81] محمد الميلي "فانون والثورة الجزائرية" المرجع السابق – ص 83

[82] محمد الميلي – نفس المرجع – ص 96

أثناء طول فترة الاحتلال التي لم يقم ضدها أي اعتراض إلى تحاشي رجل الاستعمار، إذ أن عناد هذا الاخير وإصراره في مشروعه بشأن سفور المرأة وبتحويلها إلى حليف في عملية الهدم الحضارية، كل ذلك يؤدي إلى تقوية أنواع السلوك التقليدية". [83]

و لعل تسجيل ظاهرة الحايك هذه في كتاب «فانون»"سوسيولوجية ثورة" قد مكنته من اكتشاف الملامح و التضاريس لهذه المقومات بعين المثقف السوسيولوجي و الطبيب النفساني، و بعين المتعاطف مع الشعب الجزائري ومع ثورته، لان دور المرأة في الحفاظ على الشخصية و دور الثقافة الوطنية لم يكونا واضحين قبل اندلاع الثورة .

فالمظاهر التي تبنتها المقاومة الثقافية للشعب الجزائري كانت قبل اندلاع الثورة مظاهر محافظة لم تحظ بالعناية و لا بالتأييد من طرف المثقفين الجزائريين، وكان التمسك بالتقاليد في نظر الكثيرين مظهرا من مظاهر الجمود و الانحطاط

لم تتجل هذه الملامح الثابتة للشخصية الجزائرية عند «فانون»إلا بعد اندلاع الثورة التحريرية المسلحة. فقد قفز «فانون» من التمرد على الزنجية إلى الثورة الوطنية القومية في نطاق حرب التحرير الجزائرية لأن الثورة الجزائرية أتاحت له اتصالات جديدة، وأمدته بتجربة ضخمة.

[83] الجزائر ترفع نقابها – المرجع السابق – ص 66

ومما يذكر أن "فانون" اكتشف بأن الثورة الجزائرية تستمد أصولها أولا وقبل كل شيء من منبع استرجاع التراث الماضي الذي يذكر بأن الجزائر منتمية إلى قيم حضارية ومتمسكة على مر السنين بشخصية عربية أصيلة.

وتطلع على كل المحاولات التي قام بها الاستعمار الفرنسي للقضاء على الثقافة الوطنية الجزائرية واكتشف عند الشعب الجزائري وجوده وكيانه وأن الحرب التي يشنها المستعمر لا تسعى سوى لمحاولة فاشلة تستهدف محو شخصية شعب بأكمله.

وعلينا أن نعود قليلا إلى هذه الشابة التي لم تخلع الحايك إلا بالأمس لنرى انعكاسات تصرفاتها الطارئة وملامحها الاستثنائية التي أصبحت وليدة التوتر العارض أثناء حرب التحرير.

فهذه المرأة تتقدم نحو المدينة الأوروبية الحافلة بالجنود المقاتلين ورجال البوليس فتشعر وهي غير محجبة بإحساس مخيف، إحساس بالقصور والنقص لأنها ليست في زيها العادي أي أنها قد صارت "عارية" ..... آنذاك تتفجر طاقات شخصيتها لتجعلها تتخذ سلوكا استثنائيا تسعى به إلى تحطيم أدنى خجل وأن تتحاشى كل ما من شأنه أن يجتذب الانتباه لتقوم بمهمتها الثورية حسب ما تقتضيه الظروف.

"إن هذه المرأة – يقول «فرانز فانون» – التي لم تكن تخرج من البيت اطلاقا قبل الثورة إلا إذا صحبتها أمها أو زوجها وجدت نفسها تأخذ على عاتقها

بعض المهام المحددة مثل التوجه إلى وهران أو قسنطينة أو الجزائر، وكان عليها أن تمضي أياما كثيرة بمفردها حاملة توجيهات ذات أهمية قصوى بالنسبة للثورة، فتأخذ القطار وتمضي لقضاء الليل عند أسرة مجهولة أو عند بعض المناضلين"[84] وهكذا يلاحظ في هذا السياق أنواع السلوك الاستثنائي وملامح الشخصية الجزائرية التي ظهرت بصفات جديدة خلال فترة الصراع والكفاح المسلح عند الرجل الجزائري الذي يقبل بهذا الوضع الجديد وهذا التصرف المستحدث .... ذلك أن الرجل الجزائري التقليدي الذي تميز بالغيرة القديمة وبالتمسك "الأسري" قد فقد كل هذا عند احتكاكه بالثورة.

وعند التزام الزوج أو الأب بالنضال يكتشف كل منهما أبعادا جديدة حول العلاقات بين الجنسين وهذا موقف مخالف تمام المخالفة مع الموقف السابق لكنه لا جدال في أنه يعد سلوكا كامنا إلى الأبد في ملامح الشخصية الجزائرية وانعكاساتها الحركية في الثورة الجزائرية.

و من قدرات الشخصية الجزائرية و تلاؤمها مع المواقف المستحدثة أن كان على بعض النساء الجزائريات – بحكم ظروف استثنائية قاهرة – أَنْ تَحَوَّلنَ تحولا جذريا إلى نساء أوروبيات مليئات بالانطلاق و التحرر فتشعر هؤلاء النساء و هن من غير المحجبات بإحساس مخيف ، إحساس بالقصور و النقص لأنهن لسن في زيهن العادي أي أنهن صرن "عاريات". آنذاك تتفجر طاقات شخصيتهن

[84] فانون : الفصل الثاني من كتاب "سوسيولوجية ثورة"

ليصبحن متخذات لسلوك استثنائي يتحاشين به كل ما من شأنه جذب الانتباه حتى يقمن بمهمتهن الثورية حسب ما تقتضيه الظروف .

تصرفات غريزية لمواجهة الأخطار الخارجية بعيدة عن أي تأثير أجنبي حاول «فانون» التعبير عنها عندما يقول في الصفحة 32 في كتابه "سوسيولوجية ثورة": "...ينبغي دوما أن نستحضر في أذهاننا هذه الحقيقة ، وهي أن المرأة الجزائرية التي شاركت في الثورة و التزمت بها ، قد تعلمت بالغريزة دورها كامرأة وحيدة في الطريق و في رسالتها الثورية... فالمرأة الجزائرية ليست بالشرطي السري، و إنما اعتادت أن تخرج إلى الطريق العام بدون تعلم و هي تحمل في حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقارير عن النشاط محفوظا بمكان خاص بين طيات ثدييها، و لم تكن تعرف ذلك الإحساس بأنها تلعب دورا مقروءا مئات المرات في الروايات، أو مُشاهَداً في السينما ، و لم يكن لديها ذلك الشعور بتقليد الغير الذي نشعر به عند المرأة الغربية..."[85] .

ويتجلى هنا - عبر ما يكتبه «فانون»- أنه إذا كانت هذه السلوكات التقليدية مثابة مقاومة ساكنة بلا سلاح الا أن تصاعد صور الكفاح استدعى حلولا مبتكرة بدخول المرأة في مصاف الثورة و تعلمها بالغريزة دورا جديدا واعتمادها تصرفا استثنائيا ما كانت تعرفه من قبل .

[85] فرانز «فانون»: "سوسيولوجية ثورة" - الفصل الثاني - الجزائر ترفع نقابها (الملحق المترجم نهاية هذه الدراسة)

لقد أدى اختفاء الحايك عند الجزائرية إلى بعث الاضطراب في تخطيطها البنيوي لبدنها . و كان عليها أن تخترع بسرعة أبعادا جديدة لبدنها هذا. وإذا كانت توجد في كتابات كثير من ذوي النفوذ الفرنسي أمام فشل المستعمِر في قلب عادات المجتمع الأصلي ما مفاده : "إننا نبذل جهودا لا طائل من ورائها" ... أو ... "إن الإسلام متمسك بتلابيب فريسته ..." ، إلا أن الأمل كان ينبعث لدى المحتل مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلى عن الحايك في مجتمع جزائري تحكمه أنساق دفاعية في طريقها إلى التحلل.

يستخدم المجتمع الاستعماري عامة في مقابل "الحايك" سلوكا متناسقا يستعمل فيه كل خطوط هجومه وفلسفته.

وبعد التأكيد أن المرأة تشكل محور المجتمع، تبذل جميع المجهودات من اجل دعوة النساء الجزائريات إلى أن يلعَبْنَ دورا أساسيا في تغيير مصيرهن.

يقول «فانون»: " يثور المجتمع الاستعماري بحدّة ضد انعزال المرأة الجزائرية على هذا النحو ، ويُبدي قلقه و اهتمامه بهؤلاء النساء التعيسات اللواتي قد فُرِض عليهن إنجاب الأولاد و هن محبوسات ومحرومات".

وتستثمر الادارة الاستعمارية مبالغ هامة في هذا الصراع، وبعد أن تتأكد من ان المرأة تشكل محور المجتمع الجزائري تبذل قصارى جهدها لإخضاعها للقيم الاجنبية وإقناعها بتحويل عقيدتها ساعية بذلك إلى امتلاك الوسائل العملية الفعلية لتخريب الحضارة الجزائرية.

ذلك أنه صار يُنظر للحايك كرمز لكيان المرأة الجزائرية ووضعيتها، ولم يكن هذا الموقف نتيجة حدس عشوائي بل إنّ أخصائيي شؤون المواطنين الأصليين صاروا يعملون على تنسيق نشاطهم ابتداء من تحليلات علماء الاجتماع والديموغرافيين والانثروبولوجيين في هذا المضمار.

ويتقوى ايمان السلطة الاستعمارية في المرأة الجزائرية كونها عنصرا من عناصر التشجيع لنفاذ الحضارة الغربية إلى المجتمع الأصلي واستئصال جذور الشخصية الجزائرية عقب كل مرحلة تسجلها السلطة من مراحل نجاحها.

ويحاول الجهاز الاستعماري طَرْق أبواب أخرى لاستهداف المرأة وذلك في الجانب الاقتصادي المعيشي، حيث شجعت ادارة الاحتلال المرأة على نزع لباسها التقليدي مقابل امتيازات اقتصادية، خاصة وقت الأزمات الاقتصادية التي تقل أثناءها المواد الغذائية ، حيث تُمنح كل امرأة تخلت عن حايكها التقليدي مواد غذائية.

وتمثل هذه الطرق والأساليب المختلفة كمحاولة احداث التغيير بفتح ورشات لتكون وسيلة احتكاك بين المرأة الأوروبية والمرأة الجزائرية محاولة في تكسير الحواجز بين "المتقدمات" السافرات المتحررات الاوروبيات وبين "المتخلفات" المغلوبات على أمرهن في الجزائر. إلا أن المرأة الاهلية تبقى بعيدة عن تأثيرات المفكرين والمنظرين الفرنسيين وعن اي تغيير فعلي وجذري في وضعيتها.

ان وضع المرأة "السيء" - حسب المنظور الفرنسي – سببه المجتمع الرجالي وبالتالي فلا يمكن تغيير حال المجتمع إلا بتغيير حال المرأة فيه . من ذلك أنه حاول تجريد المرأة من سترها وحيائها بمحاولة جعلها نسخة للمرأة الأوروبية يتمكن عن طريقها الوصول إلى عمق الاسرة الجزائرية فيشكل عن طريقها جيلا لا يمت بصلة إلى مقومات شخصيته أو يصل من خلالها إلى عمق المجتمع الجزائري فيبث فيه أفكار التخريب والانسلاخ عن القيم والثوابت وهو بذلك "يسعى إلى تشكيل امرأة جزائرية على النمط الأوروبي وضرب الأسرة عن طريقها" [86]

هذه الرؤية عبرت عنها السيدة "لوس أليكس" حين كتبت قائلة: "إن أقوى عنصر من حيث التأثير في افريقيا، كما هو الحال في أوروبا ، هو المرأة. فإذا تمكنتم من استقطاب مائة ألف من بنات الأهالي ستصبح هؤلاء الفتيات الزوجات المفضلات للرجال ذوي المكانة ضمن الفئة التي ينتمي إليها في المجتمع ومن ثم تضمن إلى الأبد خضوع البلد"[87]

وعلى الرغم من المبالغة التي ينطوي عليها كلام هذه السيدة فقد استساغه بعض قادة الاحتلال، وهو ما عبر عنه وزير الحرب آنذاك حين قال : " رغم المبالغة... إلا أن في الأمر شيء من الحقيقة "[88]

[86] زهور ونيسي : مساهمة المرأة في صنع النصر - مجلة الأصالة – العدد 22 – أكتوبر 1974 – ص 155

[87] أبو القاسم سعد الله : "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" – ج 5 – عالم المعرفة – الجزائر 2009 – ص117

[88] "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" – المرجع السابق - ص 338

ان التحليل الفانوني لميكانيزمات الاستعمار من أجل تفتيت الشخصية الوطنية والقضاء عليها من الداخل بواسطة المرأة هو اكتشاف عميق لفانون، لما كان له من دقة الملاحظة وعمق التحليل، مكّناه من مثل هذا الاكتشاف الخطير

إن ما تناوله «فانون» في كتاباته حول المرآة الجزائرية إبّان الثورة التحريرية إنما هو دحض للكتابات الاستعمارية الفرنسية التاريخية والأدبية التي عملت على رسم صورة مشوهة عن الحياة الاجتماعية للمرأة الجزائرية داخل كيانها العائلي ومكانتها في النسيج الاجتماعي بأنها تعيش حياة بؤس وشقاء وتخلف وجهل حيث اعتبرت المرأة العربية وكأن لا دور لها في المجتمع الذي تعيش فيه وكون المراة الأوروبية سببا في انعتاقها وتحريرها.

نحن ندرك أن الغرض من مثل هذه الاطروحات هو محاولة تشويه صورة الفرد الجزائري في اطار الأطروحة الاستعمارية المعروفة القائلة "بأن الفرد التابع لأهالي السكان الأصليين متخلف فطريا وغير قابل للتحضر وبالتالي تكون هذه الأطروحة مدخلا للخوض في القضايا الاجتماعية المتعلقة تحديدا بالمرأة كقضايا الزواج والطلاق وتعدد الزوجات والميراث والحايك وما إلى ذلك "[89]

موقف «فانون» من الاسرة الجزائرية تناوله أيضا في كتاباته (الفصل الثالث من كتابه "سوسيولوجية ثورة") يتحدث فيه عن كسر حاجز العار الذي ارتبط

[89] يمينة بشي : مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال – مجلة المصادر – ع3 – 2000 – المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 – دار الحكمة – الجزائر – ص 219

بالعادات والتقاليد ككسر الهيمنة الابوية للأب على ابنته ، حيث أصبحت الابنة المجاهدة تتحدث إلى الأب بثقة فيفخر الأب بابنته ويفرح بعودتها سالمة، أي ان دخول المرأة في الثورة قد أثر على علاقتها بالمجتمع ككل فأصبحت المرأة أكثر وعيا لدورها الفعال في الوطن متنصلة من موروث "كلمةالرجال"

ومما لا شك فيه ايضا أن العلاقات الزوجية تأثرت كغيرها حيث "اعادت ضرورات الثورة تشكيل العلاقة الزوجية فأصبح من الضروري إشراك الزوجة أو إطلاعها على مجريات العمل أو انخراطها في العمل الثوري السري.

وهكذا تحدث وسط العائلة -كما يكتب «فانون»- تقلبات خيالية فالمناضل الذي تذهب زوجته في مهمة ليس له الحق في استفسارها عن ذلك. أما الأب فيذعن أمام قرار ابنته الالتحاق بالمجاهدين.

إنه تغيير عميق في العقليات، انها نظرة "ثورة" لا تمثل مظهرا سياسيا في المفهوم العام بل تقلبات في المجتمع داخل الثورة ومن أجلها.

يرى «فانون» أن موقف رجل الشارع الجزائري مثلا من قضية تعلم المرأة الجزائرية في المدارس الفرنسية هو موقف يتسم بالعداء والنفور . لكن هذا الموقف غير متخذ عن وعي دائما لأنه مميز دوما بالتخوف من أن يؤدي ذلك إلى محو الشخصية الوطنية، خصوصا بعد أن تجلى موقف المرأة الجزائرية في الريف على وجه الخصوص فبات الذين كانوا ينتقدون "عقلية المحافظة" وطابع "الجمود" الذي

كان يغلب على المجتمع الريفي قد غيروا نظرتهم شيئا فشيئا ليصبح الريف - خلال الكفاح المسلح - محل اعجاب وتقدير.

لقد عملت الكتابات الفرنسية المتعلقة بالمرأة والمهتمة خصوصا بالشأن الاجتماعي للأهالي على ضرب مَواطِن القوة في الكيان الجزائري المتماسك، فكانت المرأة هدفا رئيسيا ومبررا لإرسال البعثات التبشيرية ايمانا من المستعمِر بأن عملية التغيير لن تتم ما لم يبدأ التغيير بالمرأة فيسلخها عن أصولها.

اجمالا، اذا نظرنا إلى تحليل "فانون" بخصوص المرأة الجزائرية فإن الثورة التحريرية قد حركت نظام الذكورة واعادت تأسيس منظومة قيم اختلفت عما عهدته النساء والرجال من قبل. غير أن "فانون" لم يقتصر على ذلك فاعتمد في كتاباته الاخرى على النظرة النفسية التحليلية لقضية المرأة السوداء وعلاقتها بالرجل الأبيض في افريقيا، فأشار إلى البعد النفسي في العقلية المستعمرة التي تعكسه العلاقة بين المرأة الملوّنة والرجل الأبيض، وكيف ساهم الوضع الاستعماري في خلق شرخ نفسي أدى إلى حالة عُصابية وهذيانية للإنسان الأسود وللمرأة السوداء.

يقول فانون: "البرنامج الاستعماري يعتبر أن المرأة هي التي يجب أن تتعهد بالدور التاريخي في تحريك الرجل الجزائري ، فتحويل المرأة الجزائرية وانتزاعها من وثقتها التقليدي يعني - بنظر المستعمِر - امتلاك سيطرة حقيقية على الرجل وامتلاك وسائل عملية وفعالية لتحطيم الشخصية الجزائرية.

الفصل الرابع :
السمات الثقافية في كتابات «فانون»

تُعـرَّف السـمات الثقافيـة بأنهـا الوحـدة البسـيطة أو الـنمط الاجتماعـي الذي لا يمكـن تقسـيمه، وهي السـبيل الذي يرجـع إليـه العلـماء في مقارنـة المجتمعـات والثقافـات بعضها ببعض أو موازنتها الواحدة بالأخرى[90]

لقـد تعـرض باحثـون كثـيرون لمفهـوم الثقافـة في جانـب التصـور العـربي والإسـلامي. ولـئن ربطنـا هـذه الثقافـة بالشخصـية و الحضـارة في الجزائـر نجـد انهـا تتمثـل في كل مـا يـرسم الحيـاة البشـرية او الاجتماعيـة او الفرديـة بالبيئـة الاجتماعيـة كاللغـة والعادات والمعتقدات و الطقوس وآداب السلوك .

مفهـوم الثقافـة هـو مـن أكـثر المفـاهيم تـداولا و مـن أكثرهـا غموضـا ، فالتعـاريف المتنوعـة راجعـة أساسـا إلى محاولة كل إتجـاه وإبـرازا جوانـب معينـة مـن الثقافـة بإعتبارهـا مـحدِّدة للمفهـوم و مركّـزة عـلى جانـب دون الآخـر في النظـر إلى الثقافـة. كـما يعـود أيضـا إلى طبيعـة المجـال المعـرفي لـكل إتجـاه، و هـذا مـا يظهـر بوضـوح مـن خـلال مجمـوع التعاريف .

فقـد نجـد مـن تُـولي أهميـة كبـيرة مـن أصـل الثقافـة و هنـاك مـن يكتفي بوصـف عناصرهـا وآخـر مـن يفسـر وظيفتهـا . و لعـل النظـرة السوسـيولوجية الـتي حاولـت التركـيز عـلى الجوانـب المنتجـة للأشـياء و الأفعـال المـؤطرة لهـا في نفـس الوقـت ،

[90] أحمد زكي بدوي : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية – مكتبة لبنان – بيروت 1977 – ص 93

كالاهـتمام بالقـيم و الرمـوز، إهتـمت بالوظيفـة الـتي تقـوم بهـا الثقافـة تجـاه الأفـراد بإعتبارها مصدرا لإشباع حاجياتهم و وسيلة لحل مشكلاتهم .

مفهـوم الثقافـة هـو ذلك المسـتودع المـتراكم مـن المعرفـة والمعتقـدات والقـيم والفنـون والأخـلاق والأعـراف والعـادات وسـائر أسـاليب البقـاء الـتي اكتشـفها أو اسـتعارها الانسـان وأوجـدها لنفسـه باعتبـاره عضـوا يعـيش بـين جماعـة تـؤمن وتؤيـد وتحافظ على ذلك الثرات

وقـد عرّفهـا "تايلـور" بأنهـا "الـكل المركـب الذي يشـمل المعرفـة والمعتقـدات والفنون والاخلاق " [91]

"مـاكس فيبـير" (Max Weber) [92] يؤكـد في كتاباتـه ان الثقافـة الوطنيـة هي الصـورة الكونيـة الـتي تؤلـف الكـتلة الأساسـية للمعتقـدات والمسلّمـات الافتراضـية. أمـا "ايـدجار مـوران" (Edgar Morin) فيـوضح بان الثقافـة الوطنيـة تبـنى انطلاقـا مـن مجمـوع مكـونات مثـل الأسرة والثقافـة والمدرسـة والمحيط[93] ، في حـين يـرى المفكـر

[91] F.W. Taylor : « Qu'est ce que la culture ?» in Harwood Merrill – Paris – 1970 – Page 72

[92] Max Weber : « Sociologie des religions » - Textes choisis – Gallimard – Paris 1996

[93] Edgar Morin : La méthode – Ed. Le seuil – Paris – 1980 – Page 271

الجزائـري "محمـد ولد خليفـة"[94] أن الثقافـة الوطنيـة هي مـا تشـمله مـن قـيم وعـادات ومقومات وكل ما هو مشترك من افراد المجموعة كالقواعد والمعايير والقيم

مفهـوم الثقافـة – حسـب هـذا التعريـف الأخـير – يتسـع للتقاليـد والعـادات وكل الصـور الثقافيـة التقليديـة سـواء كان مصـدره الكتاتيـب القرآنيـة أو الـزوايا الطرقيـة أو المعاهـد الدينيـة أو المـدارس العربيـة الحـرة أو النـوادي الاصـلاحية او الأسـاطير الشعبية.

الواقع ان كثيرا مـن البـاحثين الفرنسـيين كتبـوا عـن الثقافـة الجزائريـة لـيس بنيـة رد الاعتبـار لهـا، و لكـن بهـدف إقامـة الدليـل عـلى أن عصـور الازهـار الثقـافي هي عصـور للاسـتعمار الرومـاني ، معتمـدين التشـكيك في سـياق مـنهج التهـديم ثم إعـادة البناء وفقا لمسار التاريخ الأوروبي

يـرد "فـانون" عـلى هـذا الادعـاء فيكتـب:" لأول مـرة في التـاريخ تأخـذ شـعوب المغـرب العـربي مصـيرها بأيـديها بعـد ان تحـررت مـن السـيطرة الاجنبيـة للرومـان والونـدال والبيزنطيـين، لِتبقـى دومـا سـيدة مصـيرها إلى مجـيء التوسـع الاسـتعماري الفرنسي في العصور الحديثة" [95]

[94] محمد العربي ولد خليفة : " الجزائر، المفكرة التاريخية" – دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع – الجزائر 2007 – ص 218

[95] أنظر : محمد الميلي : " فرانز فانون والثورة الجزائرية" - المرجع السابق ص 77

كما أن الكُتّاب الغربيين ممن سلموا بوجود شخصية وطنية جزائرية خلال حرب التحرير حاولوا أن يعزلوا هذه الشخصية عن الثقافة الوطنية ذات الأصول التاريخية و المتميزة بقيم فكرية عالية، ليبرروا وجود الشخصية الوطنية كونها مقترنة بالوجود الفرنسي.

فحسب رأيهم، الفضل في اكتساب الجزائريين لمقومات حياة سياسية نشيطة تحارب الاستعمار، إنما يعود لاحتكاكهم بالفرنسيين، متنكرين في ذلك لأبسط مقومات التاريخ الجزائري وتراثه الثقافي القديم، غير مُسَلَّمين بوجود تاريخ وطني قبل دخول الاستعمار الفرنسي.

يقول "روبير أجرون" عند مدحه لتاريخ المستعمرات: "اذا كانت بلاد الشام الافريقي، تعرف الحدود مثل اوروبا فليس ذلك إلا لأن الاتراك وهم نصف أوروبيين قد حملوا إلى افريقيا فكرة الحدود والسيادة الوطنية"[96]

في سعيها إلى نكران هذا التراث ارتكزت الاستراتيجية الفرنسية في المجال الثقافي على توظيف كل الوسائل المتاحة من أجل هدم كل البنى الثقافية والروحية التقليدية واحلت محلها بنىً غربية، لتشويه التاريخ وتزييف الحقائق والقضاء على الوجود القضائي للشعب الجزائري.

---

96 Charles Robert Ageron : « Un aspect de la guerre d'Algérie » - Ed. Armand Colin – Paris 1997 – Page 267

حملت فرنسا عند احتلالها للجزائر شعار التمدن والتحضر، واعتبرت ذلك فتحا حضاريا وتاريخيا ولغويا، وأن رسالة التمدن لا يمكن تحقيقها إلا بنشر اللغة والتاريخ والحضارة والثقافة الفرنسية، وبالمقابل القضاء على مقومات الهوية للشعب الجزائري.

ولأن مسألة إختراق هذه البنية اللغوية والروحية للشعب الجزائري لم تكن بالأمر الهين، قامت بتجنيد فريق من العلماء تحولوا إلى حاشية علمية للسلطة العسكرية الحاكمة في الجزائر، مهمتهم غسل أدمغة الجزائريين وإضفاء الطابع الفرنسي على الفكر والثقافة الجزائرية ، مسخرة في سبيل ذلك مؤلفين ومؤرخين وباحثين زيفوا تاريخ الجزائر واستأثروا بالكتابة عنه[97] ، ومنظمة لهذه الغاية العديد من المؤتمرات والاجتماعات لإنجاح هذه المخططات الثقافية الخطيرة.

عناد المستعمِر وإصراره في مشروعه بشأن القضاء على مقومات الثقافة الوطنية هدما لحضارته، طال عنصر الدين، حيث سعى الاستعمار إلى تشجيع الفهم المنحرف للدين بتحويل الزوايا والطرق الصوفية للشعودة، يتولاها عملاء يشجعون الجزائريين على الاستسلام لفرنسا كـقَدَرٍ ربّاني لا يجوز الاعتراض عليه وبناء عقل خرافي ومحرمات تعوق المطالبة باستقلال المسعمَرة.

[97] اسماعيل العربي : "موقف مساهة المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر" - مجلة الاصالة - الجزائر - السنة الثالثة - العدد 14 - عام 1973 - ص 189

يقول فانون: " ان العبقرية الوطنية الجزائرية تشكلت في قالب الإسلامية وأعطت الجزائر مثل تونس و المغرب الدليل على روحها الخلاقة (..) إن الثقافة العربية باعتبارها وجها من أوجه المقاومة كان لها اثر شديد عزز شعورها بأن الخلاص يكمن في التمسك بها حماية لها من الاندماج والذوبان"[98]

يرى «فانون» أن المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حل لاستعمارهم هو الحفاظ على هذه الثقافة الوطنية وقيمها بسلاح فعال في وجه الاستعمار وهو الذي كان قبل سنوات فقط يوصي الشعوب المستعمَرة إلى التخلي نهائيا عن ثقافتها وقيمها والاندماج كليا في ثقافة أوروبا إن أرادت التخلص من عُقدِها بدل اللجوء إلى تاريخها وماضيها وثقافتها وأساطيرها لإثبات قوتها وعظمتها تجاه المستعمِر

تَعرَّف «فانون»وشاهد عن كَثَب ما تعرضت له الثقافة الوطنية من مسخ وتشويه، و تأكد عنده الدور الايجابي لهذه الثقافة في تحريك معركة التحرير حيث تصبح الثقافة الوطنية ، رغم تخلفها الشديد هي العاصم من التحلل والذوبان في المحتل ، و تتوقف للسبب نفسه من أن تكون عاملا سلبيا لتصبح عاملا إيجابيا يعزز المقاومة ضد المحتل، و يُبقي على المقومات الأساسية للشخصية الوطنية و يحفظها حتى تكون بعد الاستقلال ، مهيأة للخلق والإبداع.

[98] فانون: مقال بعنوان "الانبعاث الوطني والثورة الديمقراطية - جريدة «المجاهد»- 01 فبراير 1958 - ص17"

يتفق معظم الباحثين سواء أولئك الذين كان لهم انشغال مبكر بعلم الأجناس البشرية أو الذين اهتموا بعلم الأعراق أو حتى الذين حاولوا تشريح المجتمعات و فهم آليات سيرها و صيرورتها بأن الثقافة التقليدية تمثل احدى الثوابت الاجتماعية التي لم تتغير في الجزائر و لم تندثر و بقيت صامدة في ظل التقلبات الفكرية والإيديولوجية و التطورات العلمية و الصناعية . و هو عنصر بارز من العناصر المغذية للثقافة و المشكلة لعقل الجزائري ووجدانه ونفسيته وهويته و شخصيته . بل أصبح يمثل في نظر البعض المنهل الخصب والضروري لإحياء قيم العصر و مواجهة الفراغ الروحي و الانحراف الأخلاقي و"الانفصام الحضاري " الذي تعيشه المجتمعات الغربية و غير الغربية في عصر الهيمنة والاستعلاء و الاستكبار الثقافي والتكنولوجي و المعلوماتي والاقتصادي"

و مما لاشك فيه ان تأثر «فانون»بتمسك الجزائري بانتمائه للإسلام والثقافة العربية كمظهر إيجابي من مظاهر تفادي الذوبان في الشخصية الاستعمارية، يظهر جليا في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" : " إن الكنيسة هي في المستعمرات كنيسة بيض ، كنيسة أجانب. انها جاءت مع المستعمرين لا لدعوة الانسان الى طريق الله و إنما لدعوته الى طريق الانسان الأبيض ، الى طريق السيد المتسلط، إلى طريق الظالم" [99]

[99] معذبو الأرض - الطبعة الفرنسية - المرجع السابق - ص 10

ونفهم من هذا بأن المجتمع رغم وجود العديد من العوامل و من بينها عامل الدين التي تدفعه إلى التماسك و التجانس و توحيد أفكاره و سلوكاته و أحاسيسه ومشاعره فإنه يظل منقسما إلى جماعات قد تطغى بمكانتها ومصالحها و أنماط حياتها على نظرة الدين و أحادية تصوراته و تميل إلى مسايرة أهوائها بافتعال التأويلات التي تنسجم مع هذه المكانات . وهذا ربما ما يقصده "ماكس فيبير" (Max Weber) حينما يفترض بأن "كل مجتمع ينقسم إلى شرائح اجتماعية متعددة تتسم بنموذج خاص و برؤية متميزة ومتبلورة كثيرا أو قليلا حول العالم "

و دائما في إطار التحليلات التي اعتنت بالجانب الاجتماعي لظاهرة الدين تستوقفنا آراء العالم الاجتماعي "دوركايم" الذي يعتبر الدين رافدا من الروافد الأساسية التي تسهم في بناء المجتمع و تحقق تماسكه و انسامجه و تجعل منه مؤسسة مستقلة بذاته. و تتمثل وظيفة الدين التي يتحدث عنها "دوركايم" في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" في تقوية الاوصار التي تربط الفرد بالمجتمع الذي هو عضو فيه. كما تهدف الى تحقيق اندماجه في المجموعة الاجتماعية لان الطقوس الدينية هي التي تقوي في نظره إحساس الفرد بالانتماء الى جماعته وتمكنها من ان تجدد دوريا المشاعر الخاصة بها وبوحدته وتساعد على ربط الحاضر بالماضي .

من رؤية "دوركايم" هذه نستنبط ان الدين عامل أساسي وجوهري، به يتحقق تكامل الجماعة و تماسكها و وحدتها ، وبه يحافظ على علاقته الاجتماعية التي تضمن للفرد التكيف والاندماج و الاستقرار النفسي.

وبهذا التفسير الذي يثبث أولوية وتأثير المجتمع على الفرد يكون دوركايم بعيدا كل البعد عن النظرة النفسية والفردية ولديه اعتقاد راسخ بان للمجتمع دورا بارزا في تشكيل الوعي الاجتماعي الذي يشمل التصورات والمثل العليا والقيم والمشاعر المشتركة بين أفراد كل المجتمع. ويكون هذا الوعي الاجتماعي الخارجي المفروض على الفرد أكثر سموا و أكثر تعقيدا من الوعي الفردي.

هذا ما يشير إليه "روجي باستيد" حينما يذكر بأن للعامل الديني دورا كبيرا في ادماج الفرد داخل الجماعة و في صونه من التعرض للاضطرابات النفسية والعقلية اذ يلاحظ أن نسبة هذه الاضطرابات تزداد و ترتفع كلما تلاشى التنظيم داخل الجماعة الدينية و كلما كان النمط التربوي السائد فيها مبنيا على التسلط .

فإذا عدنا إلى الشخصية الجزائرية وارتباطها بالدين كعنصر مهم من عناصر هذه الشخصية التي تصبغها بصبغتها و تجعل منها شخصية متميزة عن الشخصيات الأخرى، فإن ذلك يعود في نظر الكثير من الباحثين إلى ما يوفره هذا الدين من اطمئنان نفسي و ألفة و تآخٍ و إحساس بالذات و بالهوية و من دعم لتماسك الانا الاجتماعي ، و ما يقدمه من مدلول و معنى لحياتهم ووجودهم.

من بين الأسباب الرئيسية لانتشار الدين الإسلامي يقول "قارودي" (Garaudy) هي "قدرته على استبدال النظرة الساكنة عن العالم المبينة على

الطبقات الاجتماعية بنظرة ديناميكية عن العالم و عن المجتمع تسمح بإعادة الاعتبار لقيمة المسؤولية في المجتمعات التي أدى النظام الإقطاعي إلى كبحها ."[100]

مفهوم الثقافة الوطنية في التخلص من الاستعمار تعمّق عند «فانون» لدرجة انه بات يتحدث في كتابه "بشرة سوداء و اقنعة بيضاء "* عكس ما كان يؤمن به قبل انضمامه للثورة الجزائرية، حيث كان يرفض الاعتراف بالقيم الزنجية و العالم الأسود ويؤمن ان ماضي أهالي السكان الأصليين انما هو ماضي الغرب الاستعماري.

والواقع ان انكار «فانون» سابقا لقيم الماضي كان دافعه ما يلي : ان ماضي المارتينلك الذي ينتمي اليه «فانون» و الذي يكتنفه الكثير من الاساطير و الخرافات المنحدرة من أصول افريقية لا يمكن لمفكر مثل "«فانون»" ان يجد فيه ما يشبع أفكاره لان الماضي هناك يتمثل في ماضي الرق الذي لم يحرره أهالي السكان الزنوج بل حرره "السيد الأبيض " فلم يتم هذا التحرر بالتالي – حسب «فانون»– بكفاح من اجل الحرية بل بفعل خارجي. والحقيقة هنا ان «فانون»قد تغيرت أفكاره في هذا الجانب في ضوء التجربة الجزائرية، و في ضوء ماعمد

---

[100] Roger Garaudy : L'Islam en occident, Cordoue capitale de l'esprit – Paris-L'Harmattan – 2000 – Page 113

* يقول «فانون»"اني لااريد ان اتغنى بالماضي على حساب حاضري و مستقبلي –لا اريد ان أكون ضحية خداع عالم اسود – ان حياتي لايجب ان تنخفض لتسجيل القيم الزنجية"

المؤرخون الاستعماريون الفرنسيون المتعرضون لتاريخ الجزائر القديم من محاولة تبيان ان عنصر الحضارة الحقيقي هو عنصر الاستعمار .

يقول «فانون»: "إني لا اريد ان اتغنى بالماضي على حساب حاضري ومستقبلي - لا اريد ان اكون ضحية خداع علم أسود - إن حياتي لا يجب أن تنخفض لتسجيل القيم الزنجية."

والملاحظ أن هذه النقطة تندرج ضمن التشويه الاستعماري للتاريخ الجزائري الذي انتابته ايديولوجية حاول الاستعمار الفرنسي بها اقتلاع تاريخ الامة من جدوره وذلك عن طريق ربطه بمسار التاريخ الاوروبي، موظفا كلما توفر له من وسائل لتحقيق الهدف ضمن مشروع استعماري يستخدم عنصر التاريخ الجزائري من خلال تأصيله والعودة به إلى العالم الروماني ليكون الاستعمار الفرنسي الوريث الشرعي لهذا التاريخ[101]

إننا نجد أن المؤرخين الغربيين عمدوا إلى محاولة اقتلاع شجرة التاريخ من جدورها فاعتبروا الفتح الاسلامي غزوا أدخل بلاد المغرب بما فيها الجزائر في ظلام دامس حتى أحضرت فرنسا الحضارة والازدهار والحريات.

وفي سياق نجاح هذا المخطط الاستعماري الخاص بتشويه الحقائق التاريخية، ساهم العديد من الضباط العسكريين ولفيف من رجال الدين والكتاب

[101] اسماعيل سامعي : " مجهود الاستعمار في تأصيل تاريخ الجزائر ، خلفية لمشروع الاستلاب الثقافي - المعيار - العدد 10- سبتمبر 2005 - ص 91

والباحثين الجامعيين بدراسات تكون مرجعا للإدارة الفرنسية في تنفيذ خطتها في هذا المجال.

والواقع أن عملية التشويه هذه تندرج في سياق منهج تهديم تاريخ الجزائر تم إعادة بنائه وفق مسار التاريخ الاوروبي.

وبتأسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين لتتظافر جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والأثرية وكتاب الدوريات العلمية وأساتذة التاريخ في جعل كتاب التاريخ الجزائري مطابقا لكتابات تاريخ الاستعمار، مضحين في ذلك بقيمة البحث وأمانته.

ولا بد من الاشارة إلى أن هؤلاء الذين تولوا تدوين التاريخ الجزائري وتقديم دراسات عنه ، إنما كان بعضهم مدفوعا لمصلحة شخصية كالتقريب من السلطة الفرنسية إذ جاءت كتاباتهم تعبيرا عن سياستها، وتنفيذا لمخططاتها، مبتعدة عن العلمية والموضوعية، فتناولوا قضايا عامة ذات طابع اقتصادي واجتماعي أظهروا من خلالها مميزات النظام الفرنسي والرسالة الحضارية لفرنسا في الجزائر وروجوا لأفكار الايديولوجية الاستعمارية [102]

لقد خصصت بعض الصحف عدة مقالات تبرز انجازات الاستعمار ونشرت صحيفة البرقية الجزائرية سلسلة من المقالات تبين فيها أن مهمة فرنسا هي

[102] المهدي البوبعبد اللي : " موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر" - مجلة الأصالة- الجزائر - العدد 14- عام 1973

احياء هذه البلاد من سباتها العميق بحيث يتعين على الفرنسي أن يُدخل إليها عادات العلم والتقدم وأن ينشر مبادئ الانسانية "لأن أهالي السكان الأصليين ليس بمقدورهم ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم" ولأنه "لا وجود لعرق أو أمة إنما هناك عرب قبائل مزابيين، كراغلة وشاوية ورجال خيم يعارضون فرنسا بدافع التعصب الديني".

ويبقى هذا التعصب الديني مميزا في كثير من المؤلفات التي تناولت بطل الجزائر الأمير عبد القادر، حيث لم يتوان معظمها عن الحط من دوره الوطني وجعله "شخصا متعصبا دينيا في البداية وصديقا لفرنسا في النهاية" ويقول عنه "إنه لم يكن بطل جنسية عربية في الجزائر لأنها لم توجد، ولم يكن سياسيا مجددا يهدف إلى ادخال الحضارة الاوروبية على مواطنيه الذين كانوا نصف برابرة، ولكنه كان مرابطا، طموحا بان يحل نفسه محل الاتراك"[103]

كما انتهجت ادارة الاحتلال في الجزائر أسلوب استخدام التاريخ لخدمة المصالح الاستعمارية، وكمثال على ذلك نذكر تلك الدراسات التي صدرت بمناسبة الذكرى المئوية من طرف مؤرخين استعماريين وظفوا التلاعب بحقائق التاريخ الجزائري وتزييفها في خدمة مصالحهم المتمثلة في القضاء قدر الامكان على الوجود الحضاري للمجتمع الجزائري وترسيخ وجودهم ترسيخا مطلقا بمختلف الأبعاد الحضارية والتاريخية والثقافية، ومن طرف الاساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال

[103] Paul Azan : L'Emir Abdelkader 1808-1883 – Hachette – 1925

هـذا العهـد كـ "جـورج ايفـر" الذي اهـتم بتـاريخ الاحـتلال و"سـتيفان غـزال" الذي تخصـص في تاريخ شـمال افريقيـا القـديم، و"مرسـيل ايميريـت" الذي اهـتم بالنـواحي الاقتصـادية والاجتماعيـة للأهـالي، و"شـارل أنـدري جوليـان" الذي تنـاول تاريخ شـمال افريقيا

كـما نـذكر عـلى سـبيل المثـال لا الحصـر بعـض المـؤرخين الاسـتعماريين أمثـال "ڤـزال"(GSELL)، اجتهـدوا في حجـب التـاريخ الجزائـري الحقيقـي وجعلـوه يختصـر في ثلاث اطروحات رئيسية تعود مكررة دوما في كتب المؤرخين الاستعماريين :

الأطروحة الأولى:

أ- "ڤزال" (GSELL) :

"الجزائـري معـدوم الصـفة البشـرية، وهـو لا يتطـور... البرابـرة هم مـن بـين سـكان سـواحل البحـر الأبـيض المتوسـط الأكـثر صـلابة والأكـثر عنـادا في وضـعيتهم الاجتماعية"(ترجمـة شخصـية طبـق الأصـل لعبـارات الكاتـب الفرنسـية الـتي أوردناهـا حرفيا بالهامش أسفله) [104]

[104] GSELL: in Histoire ancienne de l'Afrique du Nord - Ed.Hachette - P.244 : (L'Algérien est un sous-homme qui n'évolue pas ... Les berbères sont de tous les riverains de la Méditerranée les plus tenaces, les plus obstinés dans leur état social)

ب- ڤوتيي (Gautier) :

"يمثل المغاربي من بين الأجناس البيضاء المتوسطية بكل تأكيد، المتأخر الباقي بعيدا في الوراء ... ليس لهذا الجنس أية فردية ايجابية" (ترجمة شخصية طبق الأصل لعبارات الكاتب الفرنسية التي أوردناها حرفيا بالهامش أسفله) [105]

ج- "بورو" (Porot):

" أهالي السكان الأصليين الذين نادرا ما تتطور قشرتهم الدماغية هم أشخاص بدائيون، حياتهم التراجعية والغريزية تحكمها أساسا ادمغتهم المتوسطة" (ترجمة شخصية طبق الأصل لعبارات الكاتب الفرنسية التي أوردناها حرفيا بالهامش أسفله) [106]

اسطورة عدم قابلية الجزائري في التغيّر تشكل النماذج الأساسية للايديولجية الاستعمارية، ذهب فيها "بورو" - خلال انعقاد مؤتمر الأطباء العقليين وأطباء الأعصاب- إلى حد محاولة اسنادها "الصبغة العِلمِية".

هذا "التبرير العلمي" للاستعمار المتمثل في الادعاء بفقدان الاهالي للذكاء والفضول العلمي، والشخصية - وفقا لأطروحات "أنطوان بورو"، واضع أسس

[105] GAUTIER in « Passé de l'Afrique du Nord » (Payot) Page 77.
(Le Maghrébin parmi les races blanches méditerranéennes représente assurément le trainard resté loin en arrière ... Cette race n'a aucune individualité positive)

[106] POROT : in Congres des aliénistes et neurologues français à Bruxelles - 1935
(L'indigène nord-africain dont les activités supérieures et corticales sont peu évoluées est un être primitif dont la vie essentiellement instinctive est surtout réglée par son diencéphale)

مدرسة علم النفس الاستعماري في الجزائر - والتي اعتَبرَت الانسان الجزائري مختل التكوين العصبي والعضوي والدماغي، يتوافق والعقلية الاستعمارية المبنية على أساس الاستعلاء والتغلب ومحاولة اثبات وتأكيد ذلك تاريخيا.

وقد عارض الطبيب النفساني "فرانز فانون" هذا التوجه عند تعيينه عام 1953 طبيبا رئيسيا بمستشفى البليدة بالجزائر ، فحارب نظرية البدائية التي كان يقوم على أساسها علم النفس الاستعماري في الجزائر، حيث أرجع تلك الاضطرابات التي تظهر على بعض الجزائريين الخاضعين للعلاج النفسي إلى الوضعية الاستعمارية، وإلى مراحل محاولات تشويه الشخصية الوطنية للشعب الجزائري، معتبرا تلك النظرية المنحازة لتفوق الرجل الأوروبي، عنصرية بيولوجية تحولت إلى عنصرية ثقافية تتغذى من النظرة الاستعمارية الضيقة المبنية على الاستغلال والاستعباد.

ومما يذكر ان هذه النظرة انطبعت على الكثير من الدراسات السيكوسوسولوجية وعلى تصنيف الاجناس وغيرها، خدمة للعقلية الاستعمارية عن طريق توجيه العلوم الانسانية إلى وجهة توافق العقلية الاستعمارية والتي كانت مضطرة لإيجاد مبررات للاستعمار

يرى "فانون" في هذا السياق أن الإستعمار هو نفي للصفة الانسانية عن الشعوب المستعمَرة وتحويلها إلى أشياء: يقول فانون: " المستعمَر إنسان في خضم العملية التي يحرر بها نفسه" ، مضيفا أنه "لكي يمكن استعباد الناس من

الضروري صرفهم عن انسانيتهم من خلال اشاعة الحيرة والارتباك بينهم بصورة منظمة" [107]

و يرى «فانون» أنه بمثل هذه الادعاءات يسعى الاستعمار إلى طمس ثقافة الشعوب المستعمَرة بالتدرج وبشكل منظم ، كما أنه يبذل قصارى جهده من أجل أن يحمل الشعوب المستعمَرة على الاعتراف بتخلف ثقافتها وانحطاطها، مثمِّناً تمسك المجتمع الاصلي لمجاله الثقافي وإحاطته "بالأسيجة والأوتاد"، حيث أنه نوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقاء في كثير من الوجوه.

كما يرى «فانون» ان ردة فعل الجماهير تجاه الهجوم الضاري الذي تتعرض له ثقافته القومية من قبل المحتل ينقلب إلى تمسك مبالغ فيه بالعادات والتقاليد مما يثير خنق المستعمِر. يقول «فانون»:" يرى المستعمِر في الاستمرار على الأشكال الثقافية التي يستنكرها مظهرا قوميا عليه أن يحاربه" ، ونتيجة هذا الهجوم الضاري من المستعمِر لا يحصل تجديد للثقافة القومية أو للعلاقات داخلها وإنما مجرد انكماش للحفاظ على النواة، وذلك شبيه بما تفعله في الطبيعة بعض الكائنات الحية حيث عند وجودها في ظروف صعبة تبدو وكأنها فاقدة للحياة .

صحيح أن موقف الرفض المطلق الذي يقفه الشعب من الثقافة الاستعمارية وعدم تمييزها بينما هو سلبي منها وما هو ايجابي فيها يشكل عنصر قوة في المعركة من أجل صيانة الشخصية الوطنية.

---

[107] بعلون حدة : "أنتروبولوجيا التحرر بين فرانز «فانون»وهربرت ماركيوز" - مقال بمجلة المعارف - جامعة البويرة - الجزائر- ص97

لكـن ذلك لا يمنـع مـن وجـود معضـلات في هـذه الثقافـة ، تتحـول إلى عنـاصر ايجابية في مقاومة الاستعمار ، نظرا لوجود قاعدة ثقافية وطنية يستند إليها

رأى الاسـتعمار في تمسـك الشـعب الجزائـري بعاداتـه وتقاليـده قـيما تتعلـق بالمـأكل والملبس والممارسـات الشـعبية قِيمـا متمثلة في التآخي والـتراحم والانسـجام بـين الافـراد ، فـكان ذلك يتعـارض ومخططاتـه الاسـتيطانية، لأن هـذا التمسّـك سـيحول لا مـحالة دون ذوبان السـكان الأصـليين في الحضـارة الغربيـة الوافـدة. ومـن هنـا كان ايمـان المحتـلِّ كبـيرا بفكـرة أن يكـون وجـوده بهـذه المسـتعمَرة مرهـونا بتفكيـك البنيـة الاجتماعيـة اعتمادا على الترويج لطقوسه الأجنبية الدخيلة في الاوساط الشعبية الجزائرية.[108]

الأطروحة الثانية :

أ- شارل أندري جوليان (Charles André Julien):

"الجزائري عـاجز عـلى حـكم نفسـه بنفسـه ... كـلمـا عـدنا لتـاريخ شـمال إفريقيـا نلاحـظ أن الامـور تسـير وكأنـه يعـاني مـن عجـز وراثي في الحصـول عـلى الاسـتقلال" (ترجمـة شخصـية طبـق الأصـل لعبـارات الكاتـب الفرنسـية الـتي أوردناهـا حرفيـا بالهـامش أسفله) [109]

[108] ايفون تيران : " المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمَرة" - دار القصبة - الجزائر - 2007 - ص 21

[109] Charles André Julien : «L'Afrique du Nord en marche » - Ed. Juliard- Paris - 1972 - page 73 : (L'Algérien est incapable de se gouverner seul ... Aussi loin que l'on remonte dans l'histoire de l'Afrique du Nord, on constate que tout se passe comme si elle était frappée d'une inaptitude congénitale à l'indépendance)

ب- كامبس (CAMPS) :

"العجز التاريخي لشمال افريقيا في تحقيق وحدته لا يعود تاريخه للامس...فسواء كان "بلد بربر" أو "بلد مغاربيين" أو "شمال افريقيين" فهو بلد يبدو مقسما منذ الالفية الثالثة" (ترجمة شخصية طبق الأصل لعبارات الكاتب الفرنسية التي أوردناها حرفيا بالهامش أسفله) [110]

ج- ڤوتيي (Gautier) :

"كلما عدنا للماضي، شهدنا تسلسلا متواصلا للسيطرة الاجنبية. فقد خَلَفَ الفرنسيون الاتراك الذين خلفوا العرب الذين خلفوا البيزنطيين الذين خلفوا الوندال الذين خلفوا الروم الذين خلفوا القرطاجيين. سجِّلوا أن الغازي - أيا كان - يبقى السيد الحاكم إلى أن يُطرد من الغازي الجديد ، خَلَفِه. لم يتمكن السكان الأصليون أبدا من طرد أسيادهم." (ترجمة شخصية طبق الأصل لعبارات الكاتب الفرنسية التي أوردناها حرفيا بالهامش أسفله) [111]

---

[110] CAMPS in "Monuments et rites funéraires" (Ed. des Arts et Metiers) - Page72

(L'incapacité historique de l'Afrique du Nord à réaliser son unité ne date pas d'hier ... Berbèrie, Maghreb ou Afrique du Nord, ce pays parait divisé dès le 3ème millénaire)

[111] Gautier in « Passé de l'Afrique du Nord » op.cit - Page 85 : (Aussi loin que nous remontons dans le passé, nous voyons une cascade ininterrompue de dominations étrangères: Les Français ont succédé aux turcs qui avaient succédé aux Romains qui avaient succédé aux Carthaginois. Et notez que le conquérant, quel

في تحليل مختصر غريب يستبعد "كامبس" ويحجب قرونا من التاريخ الجزائري. من جهته يعرض "قوتيي " أطروحة جزائر مستسلمة، فاترة الشعور، متقبلة للاستعمارات المتعاقبة .

كُتب هذا النص عام 1952 . عشر سنوات بعد ذلك نجمت المعركة السياسية العسكرية التي قادها الشعب الجزائري إلى تكوين دولة وطنية جزائرية عصرية (محطِّمةً أساطير الجزائري "غير القابل للتغيير"، "المتقبل للاستعمار")، والتي شكلت الحجج المتناقلة في التاريخ الاستعماري. انها - مما لا جدال فيه - اطروحات عنصرية بأتَمّ معناها. فلا وجود للقوانين السياسية والاجتماعية لأن الساكن الاصلي "أُسقِطت عنه الصفة البشرية "* فهو "عديم القشرة الدماغية، منقاد بنشاط الدّماغ البيئي"[112].

يرُدّ «فانون» عن هذا الادعاء بقوله : " الاستعمار هو الذي يسلب الانسان المستعمَر شخصيته محاولا أن يجعله كائنا طفوليا منبوذا مسلوب الانسانية وبلا

---

qu'il soit, reste maître du Maghreb jusqu'à ce qu'il soit expulsé par le conquérant nouveau, son successeur. Jamais les indigènes n'ont réussi à expulser leur maître »

*يقول "جان بول سارتر" في مقدمة كتاب فرانز فانون"معذبو الارض":"إن القانون السياسي الاجتماعي لا وجود له بالجزائر، إن أهالي السكان الاصليين مخلوعة عليهم الصفة البشرية وليس موجّه لهم التصريح الدولي بحقوق الانسان"

[112]الهادي بكوش : " الاستعمار والمقاومة بين الامس واليوم" - أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي - منشورات وزارة المجاهدين - الجزائر 2007 - ص 34

ثقافة من اجل تكريس تبعيته. وبالتالي فسلوك الرجل الشمال الافريقي ليس نتيجة نظام عصبي وراثي ولكنه نتيجة وضع استعماري"[113]

يقول مانوني من جهته : "أينما أسس الأوروبيون مستعمرات يمكن أن نقول بان شعوب هذه المستعمرات كانت تنتظرهم بل ترغب في حضورهم " . أو كما يقول:" جميع الشعوب غير مؤهلة لان تكون مستعمَرة - المؤهلة هي تلك التي تحس بالحاجة الى ذلك". [114]

وصْف مانوني للمواطن المستعمَر ليس خطابا مبنيا على المساواة بين البشر . انه يجعل من المستعمَر مصدر الشر. انه يعلن ان السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الاخلاق إلى أنفسهم .

يذهب "مانوني" بهذا الأسلوب إلى أقصى عبارات الازدراء فيُجرِّد المستعمَر حتى من إنسانيته ليجعله مثابة حيوان. فاللغة التي يستعملها عندما يتكلم عن المستعمَر هي لغة فيها وصف للحيوانات * : " قطعان الأهالي ... تمل

---

[113] Frantz Fanon : « A propos d'un plaidoyer » in « pour la révolution africaine » - Paris – La Découverte – 2001 - page 27

[114] **Octave Mannoni** : « Le racisme revisité » - Paris Denoël 1997 - Page63

* يسرد «فانون»في الكثير من مؤلفاته تجربته كطبيب نفسي- في البليدة - الجزائر ، فيقدم نماذج عن الاكتشافات التي صدمته فضاعتها - "معاملة الاستعمار -كما يقول في كتابه "معذبو الأرض" تنزع من المعذب (Le damné) كرامته الشخصية وتنزله إلى أدنى درجات الحيوانية"

الجماهير... هذه الجماهير المهسترة ... هذا القطيع الذي لا رأس له... هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو أن لهم أهلا... هذا الكسول المستلقى تحت الشمس..."

يكتب «فانون» أن "مانوني" لا يولي أية مكانة للرغبة في تحرير المستعمَرين ويعرب عن تأثره من النظرة التي يحملها مانوني حيال مجتمع مدغشقر أين كان يمارس مهنة استاذ للفلسفة منذ 20 سنة.

جملة "مانوني" التي يقول فيها :"يفقد ساكن مدغشقر أمنه في سياق لا يمارس فيه الرجل الابيض المكانة التي يحتلها"، تجعل «فانون»يهتز من مقعده . "كنا ننتظر - يقول «فانون»- أن يشرح لنا "مانوني" الوضعية الاستعمارية. إنه يتكلم ويفكر انطلاقا من نموذج الثقافة الغربية ومن وضعيته الذاتية كرجل أبيض يعيش وضعية استعمارية"[115]

يحتج «فانون» عما يبديه "مانوني" من نظرة بخصوص الوضعية الاستعمارية " إن السيد مانوني - لم يبحث عما يحس به الرجل المستعمَر من مآس مقابل الرجل الأبيض"[116]

يؤدي "فانون" هكذا دورا مركزيا في دحض أطروحات علم النفس الاستعماري الذي مثل الفرنسي- "أوكتاف مانوني" أبرز أقطابه ، حيث حثّ

[115] وارد بكتاب أليس شاركي : "فرانز فانون" - المرجع السابق - الطبعة الفرنسية - ص 107

[116] لعوج مبروك : الطب العقلي في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2012 ص 69 .

"فانون" على النظر إلى ظاهرة الاحتلال من خارج المنظومة الاستعمارية ودحض أطروحة " الأبوية الاستعمارية" التي نادى بها "مانوني"، وفضح «فانون» كيف حاول علم النفس الاستعماري قلب جدلية الجلاد والضحية بين المستعمِر والمستعمَر

كما يرى «فانون» أن الاستعمار يبتدع كل العبارات التي تحط من قيمة الرجل المستعمَر ويرددها مازحا، قاذفا الشعب كله بأدنى درجات عبارات التحقير والازدراء

وفي تحليلاته السوسيولوجية يرى أن الاتهام بهذا "الكسل" مثلا لا يمس العامل الزراعي أو ساكن البيت القصديري فحسب، لكنه يمس أيضا الأستاذ والمهندس أو الطبيب، والذين يؤدون نفس ساعات العمل كغيرهم من زملائهم المستعمِرين، غير أن المواطن الأصلي الخاضع للاستعمار – أيا كانت وظيفته وأيا كانت درجة حماسه في تأدية عمله - لن يكون مع ذلك إلاّ "كسولا" دائما وليس غير.

وتبزغ البراهين الاستدلالية العنصرية في وجه المثقف الجزائري بسهولة خاصة، فيقال مثلا : ((إنه على ماهو عليه من العلم و الثقافة كطبيب، فهذا لا ينقص شيئا من كونه عربيا قبل كل شيء ، فلنجرده من طبيعته الاصلية، وسنراه بغد ذلك ملك ايدينا)) [117]

[117] فرانز فانون: لأجل الثورة الافريقية" – تر. محمد الميلي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – ط 2 – الجزائر (دت) ص 85

ويكتب الطبيب انطوان بورو أن" لرجل شمال افريقيا منزلة دون الرجل الأبيض الغربي ... إنها خاصية مزاجية غريزية - فهو مزاجي القلب، ليس له تفكير منطقي ..."[118]

يندد الطبيب "فرانز فانون" بهذه الافكار الهدّامة ويرد عليها ويبين على وجه الخصوص أن سلوك الرجل بشمال افريقيا ليس نتيجة "نظام عصبيّ"، أو "خاصيةمزاجية غريزية"، ولكن نتيجة وضع تعاملت فيه الجيوش الاستعمارية بلا شرف ولا إنسانية، حيث ابتكرت أسوَأ انواع الجرائم في حق المدنيين للنيل من شخصيتهم وإضعافهم. فكانت الحرب شرسة على دينهم ولغتهم وعناصر وحدتهم الاجتماعية.

وبذلك يصنع التاريخ من «فانون» ليكون احد حفّاري قبور المقاربات الايديولوجية حيث يفسر بوضوح أن طبا عقليا مبنيا على أفكار عنصرية لا مجال لوجوده لأن "النموذج النفسي المرضي الغربي المتمحور حول النزعة البدائية ليس غاية في حد ذاته في الطب العقلي"

يحلل «فانون»مثل هذه المواقف مبينا:

- أنه عندما يصف المستعمِر في كلامه أن أهالي السكان الاصليين حمقى فهو يقترح بأن هذه الحماقة تستدعي حمايتهم وانه من مصلحتهم إقصاءهم من المسؤوليات لتبقى هذه المسؤوليات حصرا بين يديه هو

[118] بورو : في مؤتمر الأطباء العقليين وأطباء الأعصاب ببروكسيل - عام 1935

- أنه عندما يضيف بأنهم من دون تفكير منطقي " فهو يبرر حتمية السيطرة عليهم واعتماد القسوة حيالهم."
- أنه عندما يتحدث عن عدم اهتمامهم بالحياة الرفيهة أو بالتقنيات أو بالتقدم، وقبولهم الغريب في التعايش مع الفقر والبؤس، فلماذا يهتم المستعمِر إذن بحرمانهم من هذه الفلسفة ، ولماذا يتعين ادراجهم ضمن ملابسات الحضارة الأوروبية؟
- أنه، عندما يتعرض لمبدأ "كرم الضيافة " و"حسن الاستقبال" الذي يوليه أهالي السكان الأصليين للأجانب من الاوروبيين المقيمين بالجزائر فذلك ليس سوى غباء وانعدام المسؤولية وعدم ادراك مبادئ التوفير والاقتصاد.

وهكذا تتفتت الواحدة تلو الاخرى كل الصفات التي تجعل من المستعمَر انساناً.

البـــاب الثالـث

الفصل الأول:

جدلية العنف الثوري الراديكالي في كتابات «فانون»

مع نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين لم يكن هناك أي قطر افريقي يذكر إلّا و قد نال حظه من الاستعمار الأوروبي، مما أدى الى انسلاخ الأفارقة تماما عن فكرهم التقليدي الذي ألفوه منذ مئات السنين .

و الواقع أن تأثيرات المد الأوروبي في القارة الافريقية لم تكن وليدة مطلع القرن العشرين انما تمتد الى قبل ذلك بقرون عدة حيث بدأت عملية الانسلاخ الافريقي عن ثرات الفكر القديم منذ عهد الكشوف الجغرافية و اكتشاف البخار والرحلات الأطلنطية المثلثة التي شحنت على متنها الالاف من الأفارقة كعبيد للعمل في مزارع القطن و القصب في العالم الجديد ، و هو ما أدى الى ميلاد فكر افريقي جديد يحاول بكل ما أوتي من معرفة أن يدافع على الانسان الافريقي ويبرز انجازاته و حضارته

و قد بدأ هذا الفكر ينمو و يكبر عبر عشرات السنين حتى وصل الى مرحلة النضج و التنوع في منتصف القرن العشرين عقب الحرب العالمية الثانية.

في تلك الفترة خرجت التيارات العنصرية السوداء المتمثلة في حركة الوعي الأسود وانشغل معظم المفكرين الأفارقة بقضية التحرر من الاستعمار ، كما انشغل بعض المفكرين السود بتحرير السود من الحكم العنصري في الدول الغربية.

سادت في افريقيا أفكار من نوعية تصفية الاستعمار القديم وتحقيق الاستقلال والتحرر الوطني ومكافحة الاستعمار الجديد وتحقيق الاندماج الوطني في الدول الوليدة.

في ظل مخاض ولادة الدولة الافريقية بكل تفاصيلها بدى من محاربة الاستعمار القديم الإلتفاف على مطالبات التحرر من خلال مفردات الاستعمار الجديد عن طريق تجنيد وتدجين طبقة جديدة من البورجوازية تخدم مصالح الدول الأوروبية المستعمَرة في الدول الافريقية الوليدة.

وفي ظل هذا التنافس والاحتدام بين التيارات الفكرية الافريقية نشأ مفكر افريقي في الدياسبورا و هو "فرانز فانون" متميزا بالمرونة والتنقل بين المدارس الفكرية الافريقية المتعددة، واضعا نصب عينيه قضية تحرير افريقيا من الاستعمار ومتسلحا بسلاح التحليل العلمي في علاج الظواهر الافريقية الذي قاده في النهاية الى تشخيص علة المستعمرات الافريقية و التي أوجزها في ضرورة تصفية الاستعمار بشكل نهائي وقطعي حتى تتمكن الدول الافريقية من بناء دولتها الحديثة دون أية تدخلات من قبل الدول الاستعمارية أو القوى الكبرى في قارة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من أن «فرانز فانون» لم يعش سوى 36 سنة إلا انه كان من المفكرين الأفارقة المميزين الذين مازالت أفكاره تُروَّج إلى اليوم في كثير من الاوساط الافريقية وبخاصة منها الأفكار المتعلقة بضرورة محاربة الاستعمار الجديد التي بدت ملامحه عشية استقلال الدول الافريقية ولا تزال*

* يتسارع الطلبة عبر العالم على الاستحواذ على مؤلفات فانون. فثمة "نوادي فرانز فانون" نشطة وموجودة عبر مناطق مختلفة من العالم، بجزر الانتي وبايران وبافريقيا الجنوبية ... إن الشغف في الاطلاع

و السؤال المطروح هو : ما تأثير التجربة النضالية الجزائرية في فكر «فانون» والمتميزة أساسا بانتهاجها الكفاح المسلح فيما بدى من كتاباته في مستواه النضالي من حثّه على مواصلة أساليب العنف بالجزائر والحاجة إلى ذلك ونقل تجربة أساليب العنف هذه للساحة الافريقية المستعمَرة التي زارها في اطار المهام التي عهدت له الثورة الجزائرية بها .

وبالفعل فقد بدأ «فانون»نشاطه الحثيث بافريقيا بوصفه ممثلا للجزائر في عديد المؤتمرات منها "المؤتمر الافريقي الآسيوي في عاصمة غينيا وكناكري من 12-15 أفريل 1960"، فكان نائبا لرئيس المؤتمر ، مطالبا هذا المؤتمر بتأييد أقوى للثورة الجزائرية وبالاعتراف بالحكومة المؤقتة وملقيا فيه على فرنسا وابلا من الانتقادات شديدة اللهجة.[119]

ثم مشاركته في مؤتمر "جميع شعوب إفريقيا" الثاني بأديس أبابا، في 24 جوان 1960 خصص فيه المؤتمر النقطتين الثانية والثالثة من قراراته للقضية الجزائرية. وبهذا تنجح الدبلوماسية الجزائرية في افريقيا بفضل «فانون» وقدرته على

على كتاباته عميق بالجامعات الأميريكية. وهناك سينيمائيون أنجلوساكسون كرسوا له أفلاما وهناك علماء فلاسفة أنجزوا محاولات بيبليوغرافية

[119] ع. مقلاتي: البعد الإفريقي للثورة الجزائرية ودور الجزائر في تحرير إفريقيا الشروق الجزائر 2009، ص233.

الاقناع، حيث كسب معظم زعماء إفريقيا من خلال مقالاته النارية وخطاباته المؤثرة دفعا قويا من افريقيا لينتقل إلى الرأي العام العالمي والهيئات الدولية.*

وقد أتيح لـ "فانون" خلال قيامه بالمهام السياسية والاتصالات الدبلومات التي أسندت اليه وأثناء مساهمته في تحرير مجلة "المجاهد" أن يلمس عن كثب مدى ما وصل اليه صدى الثورة الجزائرية الى محيط العالم الثالث و ظهر على ضوء التجربة التي عاشها «فانون»أن وسيلة التفاوض مع المستعمِر لا أثر لها ما لم تستند الى قوة كفاح مسلح حقيقي .

يصف «فانون» العنف كونه "قوة تطهيرية تحرر الشباب المقهور من عقدة النقص واليأس والعجز عن الفعل فتشدّ عزائمهم وتردّ لهم احترام الذات"[120]

ومما لا شك فيه، أنّ هذه القراءة للعنف في الجزائر ولمبدأ الاستشهاد فيها، تطرح مشكلات عديدة متعلقة بمفهوم الثورة، وبمرجعياتها، وايديولوجيتها، وطبيعة الفاعلين التاريخيين فيها، وهي تشكل قراءة أولية لمنزلة الاعتراف في فلسفة «فرانز

*كان عام 1960 عام افريقيا، حاولت فيه الحكومة المؤقتة محاصرة الدبلوماسية الفرنسية وتوسيع نشاطها نحو افريقيا معتمدة على فرانز فانون. فقد شنت الدبلوماسية الجزائرية هجوما واسعا في القارة السمراء. فكان ذلك الهجوم بحاجة إلى قائد للإشراف عليه والمشاركة في تنفيذه، فوجدته الحكومة المؤقتة في الشخصية الصلبة القوية لفرانز فانون، ذات الشجاعة والإصرار والبلاغة.

[120] فرانز «فانون»: " معذبو الأرض" - المرجع السابق ص 76

فانون» في تقديرنا كمدخلٍ مناسبٍ لدراسة موضوع العنف الذي كرّس له «فانون»جهدا كبيرا ومكانة واضحة في مختلف أعماله.

لعل أهم مرحلة بلغها «فانون» وهو على فراش الموت هي دون جدال تأليفه لكتاب "معذبو الأرض" وهي مرحلة تجسدت بإشادته باستخدام العنف ضد المستعمِر باعتبار ذلك الطريق الوحيد الأوحد لبلوغ الهدف المرجو.

في هذا الكتاب يقوم "فانون" بتحليل مفهوم الهوية والاعتراف بها ويقدم طرحا جديدا لموضوع العنف. فهو لا يرى في العنف الثوري مجرد عنف مضاد للعنف الاستعماري الهمجي -كما يظن مناهضو العنف - بل له وظيفة تحررية تقوم على الاعتراف بالهوية وبالثقافات التي عمل الاستعمار على محوها والتقليل من شأنها، ومن ثم إحيائها.

فالعنف - وفقا لـ"فانون" له وظيفة اجتماعية ونفسية تتعلق بعودة الوعي واكتشاف الهوية يصعب تصور التحرر من دونها.

فقد حرص «فانون» في هذا الكتاب على شرعية وحتمية المقاومة المسلحة، وكان كتابه كله مناداة بمبادئ انتهاج منهج العنف الشامل والمطلق ضد المستعمر والتصعيد العملياتي من أجل الوصول إلى نقطة اللاعودة التي تمثل أعمال القمع الاستعماري.

و الواقع أنه " اذا كان سارتر هو صانع أسطورة المثقف الملتزم بدون منازع فان تلميذه «فانون»هو الذي جسد تلك الأسطورة في ميدان التطبيق العملي المنشق والثائر دوما ضد النظام القائم ".[121]

في المقدمة التي وضعها "جان بول سارتر" لكتاب "معذبو الأرض" أهاب بالأوروبيين أن يقرأوه " إقرأوه – أدخلوا فيه".

و مؤيدا لـ "فانون" تحريضه اعتماد العنف من أجل الحرية يكتب "جان بول سارتر" في نفس المقدمة لكتاب «فانون»: " ستستفيدون من قراءة "فانون": سوف يوضح لكم «فانون» توضيحا كاملا ان هذا العنف ليس زوبعة مخيفة و لا هو تيقظ لغرائز وحشية بل و لا هو ثمرة حقد".

و الحقيقة ان الشك كان يداخل نفوس كثير من أبناء الشعب الجزائري حينما كانوا يتساءلون ما اذا كان في الامكان حقيقة مقاومة اعتداءات الغازي المحتل كمّاً وكيفاً .

يقول "جان بول سارتر" في مقدمته لكتاب «فانون»"معذبو الأرض":"عندما لا يجد الشعب من ملجإ سوى خيار الموت ، عندما لا يستلم مضطهدوه سوى هدية الأسى ... فما الذي يبقى له من فقدانه يا ترى؟"[122]

---

[121] رشيد خطاب " الدعم العالمي للثورة الجزائرية - دار الخطاب للطباعة والنشر - الجزائر 2013 - ص144"

[122] جان بول سارتر في مقدمة كتاب "معذبو الارض" - المرجع السابق - ص 16

كان سارتر في هذه المقدمة أكثر صراحة في الدفاع عن العنف المستخدم من قبل المقاتلين الجزائريين لاسترجاع كرامتهم وحريتهم المسلوبة، حيث أعلن تضامنه الصريح مع جيش التحرير الوطني، ونددبشدة ومن جديد بوحشية القوات العسكرية والفرنسية وعاتب الرأي العام الفرنسي عن سياسية السكوت والصمت على هذه الأعمال الاجرامية واللاانسانية واللاأخلاقية واللاحضارية. وهذا يوضح لنا العلاقة المشتركة بين كل من "سارتر" و"فانون"

يقول «فانون» في كتابه "معذبو الأرض ": " تعمد السلطات الى اتخاذ اجراءات لإظهار قوتها فتقتل زعيما أو زعيمين و تنظم استعراضات عسكرية وتقوم بمناورات و تطلق طائرتها في السماء ... ان الشعب الذي ظل المستعمِر يؤكد أنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة ، اتخذ قراره على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة ، و بالتالي فان الاستعمار قد دله على الطريق التي يجب أن تكون طريقته ان أراد أن يتحرر... فإذا بالخاضع للاستعمار يصبح هو من يؤكد أن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة"

و يقول بنفس الكتاب : "محو الاستعمار حدث عنيف لا يمكن ان يكون ثمرة تفاهم ودي... المستعمِر هو سبب العنف، وهو خالقه، وكل عنف يصدر عن أهل البلاد ومن حركته الثورية - مهما بلغت ذروته - هو رد فعل على العنف الأصلي" [123]

[123] معذبو الأرض – المرجع السابق – ص 69

كما يقول : "في المستعمرات وسيلة التواصل بين المستعمِر والسكان الأصليين هو الشرطي والدركي وبالتالي هي لغة عنف صرف"

إن الفكرة الأساسية التي يدور عليها كتاب «فانون»"معذبو الأرض هي أن العنف هو السبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار.

لقد تمكن «فانون» من خلال احتكاكه بالثورة الجزائرية من مشاهدة أنواع الضغط الجسدي و النفسي والإحباطات المتكررة التي أصبحت تواجه الجزائري، كما عاين موجات العنف و أبشع طرق التعذيب السائدة. لذلك، وفي ندائه إلى ما أسماه بـ"عنف المستضعفين الساعين إلى حريتهم" لا ينسى أن يتشهد بما كسبه من خبرة في الجزائر، مشيرا إلى أن العنف الممارس عليه منذ زمان يطيح بشخصيته ويخرب مجتمعه، فيقول:" الإنسان يتحرر في العنف وبالعنف. ففي الجزائر يكاد كل الرجال الذين دعوا إلى الكفاح الوطني محكوم عليهم بالإعدام"، ويخصص فصلا كاملا في كتابه "معذبو الأرض" بعنوان "من الاندفاع إلى الاجرام لدى اهل شمال إفريقيا إلى حرب التحرير الوطني". حرر "فانون" فيما بين ديسمبر1957 و جانفي 1958 نصا طويلا حول المثقفين اليساريين الفرنسيين بخصوص موقفهم من التعذيب في الجزائر[124].

[124] L'Algérie face aux tortionnaires français - El Moudjadid - n° 10 - Septembre 1957

يقول جان بول سارتر في هذا الشأن : "ان الفرنسيين يكتشفون في غمرة هولهم هذه الحقيقة الرهيبة ، اذا لم يكن هناك ما يحمي أمة من نفسها ، لا ماضٍ عريق و لا رصد من الامانة و لا قوانينها الخاصة بها و اذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا الى جلادين ، فذلك لأن الظرف وحده الذي يقرر ، فحسب الظرف يستطيع الفرد في أي مكان و في أي زمان أن يتحول الى ضحية أو الى جلّاد. "[125]

حين اعلنت جبهة التحرير الوطني في منشور شهير لها، أن الاستعمار لا يرفع يده إلا إذا جعلتَ السكين في عنقه، لم يجد أي جزائري صادق أن هذه الالفاظ عنيفة. لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان الجزائريين ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من أن الاستعمار ليس آلة مفكرة، وليس جسما مزودا بعقل، وإنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى

في رؤيته الاعتماد على لغة القوة هذه، اتجه «فانون»على أكثر الطبقات الاجتماعية التي تعرضت للعنف و الاستغلال في الجزائر متمثلة في طبقة الفلاحين -كما يسميها "فانون".

و الفلاح - في نظر «فانون»- هو الثوري الوحيد الذي يمكنه أن يحمل لواء العنف في معركته الضارية لتحقيق التحرير. "يجب منح الأفضلية لهذه الطبقة وإعطاء قيمة لها في حرب التحرير"، وهي التي تقود الثورة على الرغم من حرمانها

[125] جان بول سارار "عارنا في الجزائر" دار القومية للطباعة والنشر - مصر - ص43

وقهرها بسبب انتزاع أراضيها منها. كما أن الفلاح هو العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين افراد الجماعة وعلى ارتباطها ببعض ارتباطا قويا[126]

يقول «فانون»: "ان الفلاح امرؤ ليس عنده حل وسط ، و لا مجال عنده لتسوية ، و القوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله."

لقد انطلق «فانون»في تبرير هذا من فكرة ان الفلاح هو أكثر الناس معرفة بمعنى الأرض، وهو سلاح الامة إذا تم استخدامه، وفي نفس الوقت مرض الأمّة إذا تم حصاره، إضافة إلى طبقة البروليتايا إذ فيها من الطاقة ما يشعل الثورة ويقودها، وفيها من الاضطهاد والتهميش ما يكفي لتكون شعلة للثورة

يصف «فانون»احتضان الفلاحين لعناصر الثورة بصورة عفوية تنم عما يكتنف نفوس سكان الريف من الحنان وكرم الضيافة والتعاطف البليغ *

---

[126] محمد تقية : "الجزائرية" - دار القصبة والنشر - الجزائر - ص 169

* يقدم «فانون»في الفصل الثالث من كتابه "معذبو الارض" عرضا واسعا عن خصائص الفلاح الجزائري ومميزات شخصية رجال البادية في الجزائر مبرزا ما وصلت إليه طبقة الفلاحين فيها من وعي قومي عميق فيقول :"يغطي الفلاح بجلبابه البدلة العسكرية للسياسي المدني بعطف وحنان" (...) ويستمع الرجل السياسي للفلاح فيكتشف أن هذا الأخير أقرب إلى المشاكل اليومية وإلى المعاناة ومواجهة صعاب الحياة الاستعمارية وعواصفها بنفس منضبطة وخلق رفيع على خلاف ما يسمعه من أساطير المدينة وروادها.

و ما يحس به الفلاح من ثقة جديدة ثورية انما ينبع من هذا الوعي :"اذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمِر ، فلن تخيفني بعد الان نظرته ، لن يجمدني صوته – لن أضطرب أمامه . لن أعبأ به . لن يربكني وجوده بل إنني منذ الان أعد له من الكمائن ما لا يجد لنفسه مخرجا غير الهرب "[127]

يرى المستعمَر الذي باتت تتميز شخصيته بالشجاعة والإقدام أن الاستعمار قد سيطر عليه و لكن لم يطوعه ... انه ينتظر بفارغ الصبر أن يغفل المستعمِر قليلا فينقضّ عليه – هو مترقب دائما . " رجال الدرك و الابواب التي تصبح في الثكنات و الاستعراضات العسكرية و العلم المرفوع في الفضاء لا تعني عند المستعمَر "لا تتحرك " بل تعني "هيأ ضربتك تهيئة جيدة "[128]

يتبدل سلوك هذه الفئة التي كانت منقسمة الى طوائف وهمية أثناء كفاح التحرير فتنظم نفسها و تخلق وسط الدم و الدموع مهمات واقعية كبرى كتقديم الطعام للمجاهدين وأعمال الحراسة و المراقبة والنهوض بأعباء زوج قتل أو سجن – فالنفس تنقبض وتتقصّد وتفرغ شحناتها فنرى انفعالية الفلاح تنطلق في أنواع الرقص حيث يجتمع الرجال و النساء و يقومون بحركات تمثيلية كهز الرأس وانحناء

انتقال رجال البادية من الانفاع الديني البحث سرعان ما يتغير بالنظر إلى قابلية شخصيتهم، عند لقائهم مع رجال السياسة والتحدث معهم، " من وطنية دينية إلى وعي اجتماعي وسياسي" - فرانز «فانون»- "معذبو الارض" - الفصل الثالث : "عن الوعي القومي" ص 79

[127] «فانون»: معذبو الارض - المرجع السابق - ص 55

[128] «فانون»: معذبو الارض - المرجع السابق - ص 105

الظهر و اندفاع الجسم كله الى الوراء و ذلك سعيا الى جعل العدوانية المكبوحة تنفجر، و الى أن تخفف النفس من اثقالها.

لا يمكن في هذه اللحظات المليئة بالصراع أن نستكشف نمطا موحدا لشخصية الفلاح الجزائري – و انما سنجد أن هذه الشخصية قد سمحت لنفسها بالقيام بأي تصرف محتمل الوقوع من أجل بلوغ الهدف النهائي.

يقول «فانون»: " ثمة طاقات كثيرة تخرجها الشخصية الجزائرية الى الوجود تتمثل في تلك التصرفات التلقائية التي تمسك بها الجزائري بحكم الغريزة لمساندة العناصر الثورية ... تصرفات بسيطة و بعيدة عن أي تأثير أجنبي و استجابات مكيفة مع المواقف الاجتماعية"

والحقيقة أن «فانون» لم يغفل عن ذكر مآثر الفلاحين في الجزائر – فهو يقول - متأثرا دائما بالتجربة الجزائرية. ومتوجها هذه المرة في كتاباته وتدخلاته في بعض البلدان الافريقية التي بدأت تفكر في استلهام التجربة الجزائرية " ان دعاية الأحزاب السياسية لا تولي اهمية لطبقة الفلاحين ، مع أن هذه الطبقة في البلاد المستعمَرة هي الطبقة الثورية الوحيدة "*

*ان الوصف الذي قدمه «فانون» عن احتضان الفلاحين للعناصر الوطنية في الريف وصف دقيق يستعرض تلك المقومات الأساسية التي تتشكل منها الشخصية الجزائرية و التي عرضناها في الفصول السابقة بالتفصيل .

فضلا عن عيشه البعيد عن التأثير الفرنسي و احتفاظه على مقومات شخصيته الأصلية ، مما أهله لأن يَلْمَس حقيقة الحرية و يضطلع بمهمته في حرب لا هوادة فيها، كان «فانون» يدرك عند عرضه لمثال الفلاح الجزائري ان تصرف هذا الفلاح قد نشأ نتيجة عوامل تاريخية و ثقافية تطبعها الشهامة و الانفة والشجاعة.

"ان المضطهدين الساخطين الحاقدين على المحتل لا يستطيعون وحدهم أن يتحولوا إلى حركة تحرير حقيقية إلا إذا تم ذلك باللقاء مع الجماهير الريفية التي تشكل خامة عذراء قابلة لاستخدام العنف، لأنها لم تتلوث بالثقافة الاستعمارية على خلاف طبقة المثقفين الذي صب «فانون» جامّ غضبه عليهم كون "المستعمِر قد خرّب عقولهم بالثقافة الغربية والروح الفردية"

لذلك إذا كان «فانون»يمجد طبقة الفلاحين في الجزائر والذين تعمل العادات والمعتقدات والتقاليد عملها في جعلهم أكثر قابلية للعنف الثوري ، فهو لم يتردد في التنديد بمثقفين في المدن لا يسارعون الى ركوب الموجة الثورية في الارياف، فينادون بمبادئ اللاعنف من أجل ايقاف السيل الثوري، و ينظرون الى الريفيين النظرة التي كان ينظر بها المستعمِر إليهم.

في كتابه "معذبو الأرض " يحلل «فانون»المثقف الخاضع للاستعمار من مدخل نفسي واخر سوسيولوجي و ثالث ثقافي . ففي المبحث الأول يحلل «فانون»- بوصفه طبيبا نفسانيا - شخصية العناصر المثقفة التي تستبعد فكرة العنف

من الوجهة النفسية و يصف تواطؤها و يفصح عجزها ، وذلك لانها – كما يقول – " تخشى أن تكتسحها هذه الريح العاصفة"[129]

إنها بعض من أولئك المثقفين أو الاطارات أو عمال المدن الذين لا يسمعون لصوت الأقلية الثورية، فتجد هذه الأقلية الثورية نفسها وحيدة أمام فئات مذعورة يخيفها لهيب الثورة .

و بحكم تكوينه النفسي- يختار «فانون»المدخل النفسي لدراسة موقف الخوف في علاقة المثقف بالمستعمر . يقول «فانون» : " ان المثقفين الذين تحتل دبابات المستعمرين و الطائرات المقاتلة في أدمغتهم مكانا كبيرا ... ان عجزهم عن الانتصار بالعنف لا حاجة الى البرهان عليه ، فهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية و في مناوراتهم "[130]

وبرأي «فانون»فإن المثقف يخشى العنف . فعلى الرغم من أنه يملك "القوة " الا أنه يفضل أن يلوح بها لا ان يستخدمها . يقول «فانون»"النخبة المثقفة عنيفة في الأقوال، اصلاحية في المواقف و الأعمال "

هذه الاصلاحية لها ما يبررها اجتماعيا و سياسيا

[129] «فانون»:"معذبو الأرض" - المرجع السابق - ص 84

[130] نفس المرجع ص 97

يقول «فانون»: "ان قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد سكان المدن . و هؤلاء العمال و الفلاحون و أصحاب الحرف و التجار الذين بدأوا يستفيدون من الوضع الاستعماري و لو استفادة ضئيلة ، هؤلاء لهم مصالح خاصة"*

النخب تتحدث بمنطق جماهيرها ، و الصراع في المجتمع المستعمَر ينتج من يطالب بتحسين ظروف العبودية ، و لا يطالب بالتحرر .

" ان ما تريده هذه القاعدة الشعبية ليس هو الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمِر ، بل هو أخذ مكان هذا المستعمِر . ان الأكثرية الساحقة من المستعمِرين تريد أن تستولي على مزرعة المستعمَر ، ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمَر أندادا متنافسين ، و انما هدفهم أن يحلوا محله "[131] . هذه النخب المثقفة ، ذات التعليم الاستعماري ، الخاضعة لقانون الخوف في علاقتها مع السلطة المستعمِرة ، و التي تقود قاعدة اجتماعية "مستفيذة" من طبيعة الحياة الاستعمارية تكون سياستها " اللاعنف"

* ان هذا الجو من العنف و التهديد و التلويح بالصواريخ يخيف المستعمرين لأن شخصيتهم قد هيأتهم لفهم هذا الظرف " (معذبو الأرض ص 84)

[131] «فانون»: "معذبو الارض" - نفس المرجع ص 104

يرى "فانون" أن الحلول السلمية التي تطرحها هذه النخب ليست في صالح الشعوب ، بل هي استنفاذ لقدرته على المجابهة . في كل معركة تحاول فيها الشعوب أن تبدأ مسيرة تحررية ، تطوقها السلطة الاستعمارية بقدرتها على احتواء النخبة المتعاونة ، و ان حدث أن ظهرت على الساحة نخبة تحررية، تقوم السلطة باعتقالها و سجنها ، لإنتاج نخبة جديدة متوافقة.

في مقاله "الفجر الافريقي " يرى «فانون» أنه على المثقف أن يكتب لشعبه بغية أن يفتح المستقبل. ثم ان عليه ، أن يشارك في العمل الثوري ، أن ينخرط " في المعركة القومية جسما و روحا " عليه أن يشارك "بعضلاته" في المعركة . " يكفي أن نغوص في ماضي الشعب ننتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف و الاحتقار التي يقوم بها الاستعمار ، و انما يجب علينا أن نعمل من أجل أن نوضح المستقبل ، من أجل أن نعيد الارض التي أخذت تتفتح فيها منذ الان ببراعم قوية " (ص210)

و محرضا على المقاومة المسلحة دائما. يقول «فانون»" انه على المثقف أن يعي أن المعركة ليست معركة كتابات و أفكار فقط ، بل هي معركة أبدان "

يرى «فانون» ان المثقفين من ابناء المستعمرات "لم يتوفر الوقت الكافي لديهم ليتطهروا وأبناء الشعب حيث بقوا بمناطق لم يهزها العنف الثوري هزا عنيفا" ويقول: "كان هؤلاء الأبناء مثابة المدللين للمستعمِر ينهبون الموارد الوطنية نهبا، ويندفعون إلى الإثراء بالصفقات المشبوهة وبالسرقات القانونية إندفاعا لا يعرف

الرحمة عن طريق الاستيراد والتصدير والشركات المغفلة... كما انهم فاقدو الثقة بنتيجة العنف الذي تمارسه الجماهير"[132]

يرى "فانون" أن طبقة المثقفين لا تنفك تنادي بضرورة العنف ضد المستعمِر إلا أنه، في حقيقة الأمر نجدها عنيفة ثورية في كتاباتها، إصلاحية في اعمالها وممارساتها.

كما يرى "فانون" أن أهم تحدٍ يواجه العنف الثوري هو سلوك هذه الطبقة من المثقفين التي ما تنفك تسارع إلى المناداة بمبادئ اللاعنف من اجل ايقاف السيل الثوري وهي تتخذ في اغلب الأحوال دور المفاوض مع سلطات المستعمِر من أجل الحفاظ على مكاسبها والحفاظ على صلاتها القديمة معه.

ونفس الصرخة يوجهها «فانون» ضد الاحزاب السياسية البورجوازية المتعلقة بالمستعمِر والتي -كما يقول "فانون" - "تنتظر استحواذها السلطة لتكون بديلا عنه".

إنها - يقول "فانون" - تستبعد العنف بل تخشاه، فهي "عنيفة في أقوالها ، معتدلة في مواقفها " لا يزيد نشاطها على مجرد مقالات وخطب تتحدث عن حقوق الانسان وتقرير المصير "إنها لا تدعو إلى العنف لأنها لا تهدف إلى قلب الأوضاع

[132] «فانون»: "معذبو الارض" - نفس المرجع ص 122

التي أنشأها الإستعمار رأسا على عقب، ولا تطمع أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمِر" (ص 112)

وبرأي «فانون» فإن الاحزاب البورجوازية لا تعرف سوى إلقاء الوعود السياسية وحماية مصالحها. فهي تنادي بمبادئ، ولكنها تمتنع عن اطلاق شعارات أو استعمال القوة لأن هدفها هو الحفاظ على النظام القائم من اجل الحوز على نصيب من السلطة في الدولة

«فانون» يحذر من المصير السيء الذي تمشي إليه هذه الدول المستقلة إذا لم تتدارك الامر. ففي فصل من كتابه "معذبو الأرض تحت عنوان "مغامرات الوعي القومي البائسة" نجده يحذر من هذه البورجوازية الوطنية قائلا :"إن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الإنتاج، أو الابتكار، أو البناء، أو العمل، إنما تنفق نشاطها كلّه في أعمال من نوع الوساطة. إن نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية رجال الاعمال ، لا رواد صناعة. ويجب أن نعترف أن جشع المستوطِنين ونظام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدَعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيرا" [133]. على البورجوازية الوطنية الحقيقية أن تدخل مدرسة الشعب، أي ان تضع تحت تصرفه رأس المال الثقافي والتقني الذي استطاعت أن تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار

[133] «فانون»: "معذبو الارض" - نفس المرجع ص 111

تقديم مبدأ العنف في كتاب "معذبو الأرض المنشور على الرغم من حظره ومنع بيعه، المتزامن صدوره مع وفاة "فانون"، أحدث دوياً عميقا وضجّة كبرى.

ففي فرنسا تم مدحه من البعض ورفضه بعنف من البعض الآخر، بما فيه وسائل الإعلام اليسارية. ولئن استقبلت صحف فرنسا بالرضا الفصل المتعرض لتقصير البورجوازية الوطنية في مهامها واصفة له هذا التحليل بالتحليل البارع، إلا أن الأهمية التي أولاها «فانون» للطبقة الفلاحية وللدور الذي خصصه للعنف أُستقبِلا بكثير من التحفظ، بل بكثير من الضراوة.

أما في وسائل الإعلام اليمينية، فقد اعتُبر الكتاب كـ"دعوة للكراهية" . "جيلبار كونت " تحدث عن "انعكاسات تصفية الاستعمار"[134] . وإذا كانت المجلات اليسارية، ومنها "الأزمنة الحديثة " (Les Temps modernes) قد أيدت مجموع ما تناوله «فانون»في هذا الكتاب إلا ان مجلة "ايسبري" (Esprit) اكتنفها الكثير من النقد. "جون ماري دومينيك" الذي بدأ بالإعراب عن إعجابه لفانون، أبدى معارضته له قائلا "إن ثمة مستعمِرين آخرين، قبل الاوروبيين ، فلا يجب نكران أن أهالي السكان الأصليين قد تعلموا الكثير من أوروبا.الم تكن هذه الأخيرة هي أول من نادت بتحرير الانسانية؟ "[135]

---

[134] Gilbert Comte : Mein Kampf de la décolonisation - in « La Nation francaise » 21 Mars 1962

[135] Revue « Esprit » - Février 1962

في صحيفة "لوموند" ، وعلى الرغم من مساهمته في تكريم «فانون»في مجلة "الحضور الافريقي" (Présence africaine) ، "جون لاكوتير" ، يعرب عن سخطه ومعارضته العميقة للكاتب متحدثا عن "محاولة بناء حضارة قائمة على العنف وعلى انكار تاريخ هذه الشعوب التي لم يشكل فيها الاستعمار الأوروبي سوى مجرد مرحلة من المراحل" [136]

"جون دانييل"، مع ابدائه لتحفظات ، إلا أنه - وعلى خلاف "جون لاكوتير" - يشيد في مجلة "ايكبريس" بكرم "فانون" وإنسانيته، منددا مع ذلك بنظريته حول العنف، ومعاتبا إياه كونه قد نقل للساحة السياسية "تحليلا نفسيا حول العنف"[137]

وذات المعارضة تُوجَّه لـ "فانون" في مجلة « La Pensée » من طرف "انقويان" (N'Guyen) ، معاتبا إياه "إعتماده لنظرة ذاتية هي من مخلفات فلسفة الوجودية(...)" بل إن المجادلة المتمدة من "أنقويان" حيال «فانون» هي أكثر شدة في قوله :"إن اوروبا هي التي ابتكرت الديمقراطية والاشتراكية وأتت بالتقنيات

[136] Jean Lacouture : « Les damnés de la terre de F.Fanon » - Le Monde - Janvier 1962

[137] جون دانييل - مجلة "ايكسبريس"- 30 نوفمبر 1961

العصرية حيث مجرد رفض لقيمها وتكنولوجياتها يعد تشجيعا لمن يرفع راية القيم التقليدية طمسا لسياسة رجعية[138]

الحث على اعتماد العنف في كتاب "فانون" دفع بعض المعجبين به من تلامذته مثل الكاتب "جاك ازولاي" الذي - بعد قراءته "معذبو الأرض وإطلاعه على ملحقه المعنون: "لمذا نستخدم العنف؟"[139] ، إلى الاعراب عن انزعاجه بقوله : "لم أعد أفهم مواقفه... في حين أن «فانون» كان يشع حبا وسخاء نفس ، حسب كل الذين عرفوه ، كيف يصبح داعية عنف مدمِّر. إن «فرانز فانون» يحلل الحالة الاستعمارية من داخل الكائن الذي استلبه الاستعمار". في هذا السياق تقول "أليس شركي"، مؤلفة كتاب عن سيرة "فانون" الذاتية، قائلة : "يتوجه «فانون» في كتابه لا للأوروبيين ولكن لرفاقه في الجزائر وفي افريقيا وفي عموم العالم الثالث. يتوجه إلى المستعمَرين الذين عاش معهم منذ إنضمامه لجبهة التحرير. إنه يريد تحذيرهم من أخطار تهدد كل حركة وطنية يقتصر مشروعها على تحرير التراب الوطني دون أن يتناول الاوضاع الاجتماعية ... يريد ان ينقل لهم ما عاشه وما فهمه من خلال النشاط الثوري. يتحدث إنطلاقا من التاريخ الراهن عن انغماسه في هذا التاريخ الذي أكسبه تجربة كان لزاما عليه أن يبلورها ... إن مجموع الكتاب تحليل دقيق لتصفية الاستعمار، وتساؤل عن مستقبل العالم الثالث. لعل هذا ما جعل الكتاب يحظى بالاهتمام الواسع على اختلاف ردود الفعل التي أثارها: فهناك

---

[138] أنقويان (N'Guyen) : فرانز «فانون»: "مسائل الاستقلال" - مجلة La pensée - فبراير 1963

[139] ملحق الكتاب عبارة عن الخطاب الذي ألقاه «فانون»بـ "آكرا" في أفريل 1960 - خلال "مؤتمر السلم والأمن في إفريقيا" بوصفه ممثلا للحكومة الجزائرية لدى البلدان الافريقية

من مجّدَه تمجيدا بالغا، وهناك من انتقده انتقادا شديدا، وهناك من رفض مضمونه جملة وتفصيلا، لكن لم يوجد هناك من لم يهتم به".[140]

وهكذا قيل الكثير عن مفهوم العنف عند «فانون»وكثيرا ما وُصف بالمبالغات الكلامية فيه وتأثره بالتحليل الوجودي لسارتر ، لكننا مع ذلك نرى ان ما عبّر عنه "ايمي سيزار" هو أقرب إلى الحقيقة، عندما قال : " إن عنف فانون، بدون مفارقة، هو عنف رجل غير عنيف، أقصد بذلك أنه عنف العدالة وتطهير النفس"*

الواقع أن فانون عند حثه عن العنف فهو لا يحاور اوروبا ولا يسعى إلى ان يخجله. إن «فانون» يائس من أن تعود أوروبا إلى رشدها. وهو لذلك لا يتحدث إليها، وانما يتحدث إلى اخوته الذين حملوا السلاح واخذوا يسيلون الدماء. «فانون»يفضح البورجوازية "الوطنية" التي لم تشارك في ثورة الشعب مشاركة صادقة، ولا أهابت بالجماهير يوما إلى النضال المسلح والكفاح العنيف، وكانت لا تزيد على أن تقوم بمناورات سياسية من اجل أن يتصدق عليها المستعمِر ببعض

[140] Alice Cherki : Op.cit- page 201

* في ديسمبر 1961، كتب الاديب المارتينيكي ايمي سيزار مقالا في "جون أفريك" (Jeune Afrique) كرم فيه «فانون»بعد أسبوع من وفاته ، قال فيه :" توفي فرانس «فانون»في سن السابعة والثلاثين، وعاش حياة قصيرة لكنها غير عادية، وجيزة لكنها مبهرة، ملقيا الضوء على واحدة من أفضع مآسي القرن العشرين (...) قيل عنه إنه انسان عنيف. صحيح أنه وضع نفسه منظرا للعنف ضد الهمجية الاستعمارية لكن عنفه كان في سبيل العدالة والنقاء. نحن بحاجة على أن تفهم بأن ثورته كانت أخلاقية ونهجه نهج سخاء(...) إنه كان الطبيب النفساني المؤهل لفهم معاناة الانسان القابع تحت نير الاستعمار(...) لقد اختار أن ينضم مع قضية الشعب الجزائري المضطهد، المعذب فصار جزائريا ، وعاش وقاتل ومات جزائريا"

الامتيازات. إن «فانون»يبين لنا كيف تحاول هذه البورجوازية "الوطنية" أن تسرق ثورة الشعب في لحظة النصر ، وأن تنسبها إليها، وأن تتسلم مقاليد السلطة من يد المستعمِر لتحل محله، لتنوب عنه في استغلال الشعب واستثماره واضطهاده، وكيلة عن الاحتكارات الاستعمارية الكبرى، عميلة لها، شريكة معها في الغنائم.

إن «فانون»في حديثه عن العنف، إنما يتحدث عن ثورة الشعوب ضد النظام الرأسمالي العالمي الذي يقهر الشعوب وينتزع انسانيتها ، وإن كان «فانون»يتحدث بحماس زائد عن العنف وضرورته فإن ذلك راجع لا محالة إلى تخوفه من الاستقلال الصوري الذي رضيت به بعض الدول الافريقية.

في فصل كامل من كتابه "معذبو الأرض" بعنوان "مزالق الشعوب القومي"، يتحدث «فانون»عن مشاكل الثورة الوطنية التي كان يخشى أن تنزلق هي الاخرى وراء الثقافات الدخيلة المشوّهة. إن «فانون»لم يقم بتحليل سوسيولوجي ديالكتيكي تقليدي لأنه وان كان يرى ان المجتمع الافريقي مجتمع طبقي، إلا أنه يرجع تشكيل تلك الطبقات في افريقيا إلى الاستعمار نفسه، الامر الذي يولد صراعا مباشرا بين الفلاحين والبورجوازيين المدنيين.

يقول فانون : "ان الامر يتعلق فعلا بتصفية الاستعمار. فسواء قلنا تحريرا وطنيا، أم نهضة قومية ، أم انبعاثا شعبيا، أم اتحادا بعد الشعوب، أيا كانت

العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة، فإن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما."[141]

لا يتردد «فانون»في وصف الاستعمار بالعنف الشامل الذي يتضمن كل انواع العنف السياسي والعسكري والثقافي والنفسي. ويعتبر التعذيب الجسدي والنفسي مثالا صارخا للعنف الاستعماري، وعنصرا أساسيا في النظام الاستعماري، وليس عرضا من عوارض الاستعمار . أي يجب النظر إليه بوصفه آلية ملازمة للاستعمار. يقول : "ليس التعذيب عرضا ولا خطأ ولا يمكن فهم الاستعمار خارج امكانية التعذيب والاغتصاب والمجازر. إن التعذيب نموذج من نماذج العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر ولا يمكن القضاء على العنف وأشكاله المختلفة إلا بعنف مماثل ومعاكس في جميع الاتجاهات. ولقد شكلت التجربة الجزائرية وبخاصة ثورة التحرير الوطنية، نموذجا ملهما له"[142]

والواقع أنه في الوقت الذي كان فيه الكفاح المسلح بالجزائر يدفع أكثر من مناضل في افريقيا وأمريكا اللاتينية الى التفكير في انتهاج طريق العنف الثوري، كانت الفرصة لـ "فانون" سواء عند تحريره لصحيفة "المجاهد" أو قيامه بالمهام السياسية والاتصالات الدبلوماسية التي عهدت إليه أن يعرض المثال الجزائري

[141] أشيل مبامبي : فرانز «فانون»... الشاهد على الآمال الانسانية - مجلة الحياة - 2015 - ص 17

[142] «المجاهد»: من خطاب فرانز «فانون»، ج 4 - ع 34 - بتاريخ 24 ديسمبر 1958 - ص 5

كمثال استخلص منه الدروس ، و أن يصر على تقديم هذا المثال للعالم الثالث كي يستفيد منه في مقاومته للاحتلال.

وكان لجهود «فانون» - وهو رئيس للوفد الجزائري في ندوة الدول المستقلة في افريقيا في 12-15 أبريل 1958 ، الدور العظيم في دعم الجزائريين في كفاحهم التحرري وذلك أمام تحفظ رؤساء دول المجموعة الفرنسية الذين عارضوا مبدأ الثورة بالعنف.

كما أن مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية الذي عقد بمدينة أكرا، عبّر فيه «فانون»عن ايمانه بأن العنف هو السبيل الوحيد الذي يجب أن يسلكه المستعمَرون للتحرر من المضطهدين المستغلين الذين "يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الانسان وهم يدبحونهما حيثما وُجدا"

والحقيقة انه عندما يتحدث «فانون»عن العنف فإنه يحلل قبل كل شيء مجتمعا من عصره هو المجتمع الاستعماري العنيف الذي يتميز بالقهر الاقتصادي والإقصاء ويستنكر حقوقه وشخصيته فلا يكون عندئذ على الخاضع للاستعمار - في كتابات "فانون"- سوى اعتماد هذه الراديكالية.

ذلك أنه أمام التحقير بثقافته الوطنية من جانب الاستعمار في أشكال مختلفة منذ ما يزيد عن قرن وربع قرن وجد الجزائري نفسه مضطرا إلى أن يصرح في تعبير واضح وملموس وأن يعبر عن حقيقة تاريخية وهي أن الحل الوحيد يتمثل في تغيير الموقف، فدفعته تياراته الداخلية بشكل تلقائي إلى أن "يكتسي لباس

العنف، ويقتنع أخيرا أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يستخدمها اليوم بقصد إعطاء معنى لموته هي الحصول على بندقية والانضمام إلى جيش التحرير الوطني ... فالحياة تحت السيطرة قد فقدت معناها منذ أمد مديد"[143]

[143] «فانون» : مقدمة كتاب "سوسيولوجية ثورة" المرجع السابق - ص 76

الفصل الثاني :

الفكر التنبؤي ما بعد الكولونيالي لـفانون

لا ينكر "فانون" استخدام العنف من أجل التخلص من الاستعمار وتحقيق التحرر الوطني - على نحو ما تم تأكيده في الفصل السابق - غير أنه يُجزِّئ هذا العنف ضد الاستعمار إلى عنصرين اثنين متميزين:

1) العنصر الاول :

وهو المقاومة التحررية أو النهضة القومية أو الانبعاث الشعبي، متمثلة في الكفاح المسلح تخليصا للأرض من الاستعمار

2) العنصر الثاني :

وهو المقاومة ضد المنظومة المتمثلة في الفئات المحلية "المُستَلَبَة" التي تروّج لمشاريع الاستعمار وترفض مواجهته تحت مُسَمَّيات التعايش السلمي.

لقد كان "فانون" على يقين من أن الشعوب التي اختارت طريق التحرر ستنال الحرية إن عاجلا أم آجلا. لكن هذا الاعتقاد لم يكن شغله الشاغل ، حيث كان همّه الحقيقي الرهانات والسيناريوهات المسرودة للتنبؤ بمرحلة ما بعد الاستقلال. فالعبرة عند "فانون" لم تكن الاستقلال بقدر ما كانت المحافظة على هذا الاستقلال. ذلك أن الثورة الحقيقية لا تنتهي - برأيه- عند خروج المستعمِر، بل تبدأ فعليا عند مرحلة الاستقلال.

يحاول "فانون" أن يفسّر تشاؤمه من مرحلة الاستقال انطلاقا من تفسير طبقي يقوم على أسس سوسيولوجية.

من بين الأسس السوسيولوجية التي اعتمدها "فانون" في تحليله، ما يلي :

أولا : بخصوص تنبؤاته حول الجزائر

أن "طبقة" الفلاحين - حسب تحليله - لا طبقة البورجوازية المحلية (عميلة الاستعمار كما يسميها "فانون") ، سوف لا يمكنها، عند الاستقلال، بتقديم نموذج مُعَقْلَنٍ للجزائر ما بعد الاستقلال ، إلا إذا قضت على هذه البورجوازية المتقاعسة وعلى من يمثلها، حيث يتساءل: "هل ستكون هذه الطبقة البورجوازية قادرة على تسيير جزائر ما بعد الاستقلال ؟"*

المتمعّن في تفسير "فانون" لهذه الثنائية الطبقية الضدّية ، يرى أن "فانون" قد تعرض في واقع الأمر إلى ظاهرة الصراع الطبقي ولكن ليس بالمفهوم الماركسي**، مقتنعا بأن مصطلحات "ماركس" قاصرة على أن تطال الدراسات**

---

* لأن "فانون" كان شديد التأثر برؤى "سارتر" و "ماركس" فقد جعل الأفكار الماركسية اللينينية القائمة على مبدإ "الصراع الطبقي" أكثر ملاءمة مع الواقع الجزائري والواقع الافريقي، فاستبدل - وهو يحاول تصحيح أوضاع الاقتراب الماركسي- طبقة البروليتاليا بطبقة الفلاحين مع الضم إلى هؤلاء فقراء المدن، وذلك لأن العمالة في هذه البلدان - وإن كانت صغيرة - إلا أنها لم تكن يوما منفصلة عن طبقة الفلاحين القاطنة بالارياف والممتهنة أيضا للزراعة كحرفة إضافية لتحسين الدخل، وهي الطبقة المغلوب على أمرها، جاعلا مقابل هذه الطبقة، وعلى طرف النقيض منها "طبقة البورجوازية المحلية " والتي ما انفك "فانون" يصفها بطبقة ذات المصالح المرتبطة بالاستعمار.

** أوضح فانون علاقة المستعمِر بالمستعمَر من منظور سياسي. فالأوروبي مريض بفوقيته كونه مستعمِرا أبيض وهو ما يوافق عند "ماركس" ما أسماه سيدا، والافريقي المغلوب على أمره مريض بدونيته وهو ما

النفسية للاستعمار، كون النظرة الطبقية عند "ماركس" اجتماعية اقتصادية ، وكون مجال تَـمَثُّلِها هو "ثنائية العبد والسيد" ، بينما النظرة الطبقية عند "فانون" كانت نفسية تمثلها ثنائية "المستعمِر / المستعمَر" ، ثنائية "الفوقي/ الدوني" ، ثنائية "طبقة البورجوازية الوطنية / طبقة الفلاحين وفقراء المدن"

يحلل "فانون" جدلية هذه الثنائية من منظور نفسي بحث، كونه طبيبا نفسانيا وفيلسوفا اجتماعيا قبل كل شيء، فيتحدث عن الأحزاب الوطنية التي تشكلت في معية الاستعمار، وهي أحزاب يرى فانون أنها تلعب دورها من خلال ظلها الاستعماري على الأرض وشعارها في ذلك "أعطني مزيدًا من السلطة". لذا فالحوار بين هذه الأحزاب والاستعمار لم ينقطع يومًا، ومطالب قاعدتها هي مطالب فئوية، تتمثل دومًا في تحسين الأجور، والتمثيل الانتخابي، وحرية الصحافة وحرية الاجتماع، متناسية المطلب الأساسي وهو تحرير الأرض. وبهذا الشكل تتشكل طبقة أسماها "فرانز فانون" : "طبقة العبيد المحررين فرديًا"، وهي الطبقة التي تبحث عن مصالحها بغض النظر عن مصالح الشعب بأكمله، في حين أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمَرة هي الطبقة الثورية الوحيدة.

أسماه "ماركس" عبد. وهذا الأمر هو الذي كوّن ثنائية سيد/عبد، لنخرج بما يلي : (سيد/عبد) = (الأبيض / الأسود) = (المستعمِر/المستعمَر) = (الفلاحين/ البورجوازيين)، ومن هنا كان من نظريات ماركس أن جُعِلت أرضا خصبة للفكر الفانوني.

يقول فانون: " إنّ البرجوازية الوطنية التي ستأخذ بزمام السلطة بعد نهاية النظام الاستعماري بورجوازية متخلفة. تُعدّ قوتها الاقتصادية هشة، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال مقارنتها مع القوة الاقتصادية للبورجوازية الميتروبوليتانية التي تدَّعي استخلافها. انطلاقاً من نرجسيتها التطوعية. تتوهم البورجوازية الوطنية بسهولة أنّها تستطيع أن تكون مكان البورجوازية الميتروبوليتانية."[144]

وهكذا فإنّ النظرة الواقعية التي تنطلق من التجربة والقلق الوجودي جعلت "فانون" يتنبأ بأن مرحلة الاستقلال ستعاني من هذا الصراع المتمثل في ثنائية الطبقة المحرومة والطبقة البورجوازية"

ويحلل "فانون" هذا الصراع بين ابن الريف والمدينة في إطار الصراع الكبير، فيقول: "إن الفلاح ينظر إلى ابن المدينة على أنه الخائن الذي باع نفسه وأنه بلا أخلاق، وفي هذا الصراع يستفيد الاستعمار، بحيث يفلح في استغلال الأوضاع كما يناسب المصالح. فيقوم الاستعمار بتجنيد سكان الجبال والقرى ضد سكان المدن، ويثيرون مؤخرة البلاد ضد مقدمتها."

كما يهاجم "فانون" البروليتاريا الناشئة في المستعمرات، ويرى أنها الطبقة التي تعاني الفردانية، والبعد عن الجذور. فهي طبقة تترك الأرض وتتجه إلى المدن

[144] Matthieu Renault : « F.Fanon » De l'anticolonialisme à la critique postcoloniale - Ed. Amsterdam 2011 - Page 155

وتمكـث في أكـواخ الصـفيح وتـرضى بمعيشـة أقـل في سـبيل الانضـمام إلى طـابور المـدن، في حـين يـرى الفـلاح الذي يتمسـك بمكانـه في عنـاد و إصرار بأنـه العنصـر المنضـبط الذي يحـافظ عـلى ارتباطـه بالأرض وبثقافتـه. فـالثورة تـزرع بـذورها في الريـف ثم تنتقـل إلى المـدن لتنتشـر عنـد الفلاحـين المنبـوذين والمهمشـين الذيـن يعيشـون عـلى أطـراف المـدن الكـبرى في المسـتعمرات. وقـد وصـفهم بقـوله: "مجموعـة مـن الجـرذان في وسـعك أن تركلهـا بأقـدامك أو أن ترميهـا بالحجـارة، ولكـن عـلى الـرغم مـن كل مـا تفعـله فإنهـا تظـلّ تقضـم وتحفـر عنـد جـذور الشـجرة". وهـذا يعـني أنـه في مقابـل النمـوذج الماركسـي للعنـف القـائم عـلى الطبقـة العـاملة، يميـل "فـانون" لمـا يُسـمّى في الأدبيـات الماركسـية بالبروليتـاريا الرثـة. أي تـلك الفئـات المهمـلة والمهمشـة، ولكنهـا تبحث بطرقها الخاصة عن الاعتراف بحقوقها.

في كتابـه "معـذبو الأرض" يحـذر "فـانون" مـن الاسـتعمار الجديـد، متمـثلًا فـيما أسـماها البرجوازيـة الوطنيـة الـتي لم تشـارك في ثـورة الشـعب مشـاركة صـادقة، ولا أهابـت بالجمـاهير يومًـا مـا إلى النضـال المسـلح العنيـف، وكان كل منجزهـا منـاورات هنا وهناك من أجل أن يتصدق عليها المستعمِر ببعض الامتيازات.

يتحـدث "فـانون" عـن أن هـذه البورجوازيـة الوطنيـة سـتوجه نشـاطها نحـو الالـتزام الزراعـي الذي كانـت تسـلكه مـن قبـل أيام الاسـتعمار، وتُصـدِّر المـواد الأولية ويظل الأهالي يعملون مزارعين صغارًا وعمالا فقراء.

ولأن البورجوازية الوطنية لا تتمكن من تحقيق تصور واضح لاستغلال هذه الثروات، فهي تكتفي بوضع يدها على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المواطنون الأجانب وتتحول إلى وسيط بين الرأسمالية والأمة، مرتدية قناعًا استعماريًا جديدًا.

انه استعمار آخر يقوم بعد الاستقلال ترتبط مصالحه الثقافية والسياسية والاقتصادية من خلال نموذج تفسيري طائفي، قومي عنصري تمت صناعته سلفا على يد المستعمَرين.

يفضح "فانون" ويتهم على طول خط البرجوازية الوطنية، التي فرطت والتي قبلت الجلوس على موائد التفاوض ومن خلفها جماهير ذليلة، ضعيفة ومقاومة مدجنة. ولهذا الغرض يفرد لنا "فرانز فانون" بابًا مطولًا خاصًا فقط بالتحذير بمآل عدم الوعي لهذه المكائد، مبينا أن هذا الضعف الكلاسيكي في تكوين وعي قومي بنّاء سببه تخاذل البورجوازية الوطنية المحلية عن أن تكوِّن هذا الوعي. قوة هذه البورجوازية الوطنية في نهاية العهد الاستعماري تكاد تكون صفرًا، وهي لا تتجه نحو التصنيع والإنتاج والابتكار، وإنما تنفق أعمالها كلها في أعمال من نوعية الوساطة. لذا، فهو يرى أن الرسالة الصادقة لهذه البورجوايية هي أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال، وأن تضع نفسها في خدمة رأس المال الثوري الذي هو الشعب*.

* يقيم "فانون" تمييزا بين "البورجوازية الوطنية في الدول المتقدمة التي تتجه نحو الانتاج والابتكار والبناء والعمل" وبين "البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة التي تعتمد في نشاطها كله على الوساطة والسمسرة."

وفي تنبـؤه لمـا يحـدث بعـد الاسـتقلال يقـول "فـانون" : " يكـون في الـبلدان المتخلفـة نظـام برلمـاني فاسـد فسـادًا عميقًـا، فتنشـغل بنفسـها وبحصـد أرباحهـا ولا تقتسـمها مـع الشـعب أبـدًا، بـل تنشـغل بالدولة الأوروبيـة الـتي كانـت تسـتعمرها وبالكيفيـة الـتي تضـمن لهـا مصـالحها في الـبلاد، وغالبًـا مـا يكـون ذلك مـن خـلال زعـيم يقع على عاتقه مهمة استقرار العهد القائم وضمان استقرار الطبقة البورجوازية"[145].

وهكـذا وفي كفاحـه، يظـل المتسـعمَر يحـاول إزالة بعـض المظـالم مثـل: العقـوبات الجسيـمة، تفـاوت الأجـور، تقييـد الحـريات السياسـية. ولكـن فقـدان الاتصـال بـين الصفوة والجماهير يؤدي إلى مزالق فاجعة، كما يصفها "فانون".

ثانيا : بخصوص تنبؤاته حول افريقيا

إن توقعاتـه بشـأن إفريقيـا مـا بعـد الاسـتعمار غالبـا مـا ثَبُتَـت صحتهـا: فإفريقيـا الآن هي أسـوأ ممـا كانـت عليـه قبـل مـا يزيـد عـلى سـتين عامـا. الطبيعـة غـير المكـتملة لإزالة الإستعمار هي التي تستمر في ترويع افريقيا في اللحظة الراهنة.

تشـهد الأعـوام الأخـيرة انخفـاض متوسـط العمـر المتوقـع، وأزمـة في الرعايـة الصـحية وأنظمـة التعلـيم، وتـدني إنتـاج الأغذيـة. وثمـة هـوة متزايـدة الاتسـاع بـين الأغنياء والفقراء. ولم يكن للتكيف الهيكلي أية نتائج ايجابية تقريبا.

[145] المجاهد : من خطاب "فرانز فانون" – ج 4 – ع 34 – المرجع السابق – ص 11

إن تكهنـات "فـانون" ، وإن كانـت غـير مكـتملة، تظـل واقعيـة عـلى نحـو مخيـف. والواقـع أن حريـة الإنسـان ظلـت تحتـل حـيزا مركـزيا في ديالكتيـك "فـانون". ومـع ذلك، فـإن إصرار "فـانون" عـلى جلـب "الابـتكار إلى الوجـود" وتخيـل المسـتقبل، هـو في الواقـع إجابـة ملموسـة عـلى السـلطوية الاقتصـادية التقنيـة المجـردة الخاصة بالتكيف الهيكلي، أي عن هذا الحصاد الشرس الذي لا يزال يروّع القارة.

ولعـل الحكمـة الـتي مثلـت عمـق مسـار "فرانـز فـانون" النضـالي هي إجـماع المفكـرين وعلـماء الاجـتماع الذيـن عـاصروه عـلى أنـه أطلـق أطروحـة جامعـة بـين النظريـة والتطبيق قوامها : " لا يكفي تحرير الأرض ولا بد من تحرير العقول".

وبالفعل فقد تبلورت في افريقيا خلال فترة الاستقلال ونهاية عصر الاستعمار القديم العديد من التيارات الفكرية الأفريقية التى اختلفت فيما بينها طبقا لنوع التحدي الذي واجهته وهو في الغالب التحدي الإستعماري والعنصري وإن اختلف من تجربة إلى أخرى تسبب في اختلاف الاستجابة الأفريقية لحال التحدي الإستعماري، ففي حالة الاستعمار غير المباشر الأنجلوفوني الذي عمل على تكريس العنصرية اللونية في التعامل مع الأفريقيين والسود نجد أن ذلك دفع إلى ظهور بعض التيارات الفكرية المناوئة له والراغبة في تعديل الوضع الذي فرضه المستعمِر والإنسان الأبيض على الإنسان الأسود. لذا ظهرت حركة الجامعة الافريقية في مطلع القرن العشرين من أجل مواجهة الهيمنة الاستعمارية على الدول الأفريقية وتحرير أفريقيا من سيطرة الاستعمار وإثبات أن الانسان الافريقي قادر على كل شئ.

تُحسب لـ "فانون" تنبؤاته، بفشل الثورات التحررية، وبفشل النخب الوطنيّة بعد الاستقلال في تحويل الاقتصاد الاستعماري إلى اقتصاد وطني، وبأنها ستستولي على امتيازات المستعمرين بعد خروجهم، وستصبح هذه النخبة، رغم كل شعارات التطوّر والتقدم والنمو التي رفعتها، مجرد وسيط بين اقتصاد المُستعمَرة السابقة والدولة الاستعمارية والنظام الرأسمالي. كما تنبأ بأن النخب الحاكمة ستضرب بكل مبادئ الوحدة عرض الحائط. وستشحن المواطنين بأحاسيس الكراهية ضد شعوب مضطهدة باسم الهوية الوطنية والشرف الوطني."[146]

يستخلص من دقة تكهنات "فانون" ما يلي :

أ- تشخيصه للأمراض والأخطار التي تهدد شعوب الجزائر والعالم الثالث عموما بعد استقلالها، وصرخاته المنبهة لها بأن احتلالها لم يكن عسكريا فقط انما هو ثقافي ومعرفي في آن معا.

ب- تسليطه الضوء على ظاهرة (البورجوازية الوطنية المحلية) التي راحت تحتكر فكرة النضال وتنبذ كل رؤية مخالفة وكل مقارنة نقدية

ج- تركيزه في كتابه "معذبو الأرض " للتعفن الذي بدأ ينتشر اخطبوطيا في النزعة النضالية الافريقية مما يجعل هذه الثورة تنحرف عن اتجاهها الصحيح

د- تفطنه لكون أن هذه البورجوازية المحلية لا يمكنها بأي حال من الأحوال تسيير بلدانها لأنها تفتقد للمشروع الحضاري

[146] معذبو الأرض : المرجع السابق - ص 201

هـ- أن ما من حلٍّ لتحقيق الاستقلال التام سوى الانتقال من الوعي القومي إلى الوعي السياسي والاجتماع وهو ما حلله بالتفصيل في فصله المعنون "مزالق الشعور القومي" بكتاب "معذبو الارض" ، أي عدم بقاء البلدان المستعمَرة مكتوفة الأيدي أمام ما يمارسه خطاب "المهيمِن" في حقها، وذلك بإفراغ الصورة النمطية الحقيرة الممارسة تجاهه من "المهيمِن"، بإفراغها من كل الأحكام التي اصطنعها له "المهيمِن" أي تبني خطاب نقدي يهدف إلى النهوض بالثقافات المحلية والشخصية الوطنية والقومية لتعرية خطاب سلطة "المهيمِن"، وسعيه في تخريب حاضرها والسعي لهدم ماضيها.

يرى فانون أنّ الإنسان لا يكون إنساناً إلا عندما يفرض نفسه على إنسان آخر بهدف الاعتراف به، وأنه إذا لم يكن هنالك اعتراف حقيقي من قبل الآخر، فإنّ هذا الآخر سيبقى موضوعاً للفعل. لماذا؟ لأنّ بالآخر، وباعترافه تتوقف قيمة الإنسان وحقيقته الإنسانية. ولكن ما لاحظه فانون هو أنّ هذا الانقلاب في العلاقة بين السيد والعبد من خلال الاعتراف إنما كان مجرد انتقال من نمط معين إلى نمط آخر، وليس من حياة إلى حياة أخرى"

يربط "فانون" بين حالة الاغتراب الشخصي الذي يعيشه الجزائريون، وبين الاضطهاد الذي مارسه الواقع الاستعماري. ولم يتردد في ان يعتبر المستعمرين الفرنسيين وراء شعور الجزائريين أبناء البلاد أنهم "مهمّشون"، بل "يعيشون حالة

من الاستعباد". ذلك ما عبّر عنه "فانون" بالقول "إن الجزائريين كانوا يعانون من حالة اغتراب حقيقي"[147].

- باستعراض "فانون" لعلاقة الصراع بين الشمال والجنوب من الناحية الثقافية
- بنقده للفكر الغربي والكشف عن زيفه وخداعه
- بدعوته التشديد على ضرورة خلق هوية وطنية مضادة تؤسس للتخلص من ذيول الاستعمار الثقافي، واقتناعها بانتمائها إلى قيم حضارية على مرّ السنين
- بتحكمه في الآثار المخلفة من الدول الاستعمارية، كتحكمه فيما أدخلته هذه الدول من تكنولوجيا جديدة بعد خروجها من البلد المحتل
- بتحذيره عموما من تبعيات ما أسماه بـ "مزالق الثقافة الوطنية" من حيث هي تداعيات قاتلة

كل ذلك جعل من الطبيب النفساني "فرانز فانون" موصوفا في الساحة الأكاديمية بأنه الشخصية المحورية لما بات يعرف بعد وفاته بـ "الدراسات ما بعد الكولونيالية" (Postcolonialisme) وأحد أبرز الشخصيات الفكرية في القرن العشرين ممن فضحوا روح الكولونيالية بأدوات معرفية.

يقول فانون :" إن تدخل أوروبا في باقي القارات الأخرى عطّل مسيرتها وشوّه تاريخها، ولولا عرقلتها لمسيرة تلك الشعوب في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لا أحد يدري ما كانت ستصل إليه من التطور المادي. فأوروبا ليست سوى حجر عثرة في تاريخ تلك القارات. لقد كان أبناء تلك المستعمرات أصحاب

[147] فانون : الفصل الثالث من كتاب "سوسيولوجية ثورة"

حضـارة ومـا يزالـون دائمًـا ينـدفعون نحـو الأمـام فيـواجههم المسـتدمر لشـدهم للتخلف."[148]

لقـد تمكـن "فـانون" بفضـل قوتـه التنبؤيـة بأوضـاع الدول الوطنيـة المسـتقلة حـديثًا، أن يرصـد الحتميـات التاريخيـة الـتي ستشـكل الدول المسـتقلة، كـما أنـه فهـم المحركات الدافعة للتاريخ، وما تمثله الطبقة الفلاحية من قوة تاريخية.

إن وعي "فانون" بما بعد الاستعمار لا يعني نهاية الكولونيالية. وهي فكرة جوهرية، تعكس الرؤية الفانونية لما هو واقع اليوم من أوضاع اجتماعية وسياسية تمر بها الدول الوطنية الحديثة، من تخلف في كل الأصعدة، وانحصار الصراع في الدوائر السياسية ضمن التسابق الشرس على السلطة. فالأوضاع لم تتغير تمامًا، بل إنّ الأنظمة السياسية لهذه الدول أعادت إنتاج الرؤية الاستعمارية في طريقة تسييرها لمصائر شعوبها.

لقد فسّر "فانون" بأنّ الاستقلال ليس خروج الاستعمار من الأرض، لكن هو تحرير الذات من الجوهر الاستعماري، أي من حالة الاستلاب والابتعاد عن مقولات الغرب حول التمجيد بقيمها "تنويرا وتحضيرا وحرية" ، و"تجميد دماغ المستعمَرين باعتمادها الاطروحات العنصرية وجعلها بضاعة رائجة." [149] و"إعتبارها المحليين جنسا منحطا يجب تنصيره" [150]

---

[148] فرانز فانون : لأجل الثورة الافريقية - المرجع السابق - ص 15

[149] Ferhat Abbas: « La nuit coloniale » - Ed. René Jullard - Paris - 1962 - Page 100

[150] Abbé Jules : « Colons et Indigènes » in Terre de l'Islam - Imp - Alger 1987

الحقيقة أن تنبؤات "فانون" بخصوص فضح الغرب وفضح مشاريعه الاستعمارية السائدة في عصره والمستقبلية، ونظراته الثاقبة بشأن غموض ما بعد الكولونيالية في كتاباته قد تجسدت في الواقع.

فقد انهارت احلام الجزائر التي بدت يوم انتصار ثورتها وكأنها قائدة الثورة الإفريقية وعنوانا لأحلام عريضة لكل شعوب العالم الثالث بالتحرر والتقدم وتصفية صفحة بغيضة من التاريخ البشري. لقد تم تجاهل التعددية الثقافية فيها لمصلحة تصور ثقافي ضيق للهوية الجزائرية وتهميش الثرات الثقافي الجزائري وتقليصه إلى مجرد مظاهر فولكلورية.

وباتت الطبقة البورجوازية فيها لا تطمع في أكثر من انتزاع الامتيازات تلو الامتيازات. فئة محتكرة طويلة الأنياب، نهمت التطلعات، تندفع في طريق مناقض لمصالح الأمة فتنشغل بنفسها وتحصد أرباحها ولا تقتسمها مع الشعب بل تنشغل بالدولة الاوروبية التي كانت تستعملها وبالكيفية التي تضمن لها مصالحها في البلاد.

يقول "فانون" : "إن سلوك البرجوازية الوطنية في بعض البلدان المتخلفة يذكّر بسلوك أفراد عصابة من اللصوص الذين ما إن يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفوا حصصهم عن شركائهم، و يستعدوا للانسحاب بحكمة وتعقل...إن البرجوازية في البلاد المتخلفة لا يمكن أن تحقق تقدماً و لا تصنيعاً لذلك يجب القفز فوقها إلا إذا كانت تمتلك قوة اقتصادية و تكنيكاً يكفيان لبناء مجتمع برجوازي، وهذا أمر غير موجود في أغلب الحالات. فيجب بالتالي تجاوزها إذ لا يمكن أن تنتج أفكاراً ... إن هذه البرجوازية التافهة في أرباحها و في أعمالها و في

فكرها تحاول أن تحجب هذه التفاهة بأقنعة شتى : بأبنية فخمة على المستوى الفردي، باستحواذها على الأراضي وعيشها العيش الرغيد المتنامي الأطراف".

ويقول : " تتجه هذه البرجوازية الوليدة إلى التشبه بالبرجوازية الأوربية الهرمة من ناحية البذخ و الاستمتاع بالملذات، دون أن تمر بأطوار الابتكار والاستكشاف والبناء التي مرت بها البورجوازية الأوروبية...و هكذا تشبه البرجوازية الوطنية في أول عهدها البرجوازية الغربية في آخر عهدها"[151]

كما يمكننا فجأة رؤية منطق الثورة والتحرر لدى "فانون"بوضوح جلي في الانتفاضات العربية التي اندلعت عام 2011 وما عقبه من تمرّد عالمي جديد انتشر إلى اسبانيا وانتقلت حركة الغضب منه إلى أثينا ضد اجراءات التقشف القاسية مرورا بالتمرد المدني الذي اندلع بالمملكة المتحدة والحشود الطلابية في شيلي وصولا إلى حركة السترات الصفراء بفرنسا والانتفاضات الشعبية في كثير من الدول ضد عنف العالم المعاصر الذي لم يقدم لهم سوى افقار وتهميش متزايد وإثراء للقلة على حساب هلاك الاغلبية.

وبدلا من التقدم والتحرر وبناء نظام علاقات دولية متكافئة، إذا بنا نعود إلى عصر الاستعمار المباشر، حيث بات الغرب يعتمد العنف من جديد بالنصف السفلي للمعمورة، بدعوى نشر الديموقراطية في مستعمراته السابقة، علما أن هذه الديمقراطية لم تكن في واقع الامر على رأس أجندته الفكرية او السياسية (لا في

[151] معذبو الأرض : المرجع السابق - ص 123

العـــراق ولا في ســـوريا ولا في البحـــرين ولا في ليبيـــا ولا في أفغانيســـتان ولا في عشـــرات الاســـماء الاخـــرى مـــن جغرافيـــة الاســـتيطان والاســـتبداد والمـــذاهب المتصـــارعة والاحـــتلالات) ومـــا يقـــترن بهـــا مـــن تشـــوهات ماديـــة وروحيـــة وثقافيـــة ووطنية، ممتدة إلى تبديد وتعطيل ثقافات عاشت آلاف السنين في نفوس أبنائها.

شـــهرة "فـــانون" ليســـت إذن بســـبب موقفـــه العمـــلي الـــرافض للعنصـــرية والاســـتعمار فحســـب ، بـــل لكتاباتـــه النـــاقلة والمحلـــلة والراصـــدة بالذكاء لأحابيـــل وذكاء الاستعمار .

فقـد شـكلت كتاباتـه - وبخاصـة منهـا كتابـه الشـهير "معـذبو الأرض" - والذي اعتبره كثير مـن المعلقين مثابـة دعـوة إلى أمميـة جديـدة عـلى مسـتوى العـالم الثالـث، والذي عـرض في مقدمتـه "جـان بـول سـارتر" * - وهـو في ذروة تـأثيره - توجهـا وجـوديا ضمـن مـا سمّـاه بـ"الاستعمار الجديـد" (Néo-colonialisme)، شـكل هـذا الكتـاب تجسـيدا لامعـا لـ"نظرية مـا بعـد الكولونياليـة" اليـوم، أي النهـوض بالثقافـات المحليـة والقوميـة لتعريـة خطـاب السـلطة الاسـتعمارية وهدمـه، والـتفطن عـلى ان هـذا الخطـاب المُبـرَّر تحـت قنـاع التحضـر والتنـوير والحريـة والديمقراطيـة، إنمـا الغـرض منـه الهيمـــنة (L'hégémonie) عـــلى الدول الأضـــعف لاســـتنزاف ثرواتهـــا والـــتحكم في مصادرها والقضاء على عناصر ذاتيتها.

* وصف جان بول سارتر "فانون" في مقدمته لكتاب "معذبو الأرض" بأنه "أول من أعاد النظر في دور العنف الذي رأى فيه وسيلة للتطهير في المقام الأول، لأن العالم الكولونيالي هو في جوهره ملوّث، لوّثه الاستعمار. والعنف هو أداة الانسان المستعمَر لتطهير ذاته وإعادة بناء ذاته كإنسان جديد ، بريء من طاعون الهجانة التي هي السمة الأكثر تميزا للمجتمعات الكولونيالية

كما تتمثل هذه النظرية في كون هذا الخطاب قد جاء ليهز ثقتها في قدراتها مما يستدعي الابتعاد عما ترسّخ في أذهانها من أن الاستعمار جاء لينتشلها من الظلام وأن رحيله سيردها إلى الهمجية والوحشية.

إنها النظرية التي توضّح خلالها التناقضات والمفارقات بين الشرق والغرب عن طريق الكشف عن كيفيات التعاون السائدة بين الشرق والغرب، وعن مدى هيمنة الطرف الغربي بأسلحته المتطورة وتكنولوجيته الحديثة في محاولة منه لتغييب العقل وتخذير الأدهان وتهميش الفكر الشرقي وإضفاء العنصرية على الدين وعلى اللون.

لقد كان "فانون" يدعو المستعمَرين إلى ضرورة التوقف عن الانبهار بثقافة الغرب وبوضعه المادي وبرفض التدخل الغربي سواء منه التدخل السلمي أو التدخل الحربي، وإلى محاربة ضعفهم وتفكيرهم ولوم أنفسهم على ما هم فيه من تقصير

إن الصدى الواسع الذي لقيه آخر كتبه "معذبو الأرض" في جميع أنحاء العالم في الثلث الأخير من عام 1961 هو أنه صدر في وقت "ملائم" ليسد فراغاً ويستجيب لتطلعات ضخمة، ويرد في الوقت نفسه عن أسئلة كانت موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث.

فقد صدرت طبعته الأولى بعد أن انتصرت كوبا في كفاح طويل ضد باتيستا، وبرز للعالم اسم "فيدال كاسترو" و"شي غيفارا". وكانت مصر تَحُثُّ

المسير لتصنع مشروعها التحرري النهضوي، بينما كانت شعوب أمريكا اللاتينية تتطلع للتحرر من قبضة الاحتكارات الكبرى [2].

كان الوقت ملائماً إذن لاستقبال كتاب "فانون". فقد توجه بخطابه إلى الشعوب المضطهدة، ولم يتوجه به إلى الغرب*. يقول "فانون" : "يجب أن نهاجر بأحلامنا، أن نتخلى عن معتقداتنا وصداقاتنا التي سبقت. لا يجوز أن نضيع وقتنا في دعوات عقيمة ومحاكاة تبعث على الغثيان. لنغادر أوروبا هذه التي تتحدث دوماً عن الإنسان في نفس الوقت الذي تقتله فيه تقتيلاً، كلما اعترضها في أى مكان من أنحاء العالم. لقد مرت قرون عرقلت خلالها أوروبا تقدم الناس الآخرين، واستعبدتهم وسخرتهم في خدمة أغراضها وتشييد أمجادها، قرون أخذت فيها بمخانق الإنسانية كلها تقريباً، بعنوان مغامرة حضارية روحية.. انظروا لها الآن: إنها تتأرجح بين التفكك النووي والانحلال الروحي [152]."

*تقول "أليس شركي" صاحبة الكتاب عن سيرة فانون الذاتية، ما يلي : :يتوجه فانون في هذا الكتاب إلى المستعمَرين الذين يكافحون ضد الاستعمار، والذين عاش معهم و لرفاقه الجزائريين والأفارقة. كان يريد تحذيرهم من أخطار تهدد كل حركة وطنية يقْتَصِرُ مشروعها على تحرير التراب الوطنى دون أن يتناول الأوضاع الاجتماعية.. كان يريد أن ينقل لهم ما عاشه وما فهمه من خلال النشاط الثورى. إنه يتحدث انطلاقًا من التاريخ الراهن عن انغماسه في هذا التاريخ الذي أكسبه تجربة كان لزامًا عليه أن يبلورها.. إن مجموع الكتاب تحليل دقيق لتصفية الاستعمار، وتساؤل عن مستقبل العالم الثالث وخاصة في القارة الأفريقية. (أليس شركي - المرجع السابق - ص 183) (ترجمة شخصية)

[152] أليس شركي - المرجع السابق - الطبعة الفرنسية - ص 198

بهذه الصرخة، يطبع "فانون" خاتمة كتابه. إنها لغة القطيعة التي ترفض منطق "اللحاق بالغرب". إنه الخطاب النقضي (ما بعد الكولونيالي في غاية الجودة) الذي ينحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري و إلى كبح العقل الغربي الملوّث بالعنصرية والشوفينية.

نستخلص مما رآه "فانون" ورسمه في كتاباته المختلفة أن الخطاب الاستعماري الذي يعتمده المعمِّر حيال المحليين، إنما يستمد جذوره من فلسفة الابعاد الكولونيالية المتمثلة أساسا في "الهيمَنَة" ، وهو المصطلح الذي شاع في فكر وأدبيات الدراسات ما بعد الكولونيالية ، والذي استخدمه لأول مرة الفيلسوف الإيطالي "أنطونيو غرامشي" ، والذي يعني في أبسط معانيه النظر للمستعمَرين المحليين على انهم أطفال، مدفوعا بشعور المعمّرين أنهم أسياد العالم ، يطرحون انفسهم على أساس أنهم متفوقون وحَمَلَة رسالة عليا. إنه تعبير نابع عن اتكالهم على ما يعتبرونه أفضل وأسمى الحضارات الانسانية.

إنه الشعور بالهيمنة المبني في العالم الغربي لبلدان ما وراء البحار على القِوامة الثقافية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والإقتصادية، كون المنتمي للجنوب ليس بحاجة لتبادل الكلام معه حيث يشعر أنه امام "آخر" متخلف، بل أمام كتلة بشرية اخرى في بنيتها ونظامها ونمط تفكيرها وتصرفاتها.

ظهور كوكبة من الأدباء الكبار امثال "فرانز فانون" و"ايدوارد سعيد" و"هومي باياو" و"سبيفاك"و "مالك بن نبي " وغيرهم كانوا من ابرز من عملوا على

تفكيك خطاب "المركز" (Centre) وتجاوز الفكر الاستعلائي الذي يُنظر له بأنه ضار وخطير.

لقد أحدثوا زلزالا حقيقيا في مقولات الفكر الغربي التقليدي. وتؤكد كثير من الدراسات الاستطلاعية ان أفكارهم ومناهجهم باتت تكتسح الجامعات في أوروبا وأمريكا.

لقد كان القرن العشرون بحق قرن التنازع والتناحر الدموي بين ثقافات تبنت خطاباتها على أنها هي الواقع السياسي والاجتماعي لمجتمعاتها وهي التي حاولت فرضها بالإقناع وبالقوة على مجتمعات أخرى متباينة في الثقافة والبعد التاريخي السوسيولوجي.

كما أن نقل تلك الخطابات غالبا ما اتُّخِذ كغطاء ثقافي وإنساني لفرض الهيمنة العسكرية والاقتصادية والسياسية على البلدان الأضعف والأغنى من حيث الثروات الطبيعية.

ومع ظهور تيار ما بعد الحداثة في ستينات القرن الماضي ، بدات حركة تفكيك ذلك الخطاب معتمدة على التاريخ الأسود لتلك الخطب التي في ظلها انفجرت حربان عالميتان، وفي ظلها وقعت جرائم ابادة والتهجير والاضطهاد الجسدي والفكري بكثير من المجتمعات. فالتشكيك في هذه الخطب بات يحتل الصدارة في الدراسات ما بعد الكولونيالية.

الخطاب الاستعماري ، أو ما يسميه البعض بالخطاب الاستشراقي ، لا يمثل بالأساس محاولة غربية لفهم الشرق أو البلاد المستعمَرة عموما ، إنما هو خطاب وظيفي يؤدي مهمتين أساسيتين:

أ- تمجيد الغرب لتاريخه ولقيمه باعتبار الشرق والمستعمرات نقيضا له. فثمة "الغرب الديمقراطي وثمة الشرق الاستبدادي" وثمة "الغرب المتحضر- وثمة الشرق المتخلف"

ب- إنكار المواطن الأصلي لتاريخه وشخصيته تفكيكا لكل الرموز الثقافية المحلية ومحاولة ربط ماضي الجزائر العربي الاسلامي بالحضارة الغربية.

أولا : بخصوص تمجيد "الأنا المركزية"

يمثل الفكر الاوروبي خطاب المهيمِن ، او خطاب ما بعد الكولونيالي، وهو الخطاب المبرر لأحقّية "المركز" الذي جعل نفسه يتحكم في فكر "الهامش" (Périphérie) لجعله متقبلا لتقديم خيراته له من دون وعي، معترفا تلقائيا بهيمنته عليه، وتقبل كل ما يصدر منه كحقيقة حتمية مطلقة وكقَدَرٍ لا نزاع فيه ، علما أن تقبل الهامش لاضطهاد المركز كحتمية طبيعية، له بعد تاريخي، ناجم عن ترسيخ ذلك في ذهنه منذ أمد الدهر، بعد أن عمل "المركز"على تكريس هذا الاعتقاد التفوقي وإعادة انتاجه من دون انقطاع، مركزا انتاجه هذا على الثنائية الضدية : "الأنا/الآخر" - "الطيب/ الشرير" - "الأبيض/ الأسود" - الغني / الفقير" - "الفوقي/ الدوني"

وباعتماده على العلوم الاخرى كالانتروبولوجيا وعن طريق استغلال المشاعر الانسانية يمرر "المركز" مجموعة من الاحكام السلبية تمس شخصية "الهامش" ذات الطابع الاقصائي، معرفا "الهامش" كونه "غير حداثي" ، "بربري"، "غير ديمقراطي" ومبررا سلوكه حياله تحت قناع التحضير والتنوير.

ومما لا شك فيه ان هذا الخطاب التاريخي والسياسي والفكري والثقافي الذي يمارسه الفكر الغربي المتمركز على ذاته انطلاقا من مبدإ تعاليه الفلسفي ، تكتنفه براثن اختلاطه بأنياب "العلموية" (Le scientisme)، حتى وإن كان الفيلسوف "فوكو" (Foucault) لا يؤمن بان المشكلة تكمن في تخريفية طالت مبدا العقل، بل راح يبرهن على أن المشكلة الجوهيرية في العقل ذاته، في جبروت هذا العقل الذي هو متشبع بمبدأ "العقل الكُلِّياني" (La raison totalitaire) والذي يستوجب فتحه على مبدإ الاختلاف والاعتراف والتسامح.

ها هو "رينان" الفيلسوف الفرنسي في كتابه "الاصلاح الفكري والأخلاقي يؤكد على وجود "شعوب حقيرة واعراق سخرها الرّبّ فقط لخدمة الاوروبي "فيقول: "إننا نصبو ليس للمساواة بل للهيمنة. إن على بلاد الأعراق الأجنبية ان تصبح بلاد الرقيق، فالأمر لا يتعلق بإلغاء الفروقات بين الرجال بل بتضخيمها وتحويلها إلى قانون"

لقد سبق أن تناولنا في معرض هذا الفصل كيف يصف المفكرون العنصريون الشعوب غير الأوروبية كونها شعوبا سخرها الله لخدمتهم، شعوبا

مستسلمة لقدرها مدركة أن هذا ما خلقت له وستبقى كذلك إلى الأبد، اما الشعوب البيضاء فهي شعوب خلقت من اجل السيادة والزعامة والقيادة. كما رأينا كيف تقوم النظرية العنصرية الحديثة على أساس الاعتقاد بوجود علاقات بين السمات العنصرية والسمات الحضارية أي وجود فئات بشرية أكثر تحضرا وتفوقا بطبيعتها من فئات اخرى. يقول فانون:" إن العنصرية هي العنصر الاكثر بروزا والأشد غلضة من عناصر جهاز معين ... إن الاستعمار هو الذي كرّس هذه الظاهرة العنصرية ودعمها بممارسته" [153]

معلوم أن الفكر العنصري هو فكر يستند بالأساس على تمايز جنس بشري على جنس آخر أو كل الأجناس وذلك بناء على اعتبارارت بيولوجية أو لونية أو لغوية أو حضارية ، ونجد أن الفكر الأوروبي تعامل باستعلاء وعنصرية شديدة مع الأفريقيين حيث اتبع نموذج عبء الرجل الأبيض والمركزية الأوروبية والرسالة التنويرية والحضارية للرجل الأبيض.

إن معظم النظريات العنصرية التي صاغها المفكرون الغربيون كلها نظريات وآراء مرتبطة بالمصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعوب الغرب الذين تفوقوا تكنولوجيا وسخروا كل ابداعاتهم لخدمة الرجل الابيض على حساب الأجناس الأخرى ليس فقط في افريقيا بل في آسيا وأمريكا اللاتينية ايضا.

[153] فانون : "لأجل الثورة الافريقية " - المرجع السابق - ص 15

ويمضي "فانون" في وصفه للمجتمعات العنصرية فيقول "إن العالم الاستعماري هو عالم مقسم على حسب الهوية، فهناك مدن للأوروبيين ومدن للسكان الأصليين، ومدارس للأوروبيين ومدارس للسكان الأصليين، كما في جنوب إفريقيا، والخط الفاصل بينهما هو الشرطي أو الدركي؛ فهو الوسيط الذي يتحدث لغة العنف وحدها في مجابهة المستعمَر. لذا فهو يرى أنه لا سبيل للمصالحة، فالصراع بينهما صفري في الأساس وبقاء أحدهما يعني فناء الآخر... أما مدينة المتسعمَر، فهي غالبًا مدينة سيئة السمعة، يتكدس الناس فيها فوق بعضهم، وهي مدينة جائعة إلى كل شيء، إلى النور، إلى الخبز، إلى الفحم، إلى الأحذية...والمتسعمِر يرى أن العالم الذي يعيش فيه السكان الأصليون لا وجود للقيم فيه، بل يصفهم بأنهم أعداء القيم، وهم الشر المطلق، وهو عنصر متلف يحطم كل ما يقابله، ويشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق."[154]

يرى "فانون" بنفس الكتاب : " أنّ الصورة النمطية التي تشوّه هويّة المستعمَر المحلي وتحصره في الفحولة والخطيئة، والتي لا تماثله إلا صورة اليهودي المحب للمال والخديعة، تُعدّ صورة صريحة للاعتراف المشوّه ". وفي تقدير "فانون"، "فإنّ تفسير سلوك المحلي المواطن الأصلي يخضع للصور النمطية للإنسان الأبيض لن يكون إلا بالتحليل النفسي."

[154] معذبو الأرض : المرجع السابق - ص 119

لقد كانت لـ "فانون" نشاطات متعددة ندد فيها بضرورة التخلص من هاجس العنصرية. في مقال كتبه "فانون" بعنوان "الاعتبارات العرقية النفسية" (Considérations ethno-psychiatriques)، نُشر بمجلة "الوعي المغاربي (Consciences maghrebines) عام 1956 ، ندّد "فانون" بعنصرية أحد اطباء الأمراض العقلية الانجليز ساند فيه الاطروحات العنصرية للدكتور "بورو"*، كما القى "فانون" كلمة في اول مؤتمر للكتاب والفنانين السود في فرنسا [155] تحدث فيه بإسهاب عن هذه الظاهرة وتوصل إلى أنه يجب تحطيم الهواجس بين الأبيض والأسود قائلا :" أنا أرغب حقا في أن اقود أخي الاسود او الابيض إلى أن يمزّق العباءة البالية التي نسجتها عصور عدم الفهم والتفاهم". [156]

في كتاب بعنوان " نقد الحداثة لدى المثقفين ما بعد الكولونيالية"، يعالج الباحث الفرنسي "توماس بريسون" مسألة استمرار سيادة الفكر الغربي في الدول التي استقلت منذ زمان متسائلا:" كيف يحصل أنه بعد عقود عدّة من نهاية الامبراطوريات الاستعمارية، لا يزال عالمنا يعتمد على المعارف التي تُعممها اصلا لترسيخ أقدام الفتوحات الامبريالية؟ لماذا لم يترافق انهاء الاستعمار السياسي مع انهاء الاستعمار الفكري؟"

* انظر الفصل السابق : "السمات الثقافية في كتابات فانون" – حيث عرضنا موقف الطبيب "بورو" وبعضا من تصريحاته العنصرية في المنابر الدولية

[155] فرانز فانون في المؤتمر الأول للكتاب والفنانين السود – باريس – 1956

[156] فانون : لاجل الثورة الافريقية - المرجع السابق - ص 13

ويشير الكاتب إلى أن الكثير من الباحثين طرحوا منذ نهاية السبعينات من القرن الماضي، أُسُس تفكير نقدي، تاريخي ونظري، حول إرث الحداثة الغربية، وتمحورت عمليات التفكير هذه حول مشروع تفكيك هذه "الهيمنة"، من خلال رفض ادّعاءات الغرب بمشروعيّته العالمية، لافتاً النظر إلى أن مسألة العلاقة بين الهيمنة السياسية والهيمنة الفكرية طُرِحت في الوقت نفسه مع صدور كتاب "الاستشراق" لـ"إدوارد سعيد"[157] . وقد اتجهت عمليات تفكير الباحثين نحو السعي لإيجاد طرائق معرفية متعدّدة خارج أطر الغرب وتلاقت بدءاً من ثمانينات القرن الماضي، وذلك بفضل التحاق هؤلاء للعمل في الجامعات الأنغلوسكسونية وانتشار نصوصهم ، مما أعطى لنقدهم بُعداً عالمياً.

تكريس "فانون" كشخصية محورية في الدراسات ما بعد الكولونيالية:

شدّد "فانون" في جميع كتاباته أن الاستعمار لا يقتصر على حكم عسكري مسيطر، بل هو أيضا هيمنة ثقافية، محذّرا الدول المستقلة ربط مصيرها السياسي بمصير الدولة الام المستعمِرة.

فقد وُجِد أنه - جزاءا للمطالبات بالاستقلال والمناداة بالتحرر الوطني - لجأ المستعمِر ، بعد الاستقلال، إلى حِيلٍ جديدة من شأنها الإلتفاف على تلك المطالبات والتكيّف مع المتغيرات الدولية السائدة، وذلك من خلال العديد من

[157]ادوارد سعيد : "الاستشراق" تر. محمد عناني – ط1 – رؤية للنشر والتوزيع – مصر – 2006

الأدوات الـتى تم اسـتحدامها لتنفيـذ ذلك الغـرض مثـل:فرض السـيطرة الاقتصـادية عـلى الدول الأفريقيـة عـن طريـق الشـركات الأجنبيـة الـتى مازالـت تمسـك بزمـام الأمـور اقتصـاديا في الدول الأفريقيـة وإثقـال كاهـل الدولة اقتصـاديا بالقـروض والديـون، مـع إبقـاء الأوضـاع الإثنيـة كـما هي عليـه في الدول الأفريقيـة عـن طريـق تـدعيم إحـدي الجماعات الإثنية على حساب غيرها من الجماعات.

تكتـب "سـيمون دي بوفـوار" وتركـز عـلى أن "فـانون" "كان يحـلم بإفريقيـا متحـررة مـن الاسـتغلال الأجنـبي ويحـذر مـن الاسـتعمار الجديـد الذي يتمثـل في "التعبئـة الثقافيـة والاقتصـادية والاسـتغلال الرأسـمالي وتكـريس جغرافيـة الجـوع مـكان جغرافيـة الاسـتعمار التقليـدي". وتقـول : "إن "فـانون" يـرى "أن الاسـتقلال هـو مـرحلة واحـدة فقـط في مسـيرة التحـرر. فالتحـدي الأكـبر لدول افريقيـا هـو طريقـة الحفاظ على هذا الاستقلال"[158].

في كتابـه "معـذبو الأرض" (ص131) يـرسم "فـانون" صـورة للإنسـان الافريقي الجديد، حيث يركز على عدم تقليد أوروبا والإقتداء بها. "أوربـا - يقـول فـانون - مـن خـلال جرائمهـا ضـد الإنسـانية التـي لا حصـر لهـا لا يمكنهـا أن تكـون النمـوذج الأمثـل لشـعوب افريقيـا، حيـث قامـت أوربـا باسـتعباد خمسـة أربـاع الإنسـانية، باسـم الفكـر... حـين أبحـث عـن الإنسـان فـي التكتيـك الأوربـي، والأسـلوب الأوربـي لا أرى إلاّ سلسـلة مـن الإنكـارات للإنسـان، إلاّ مواكـب

[158] Simone De Beauvoir : « La force des choses » op.cit – Page 118

من جرائم قتل الإنسان... المطلوب ليس التخلي عن القومية لأنها فكرة غربية ساهمت بشكل كبير في التحرر من الإستعمار ، لكن المطلوب هو استقلالية هذه القومية عن الموروث الغربي الذي حاول دائما إلغاء ثقافة وفرض ثقافة غربية على اعتبار أنها الثقافة الأنفع للإنسانية جمعاء."[159]

يحث "فانون" على الابتكار والاكتشاف لأنه الوحيد الكفيل ببلوغ مستوى أعلى على نحو ما بلغته أوربا ، كما يحذر شعوب افريقيا من عقدة الرغبة في اللحاق بأوربا ، وتقليدها تقليدا أعمى، ومن ظاهرة الانطواء على الذات التي يتخذها الانسان الافريقي. "ان التحرر الحقيقي - يقول "فانون" هو زوال عقد النقص لدى الانسان الافريقي الذي لم يتخلص من توهم تفوق الأوروبي عليه... فالطبيعة لم تخلق عبيدا ولا أسيادا وإنما سلطة الخيال التي وقفت ضد سلطة الواقع والرغبة في الهدم والتحطيم"[160]

[159] فانون : "معذبو الأرض " – المرجع السابق – ص 142

[160] فانون - معذبو الارض - المرجع السابق - ص 170

الفصل الثالث:

مـــنـــاقـشـــة الـفـرضـيـــات

المبحث الأول : مناقشة فرضية تأثير الثورة على فكر «فانون»

حقـق «فـانون» فـيما بـين 1952 و 1961 تطـورا فكـريا عميقـا قفـز فيـه مـن التمـرد عـلى الزنوجـة الى الثـورة الوطنيـة القوميـة بعـد انطـلاق حـرب التحريـر الجزائريـة، الى نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث.

فقـد اتاحـت له ثـورة الجزائـر اتصـالات جديـدة مـع العـالم الخـارجي و تجربـة ضخمة أدت الى أن يعيد النظر في أفكاره و يتخذ موقفا نقديا خلاقا.

و يمكـن التميـيز بـين أفـكار «فـانون»قبـل الثـورة الجزائريـة و أفـكاره بعـدها ، وذلك بسبب الاختلاف الرئيسي في التحديين الذين واجهمـا بين الفترتين التاليتين :

الفترة الأولى :

و هي مـا عـاشه في هـذه الفـترة مـن تميـيز عنصـري عـانى منـه عـلى يـد الجنـود الفرنسـيين ، حيـث فـوجئ بعنصريـة البـيض الفرنسـيين عـلى الـرغم مـن أنـه يناضـل معهم جنبا الى جنب ضد العنصرية النازية الألـمانية.

يقـول فـانون: "اني أعـترف مـن دون صـعوبة مـدى التـوازي فـيما بـين عـقلية رجـل الاستعمار و التصرف العنصري للبيض في بلدي "[161]

[161] وارد في كتاب"ألبير ميمي" متعرضا لمعاناة «فانون» العنصرية - ص 47
(Albert Memmi « Portrait du colonisé » Ed.Gallimard - 1985)

موقـف «فـانون» مـن العنصـرية هـو موقـف ضـد العنصـرية البيضـاء ، ثـائرا عـلى ماض هو ماضي المارتينيك و ماضي الزنوج بصفة عامة .

يقول «فانون» في مجموعة "لأجل الثورة الافريقية " تحت عنوان " عنصرية وثقافة": "لأن العنصرية المتطرفة تظهر في مظهر العقلانية و الحتمية الوراثية والمظهرية ، فهي تتحول الى عنصرية ثقافية، ويصبح موضوع العنصرية ليس هو الانسان الخاص ولكن هو نمط وجوده "

تجربـة «فـانون» في فرنسـا عـلى جبهـة القتـال جعلتـه يـدرك مـدى تـأثير "سـواد بشـــرته " عـلى طريـق تعامـل الفرنســيين معـه* و يـدرك ان الزنجـي يحتـل مرتبـة متدنية.

هـذه المعـاناة دفعتـه إلى تبـني أفـكار الزنوجـة وتأييـده لخـط أحـد مفكـري الزنوجـة وهو "ايمي سيزار"

كـما وجـدت هـذه المعـاناة فـيما بعـد اصـداءها في كتابـه " بشـرة سـوداء ، أقنعـة بيضـاء" ألفـه عـام 1952 ليوجـه فيـه نقـدا شـديدا للممارسـات العنصريـة الـتي لقيهـا هـو بنفسه في فرنسا .

* " اني أتوق الى أن اتصور نفسي مندمجا بالموجة البيضاء التي يشكلها رجال من أمثال سارتر وأرغوان ، ولن أصلب شيئا غير ذلك " (فانون) : "المثقفون و الديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية)" ضمن مجموعة "لأجل الثورة الافريقية" ص85 – الطبعة الفرنسية 1957/12/30

الفترة الثانية :

وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

أولا : مرحلة انضمامه للثورة الجزائرية

وهي التي تتميز بغلبة الاتجاه الراديكالي على أفكار "فانون" ، حيث انه - على عكس ما كان قد تبنّاه من ايديولوجية يسارية وتأثرٍ بالجدل الماركسي- أصبح يتكلم بلهجة تقف على طرف نقيض مع الصورة المطلوبة من رجال اليسار، المتمثلة في مجرّد المطالبة بالتخلص من الظلم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية. فقد أصبح يمثل بعد انضمامه الكلي للثورة الجزائرية قوة المثقف المناضل الذي لا يواجه الظلم الاجتماعي وحده - حسب المفهوم اليساري - بل يواجه ما يحس به من تعذيب نفسي وأيضا من طموح إلى تحرر في الجزائر لانتمائه لشعب افريقي لا يرفضه من أجل لونه، بل، أكثر من ذلك ، يفضله عن أوروبيين من بشرة بيضاء انضموا للثورة.

يقول «فانون»: " بصفتي رجلا من غير البيض عايش التجربة بفرنسا، يسهل علي أن أتقمّص نفسية الرجل الخاضع للاستعمار" [162]

والواقع أنه - على الرغم من وصفه ماركسيا من حيث العقائدية - إلا أن انخراطه في صفوف الثورة الجزائرية جعله يتعاطف مع الشخصية الجزائرية بالصورة النضالية الفريدة التي يتسم بها النضال العربي الاسلامي في وجه

[162] فرانز «فانون»: "لاجل الثورة الافريقية" – المرجع السابق – ص 92

العـدو، و ينـدمج في هـذه الأفـكار و يـبتعد عـن الصـورة المطلوبـة مـن رجـال اليسار.

صحيح ان «فـانون»كان قبـل الثـورة مولعـا بمبـادئ اليسـار الفرنسـي و تطلعاتـه لمواساة الشعوب المستعمرة و استقلالها *

لكـن حـرب الجزائـر أزاحـت النقـاب عـن هـذا اليسـار الذي كان يتـذرع بضـرورة مراعـاة مشـاعر الـرأي العـام الفرنسـي السـياسي هـروبا مـن الالـتزام المطلـق، و يتـذرع وراء شـعارات مزوقـة بات «فـانون»يرفضـها لأنـه اكتشـف في الجزائـر عجزهـا عـن الوفـاء بمهمتهـا التاريخيـة الحقيقيـة و تأرجـحها بـين الاسـتنكار للقمـع و بـين الاعـتراف بالواقع الجزائري، مكتفية بالنظريات بدل التفكير في تطبيقها .

لعـل أول دراسـة قـام بهـا "فـانون" بعـد مزاولتـه الصـحافة في جريـدة "المجاهـد" هي سلسلة مقالاته "المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الفرنسية"[163]

إنهـا مقـالات ثـلاث كانـت كلهـا ضـد اليسـار لأنـه كان عنـد كتابتـه لهـذه المقـالات قـد انـدمج في صـفوف الثـورة الجزائريـة فاكتشـف أن المفـاهيم الذي اكتسـبها مـن

*"بعض نظريات المثقفين لا تنفك تنادي بضرورة العنف ضد المستعمر ، الا أنه في حقيقة الأمر ، نجدها عقيمة في كتاباتها، اصلاحية في أعمالها و ممارساتها " (مقال من مقالات ثلاث حول هذا الموضوع جاءت بقلم «فانون»في جريدة «المجاهد»بعنوان المثقفون و الديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية ص47)

[163] لأجل الثورة الافريقية - ص 65 إلى 99 (الطبعة الفرنسية)

اليسـار والـتي كان يـؤمن بهـا باتـت غـير مقنعـة، بعيـدة عمـا يعيشـه مـن ثـورة فعليـة. فهي مجرد نظريات وهمية.

و مع قيام الثورة و انضمامه لها بدأ «فانون»يسخر من هذا اليسار و ينتقده .

يقـول «فـانون»" ان اليسـار الفرنسـي متـأثر دون وعـي بخرافـة "الجزائـر فرنسـية" وذلك ما يزعزع مبادئه"[164]

و عـلى الـرغم مـن أن هنـاك مـن نـدد بالتعـذيب مـن طـرف القـادة الفرنسـيين إلا أن «فـانون» يـرى هـذا التنديـد غـير كاف مـا دام هـؤلاء يتشـبعون بفكـرة الوجـود الاسـتعماري في الجزائـر. يقـول فـانون: " مـن أراد أن يكـون منطقيـا ومعقـولا مـع نفسـه ، عليـه أن يثـور ضـد الجهـاز الاسـتعماري بـأكمله، لا أن يثـور ضـد التعـذيب ويؤيد بقاء الاستعمار بالجزائر"[165]

نفـور «فـانون» مـن اليسـار الفرنسـي يعـد بـلا منـازع أحـد مظـاهر تـأثير الثـورة عليه

ثانيا : مرحلة التجربة النضالية التي قدمتها الجزائر للعالم

وهي التي كـان لها أعمق الأثر على فكر «فانون»و على مؤلفاته.

[164] فرانز فانون: " لاجل الثورة الافريقية" – المصدر السابق ص 74-75

[165] نفس المرجع ص 111

و دليلنا على ذلك:

ان أجود ما تناوله «فانون»في كتاباته – كما يعترف بذلك غالبية الباحثين - تم تأليفه ابان حرب التحرير حيث تطعم بأفكارها و كان واحدا من أبنائها .

و لئن كان – كما ذكرنا في الصفحات السابقة – أول كتاب له قد ظهر قبل الثورة بعامين و هو " بشرة سوداء أقنعة بيضاء "[166] قد مثل تحليلا للعنصرية وتمردا ضد ما يعانيه الزنجي فجعله بذلك يحتل مكانة مرموقة بين المثقفين الفرنسيين، إلا أن آخر كتاب له عام 1961 ، عام وفاته، و هو "معذبو الأرض[167] مَثَّلَ تحليلا للاضطهاد الشامل في الأرض و تنديدا بالغرب الاستعماري كله ، رفعه الى مستوى عالمي ، حيث اتضحت له من خلال الثورة الجزائرية على وجه الخصوص ضرورة نهضة افريقيا كلها و تحررها من نير الاستعمار ، لا سيما أن الجزائر قد أتاحت له الفرصة ، بفضل ما كانت تسنده له من مهام كممثل لجبهة التحرير الوطني ، بأن يتصل لأول مرة بإفريقيا السوداء ويتعرف على تجاربها النضالية فيلتقي بقادتها و ممثلي حركاتها الوطنية التحريرية.

[166] F.Fanon : « Peau noire, masques blancs » op. cit

[167] F.Fanon : Les damnés de la terre – Op.cit

كان «فـانون»في ديسـمبر 1958 عضـوا ضمـن الوفـد الجزائـري إلى المـؤتمر الأول لاتحـاد الشـعوب الأفارقـة بـــ : غـانا*. وفي هـذا المـؤتمر ، صرح "فـانون": " أن الجزائـري لا يحس كونه جزائـريا إن لم يتـأثر مـن اعماقه بالفاجعة غير الموصوفة الجارية بروديسيا او أنغولا" [168].

بعـد هـذا اللقـاء الاسـاسي مـع افريقيـا السـوداء يتـدخل «فـانون»في المـؤتمر الثـاني للكتـاب والفنـانين السـود نهايـة مـارس 1959 بروما، بعـد أن جـرى اللقـاء الأول بباريس في نـوفمبر 1956 ، حيـث ، عـلى الـرغم مـن مسـاعي الحكومـة الفرنسـية وممارسـتها لضـغوط عـلى الايطـاليين منـع حضـوره، إلا أنـه ، وفي تـدخله، صـبّ جـامّ غضـبه عـلى الاسـتعمار الفرنسي- متوسـعا في عرضـه حـول الثقافـة الوطنيـة وحـركات التحرير.

ابتـداء مـن هـذا الوقـت ، يبـدأ «فـانون» بإقامـة علاقـات مميزة - كممثـل للجزائـر - مع مختلف الوفود الافريقية وحركات التحرر.

* «فانون»يواصل إقامته في غانا لأكثر من 12 يوما ممدِّدا لقاءاته مع مختلف القادة السياسيين الذين يلتقيهم لأول مرة، فضلا عن الرؤساء نيكرومة وسكوتوري ونييريري وفيليكس موني (إتحاد الشعب الكاميروني) وأنبوا ، زعيم حركة الاستقلال في كينيا وخاصة الرئيس لومبا، أحد ممثلي الحركة الوطنية الكونغولية، ليعود بعد ذلك إلى تونس بمجال جديد للتفكير والعمل.

168 «المجاهد»- 24 ديسمبر 1958 ص 34

ووفقا لهذا الالتزام يجد «فانون» نفسه رسميا، ثلاثة اشهر بعد انعقاد المؤتمر سفيرا في افريقيا للحكومة الجزائرية المؤقتة مع نقطة اقامته في آكرا بغانا.

هذه المهمة الجزائرية الموكلة له ستدفعه للتدخل في آكرا من 07 إلى 10 أفريل 1960، وفي مؤتمر السلم والأمن بإفريقيا وفي كوناكري من 12 إلى 15 أفريل في المؤتمر الآفرو-آسيوي ، وفي ليبيريا حيث سيجهد للحصول على الاعتراف بالحكومة الجزائرية المؤقتة ، وفي ليوبولفيل نهاية أوت.

وفي جميع تدخلاته يشير «فانون» إلى اهمية الثورة الجزائرية في تحرير القطر الافريقي من الاستعمار. يقول «فانون»: " الابتكارات السياسية الفرنسية في باقي افريقيا لم تظهر للوجود إلا بحكم الضغط الذي مارسته حرب الجزائر" [169]

و هكذا راح يستلهم ما عرفه من حاضر الثورة الجزائرية ليفهم التناقضات التي كانت تهز الأقطار الافريقية.

و كان البعد الافريقي من أوضح هذه الابعاد و أشدها ظهورا بسبب وجود عدو مشترك هو فرنسا التي كانت انذاك تسيطر على عدة بلدان من افريقيا الغربية الاستوائية.

[169] Alice Cherki : Frantz Fanon - Portrait – Op.cit – Page 201

يقـول «فـانون»:" ان حـرب الجزائـر قـد هـزت التـوازن الاسـتعماري هـزا عنيفـا في افريقيـا فـلا يوجـد في افريقيـا جهـاز واحـد لم تـدخل عـلى أجهزتـه تغيـيرات قـرأت حسابا لحرب الجزائر"[170]

هـذا فضـلا عـن أنـه قـد اتـيح لفـانون، سـواء عنـد تحريـره كصـحفي "بالمجاهـد" أو عنـد أدائـه للمهـام الديبلوماسـية الـتي كلـف بهـا أن يتعـرف عـن كثـب عمّـا وصـلت إليـه الثـورة الجزائريـة مـن تجـاوز لإشـعاعها المحـلي لتمتـد لمحـيط العـالم الثالـث كلـه فتعـرف داخـل الثـورة الجزائريـة عـما اعتمدتـه في صراعهـا ليسـتخلص منهـا تجربـة قـدمها للعـالم الثالث في صراعه ضد الاستعمار.

هـذه التجربـة الافريقيـة طـبعت تغيـيرا حاسـما في وضـعية «فـانون»، وكانـت مظهرا لا منازع فيه من مظاهر تأثير الثورة عليه

ثالثا : مرحلة اكتشاف «فانون» لدور الثقافة الوطنية في إزالة الاستعمار

حيـث بات يـؤمن بـدور تفعيـل المقومـات الأساسـية للشخصـية الجزائريـة كسـبيل لوقايتهـا مـن الذوبان في شخصـية المسـتعمِر. ومـن هـذه المقومـات الديـن الاسـلامي الذي كان «فـانون» قبـل انضـمامه للثـورة يجهـل عنـه كل شيء ، ذلك أنـه - إذا كنـا لا نجـد في كتاباتـه السـابقة لفـانون مـا كان يـوحي بمظـاهر التمسـك بالعـادات الدينيـة كجانـب إيجـابي، إلا أنـه بـات - بعـد انضـمامه للثـورة - يقـف عـلى طـرف نقيـضٍ عـلى مـا كان يتحـدث بـه قبلهـا، حيـث أصـبح يتنـاول هـذه الـمرّة مظـاهر التمسـك

[170] فانون : " لأجل الثورة الافريقية" – المرجع السابق – ص 55

بالثقافة الوطنية بما فيها الدين الإسلامي كسبيل للحفاظ على الشخصية الجزائرية الأصيلة.

يقول «فانون» : "مقابل كراهيته والحقد والرغبة في الثأر التي تميز المستعمِر" نجد الروح الدينية والمعتقدات الاسلامية المطمئنة هي التي تميز الخاضع للاستعمار "[171]

ويكفي أن نعود إلى ما كتبه «فانون» بـ"المجاهد" عام 1958 بعنوان "الانبعاث الوطني والثورة الديمقراطية" لنستجلي أن هضم «فانون» للكثير من أفكار ومبادئ الحركة الوطنية يجعل بالتالي من الصعب اعتبار كتاباته شيئا منفصلا عن تأثيرات الثورة عليه

المبحث الثاني : مناقشة فرضية تأثير فكر «فانون»على الثورة

جاء في جزء من الكلمة التي ألقاها قائد جيش التحرير في تأبين «فرانز فانون» بالجزائر ما يلي :

"ألـهَمَت كتاباتك و مواقفك للثورة الجزائرية و استفادت اصداراتنا الثورية كـ"المقاومة الجزائرية " و"المجاهد" من تحليلاتك العميقة و الدقيقة (...) شاركتَ في مؤتمرات دولية عديدة ، في أكرا ومنروفيا وتونس و كونا كري راديس أبابا

[171] «فانون»- «المجاهد»- الطبيعة الفرنسية : رقم 17 - 1958/11/01

وليوبولدفيل ساعياً الى تعريف العالم بالوجه الحقيقي لثورتنا و شارحاً لحقائق كفاحنا ..."*

وقال عنه الرئيس الجزائري الأول "أحمد بن بلة" في ذكرى لحياته مترحما عنه:"لم يكن "فانون" رفيق السلاح في المعركة فحسب، بل كان المرشد والموجّه لأنه ترك لنا من انتاجه الفكري و السياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية " [172]

لقد أدت مجموعة من العوامل الى ترويج فكرة استقرت في الأذهان و كثيرا ما ترددت عند من درسوا «فانون»و بحثوا في كتاباته ، و هي أن «فرانز فانون» قد أثر في الثورة الجزائرية تأثيرا حاسما ، بل أن هناك من بالغ في تضخيم دور «فانون» وتأثيره على مجريات الثورة الجزائرية حتى بات يُعتقد أنه المؤطر الايديولوجي لها وفيلسوفها و مفكرها مثلما كان " جان جاك روسو " مفكر الثورة الفرنسية*

* تقول ايرين جيزيي : " القادة الجزائريون الذين امكنني لقاءهم عام 1971 لهم رأي مشترك - عند تعرضهم ل»فانون»- وهو تفادي أي حديث عن أفكاره السياسية، حماية للثورة الجزائرية وحتى تكون هذه الثورة ذات جوهر جزائري بحث " (Irene Gendzier : « F.Fanon - Ed. Seuil 1976)

[172] صحيفة الجمهورية اليومية الصادرة بوهران - 1962/12/27 - ص 2

*"كتب «فانون»هي بحق أداة لنضج الاستعمار تعالج حيل الاستعمار الملتوية" - سيمون-دي-بوفوار (فلسفية ووجودية مساندة للثورة الجزائرية)

و الواقـع ان صـاحب "بشــرة سـوداء أقنعـة بيضـاء"كان ملهـما لـكل داع مـن دعـاة التحـرر الـوطني في الجزائـر و في غيرهـا و كان له الأثـر الكبـير في عـلم الـنفس والتحليل النفسي ...

كما أن اثاره الفكرية كانت و لا تزال

مـن جهـة أخـرى فـإن فرضـيتنا الأولى الـتي أشرنا فيهـا الى سريان تـأثير الثـورة الجزائريـة عـلى أفكار «فـانون»قـد باتـت فرضـية مؤكـدة بالنظـر لمـا تم تحليله، بعـد أن جعلتـه هـذه الثـورة يرتقـي الى أسمـى مراحـل النضـال و يهضـم الكثـير مـن مبـادئ الحركة الوطنية الجزائرية، كونه تطعم بأفكارها و استمات من أجلها.

و مـع ذلك ففرضـية تـأثير فكـر «فـانون»عـلى الثـورة الجزائريـة تبقـى بـدورها مؤكـدة كـون احتكاكـه بالثـورة جعـل هـذه الثـورة تسـتفيد مـن نشـاطه الدبلومـاسي والطـبي و مـن كتاباتـه المتميزة الـتي فضـحت الاسـتعمار و ابـرزت الملامـح الكـبرى لشخصية الرجل المستعمِر .

" تعاطفـه مـع الثـورة الجزائريـة في البدايـة تم انضـمامه لهـا معانيـا آلام شـعبها كانـت فرصـة لا تعـوض و مـادة لا تلـين لأنـه بات خـير الطبيـب و نعـم الكاتـب والموجـه الايديولوجي" [173]

[173] أبو القاسم سعد الله : "تاريخ الجزائر الثقافي 1954 -1962 "– عالم المعرفة – الجزائر 2015 ص 134

و في حـين يـرى مـالك بـن نـبي أن " عمـل "فـانون" سـيظل ذا قيمـة لا تقـدّر"[174] يـرى عبـد القـادر خليفي" ان الثـورة الجزائريـة اسـتفادت مـن "فـانون" لجـانبين اثنـين : " لـون بشـرته تجـاه الأفارقـة و ثقافتـه الواسـعة تجـاه الغـرب أي كسـبها به لعالم الزنوج في افريقيا و أمريكا اللاتينية و لعالم المثقفين الى جانب الثورة "[175]

لقد كتب «فانون» عن الثورة أجود المؤلفات بقلمه الناري الناقد للاستعمار فكان فكره مرجعا أساسيا للعديد من الجزائريين بحيث كان بتحليلاته الرائعة لدور الشخصية الوطنية و قيمها وصراعها ضد الثقافة الاستعمارية ولخطاباته و مقالاته بجريدة «المجاهد» الافريقي العميق في أوساط المثقفين الجزائريين* فضلا عن أنها قد جعلته يتبوّأ مكانة هامة لدى المفكرين الفرنسيين فكان من ذلك على سبيل المثال اعترافهم سنة 1957 بخطأ موريس طوريز الذي كان يجعل هضم الأقلية الأوروبية واندماجها في المجتمع الجزائري شرطا مسبقا لتكوين الأمة الجزائرية.

جاء في كتابات «فانون» في مجلة "كراس الشيوعية " في أوت 1957 مايلي:

---

[174] مالك بن نبي : المرجع السابق – ص67

[175] عبد القادر خليفي : محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830 -1962 - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 2010 ص 118

خضر بورقعة : شاهد على اغتيال الثورة – ط 2 –دار الحكمة الجزائر 2000 ص 257

* التحقت بالثورة ... بمناسبة خطاب ألقاه "فانون" بمقر الكشافة الاسلامية " زهير احدادن (كاتب ومؤرخ و أستاذ تاريخ الاعلام بجامعة الجزائر 3)

"ان الجزائـر تجمـع اليـوم كل مظـاهر الامـة - فهـي مجموعـة متكونـة تاريخيـا ومستقرة لغويا وترابيا واقتصاديا"[176]

و ذلك مظهـر آخـر مـن مظـاهر فرضـية تـأثير فكـر «فـانون» عـلى الثـورة الجزائرية

وأمـا بخصـوص فرضـية رفـض الانـدماج وتبـني العنـف الـراديكالي فـإن كتـاب "بشـرة سـوداء، أقنعـة بيضـاء " الذي طـرح فيـه "فـانون" العنصـرية وعالجهـا مـن منطلـق سوســيولوجي ســياسي والذي اعتمــد فيــه عــلى تجربتــه الشخصــية، كان له الدوِيّ العميـق لأنـه كُتِـب مـن قِبَـل رجـل أسـود فضـح الحضـارة الغربيـة، في حـين كان البـيض قـد تعـودوا أن يطرحـوا أوضـاع السـود بأنفسـهم، حسـب توجهـاتهم، فكانـت المـرة الاولى التي ينظر فيها لهذا الجانب بنظرة سوداء.

ومـع ذلك، اذا كان "فـانون" يـرفض الاعـتراف بالقـيم الزنجيـة وبالعـالم حيـث بـدأ حياتـه الفكريـة في جـزر المارتينيـك عـلى يـد "ايمـي سـيزار" أحـد مفكـري الزنوجـة واعتَبر حينهـا زنجيـة الزنجي أمـرا مسـلما بـه لا يحتـاج إلى بلورتـه وابـرازه، إلا أنـه - بعـد احتكاكـه الفعـلي بالثـورة الجزائريـة - انقلـب عـلى فكـر الزنوجـة فصـب جـامع انتقاداتـه عـلى معلمـه "ايمـي سـيزار" بسـبب مـيله لنزعـة الانـدماج بدعوتـه التصـويت عـلى الاسـتفتاء الخـاص بـأن تبقى جـزر المارتينيـك ضمـن السـيادة الفرنسـية مـع تمتعهـا بالحـكم الذاتي، وهـو مـا عَكَـسَ بوضـوح التنـاقض في فكـر "ايمـي سـيزار" الذي كان يـروج

[176] موريس طوريز:" نصوص مختارة من الجزائر (نشر الحرب الشيوعي الفرنسي)

للثقافة الافريقية والاستقلالية الافريقية وليس قبوله بالحكم الذاتي الخاضع لفرنسا، وكان موقف الثوار الجزائريين الرافضين للاندماج وانتهاج أسلوب الكفاح المسلح ملهما لفانون في تبنيه ودعوته الملحة في استخدام العنف الراديكالي على النحو الذي عرضناه بتوسع في الفصل الأول من هذا الباب

الـخـاتـــمـة

الخـــاتـمـة:

لعـل كل مـن يتعـرض لدراسـة الشخصـية الجزائريـة قبـل 1954 و بعـدها يمكنـه التعرف عليها في صفحات "فانون" .

لقـد آثـرنا أن نتنـاول مـا أبـرزه "فـانون" في كتاباتـه مـن ملامـح هـذه الشخصـية ونتائجهـا النفسـية و قمنـا بالتـذكير بـأهم التوجهـات النظريـة الـتي أسـهمت في سـبر اغـوار الشخصـية و الكشـف عـن مكوناتهـا و خباياهـا الجوهريـة عنـد "فـانون"، لحرصـنا نحـو اسـتجلاء الظـروف السياسـية والفكريـة الـتي نشـأ وترعـرع فيهـا ، ومـدى تغلبـه عـلى الثقافـة الفرنسـية الاسـتعمارية ليطوّعهـا في خدمـة الشـعوب المسـتعمَرة. وذلك جانـب مـن الحقيقـة يؤكـد فرضـيتنا الأولى و هي تـأثير الثـورة الجزائريـة في "فـانون" باعتبارهـا قـد خلصـته مـن عقدتـه تجـاه الأبـيض الأوروبي فـكان تحلـيله لميكانـيزم الاسـتعمار السـاعي الى تفتيـت الشخصـية الوطنيـة و القضـاء عليهـا مـن الداخـل عـلى غـرار مـيزة تحلـيله مـثلا لدور المـرأة الجزائريـة في الحفـاظ عـلى الشخصـية الوطنيـة وميكانـيزم الاسـتعمار لتحطيمهـا (الفصـل الأول مـن كتـاب "سوسـيولوجية ثـورة") وتحلـيله لدور التغـيرات الاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسـية الـتي حققتهـا الثـورة بفضـل المواقـف البطوليـة الـتي وقفتهـا الأسرة الجزائريـة (الفصـل الثالـث) بحيـث كان اكتشـاف فـانون لمثـل هـذه الظـاهرة وتسـجيله لهـا ذلك التسـجيل الرائـع في كتابـه المـذكور، يعـد اكتشـافا فذّا لدقة وعمق تحليله في ظل ظروف المخاظ الثوري الذي عايشه في الجزائر.

لقـد خلصـنا في هـذه الدراسـة إلى التعـرف في كتـابات "فـانون" عمّـا ابتدعتـه مكـونات الشخصـية الجزائريـة ومحـدداتها والـتي أمكـن بفضـلها أن تـؤثر بشـكل مبـاشر عـلى سـيرورة الثـورة الجزائريـة وعـلى مـا يجمـع الايجابيـات والنقـائص الـتي تطـال هـذه

الخـــاتـمـة:

الشخصية في ظل الأحداث الجارية، والتعرف على ما يميّز السمات والخصائص التي ترتبط بتأثيرات المرجعية الثقافية وترصد في النهاية أساليب وطرق "فانون" في الكشف عنها

كما خلصنا بعد عرض موجز لهذه الأطروحات المختلفة إلى أن فهم الشخصية واستيعاب مدلولات سلوكها لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال نظرة تكاملية متفتحة ومتعددة الجوانب تتجاوز تناولاتها الاهتمام بالفرد لتُعنى بمعالم قيمه واتجاهاته ومعتقداته ورموزه وطقوسه وكل ما له علاقة بالمرجعية الثقافية

واتجه حرصنا بعد هذا إلى رسم الملامح المعبِّرة عن الشخصية الجزائرية كما تجلت في كتابات "فانون" لتتضح لنا صورتها ولنستبين مدلولها وندرك في النهاية مضمونها وشكلها وطبيعتها سواء في تعاملها وتكوينها وارتباطها بالعوامل الخلقية والنفسية الاجتماعية وتقديرها والحكم على توازنها ونضجها وتوافقها مع المحيط الاجتماعي والثقافي

وما نستنتجه هنا أن المسعى الخاص الذي اعتمده "فانون" في معالجة المرضى النفسيين الجزائريين قاده إلى التعرف على البيئة التي نشأوا فيها والتقاليد التي شبوا عليها ، فاكتشف وجود هوية ثقافية جزائرية تختلف كلية عن المزاعم الفرنسية. ولكونه رأى نجاعة ما يعتمده الجزئريون من استخدام أساليب من شخصيتهم تقيهم من التفتت وتسهم في عملهم التحرري، فقد أدرك بعمق طبيعة

الخـــاتـمـة:

الثقافـة الوطنيـة ودورهـا في صـناعة رفـض الاحـتلال، فبـات يشـيد بهـذه الثقافـة التقليدية ويكشف عن ملامحها الأساسية

إننـا نـرى مـن خـلال مـا تعـرض له "فـانون" أن الشخصـية الجزائريـة في تكوينهـا وبنيتهـا وديناميكيتهـا التنظيميـة تسـتند بـلا ريـب إلى واقـع اجتماعـي وثقـافي خـاص ، وبالتـالي فهـي لا تكشـف عـن نفسـها إلا مـن خـلال تحركهـا وتعاملهـا مـع الأحـداث السائدة.

هـذه الملاحظـات خلصـت إليهـا مجموعـة مـن الدراسـات السـابقة. ولكـن الذي لا يـنقص كل ممـارس سوسـيولوجي أو سـيكولوجي أو طبيـب نفسي- هـو أن يكـون بحوزته نموذجا انتروبولوجيا يتناغم مع واقع الشخص الجزائري ومعاناته ومشاكله.

لقـد نـجح "فـانون" في إيجـاد أرضـية تفـاهم مـع مشـروع الثـورة الجزائريـة، حـدا بـه لأن يصـل إلى فهـم الدلالات العامـة وتطلعـات الجزائـريين للحريـة، مـن خـلال تجـرده مـن الأفـكار الأوروبيـة العنصريـة الـتي كان يحملهـا تجـاه العـرب. وهـو مـا يفقتـده زمـلاؤه اليسـاريون والليبراليـون الأوربيـون، حيـث كانـت ثمـة ازدواجيـة تتمثّـل في تعـاطفهم مـع القضـايا البعيـدة عـنهم كفيتنـام وكـوبا، أمـا في الجزائـر فكانـوا يرفضـون أي مشـروع تحـرري لا يجعـل مـن قـيمهم الغربيّـة محـوره، ولا ينصـبّهم قـادةً فكـريين وروحـانيين، أو حتى يجعل منهم المرجع الوحيد والأساسي لذلك المشروع.

لقـد استخلصـنا مـن خـلال هـذه الدراسـة انـه - عـلى الـرغم مـن قصـر عمـر "فـانون"(36 عامـا فقـط) - إلا أن حياتـه كانـت زاخـرة بالعديـد مـن الأفـكار والمؤلفـات

الخـــاتـمـة:

الفكرية حاول خلالها تقديم العلاج المناسب للعديد من الاشكاليات التي واجهت الدول الافريقية عشية الاستقلال، كما عايش العديد من الأحداث الكبرى التي مرت بالعالم في الحرب العالمية الثانية وموجات التحرر الوطني بإفريقيا، وخصوصا منها الثورة الجزائرية التي أتيح لفانون من خلال مشاركته الفعلية فيها ورئاسته لمصلحة الطب العقلي بمستشفى البليدة ورئاسته تحرير جريدة "المجاهد" بالفرنسية الناطقة بلسان الثورة الجزائرية، وقيامه بالمهام السياسية والديبلوماسية كَمُمَثِّل خارج حدودها، أن يلمس عن كثب الالوان الجديدة التي ابتكرتها الشخصية الجزائرية، بابعادها ومحدداتها الثقافية والاجتماعية كونها عاملا من العوامل الأساسية في ترسيخ وتوطيد تماسكها وتوحيد أفكارها تحقيقا للانبعاث والتخلص من الاستعمار ، فكان تحليله لذلك في تقديرنا مثابة وثيقة تاريخية من اعظم الوثائق السياسية ومدخلا أساسيا لدراسة الهوية الجزائرية من الناحية السيكوسوسيولوجية.

ولعل ما يزيد هذه الدراسة أهمية - في رأينا - ويجعلها مثابة الوثيقة التاريخية، كونها سجلت الإختيارات الفكرية لفانون وجعلته يكتشف خفايا المشاكل التي يعاني منها المجتمع المستعمَر ونيران الثورة المسلحة مشتعلة، فكان لمعايشته أغوار هذه الثورة المسلحة أبعد الأثر على مؤلفاته، حيث تطعم بأفكار هذه الثورة واستمات من أجلها، فباتت كتاباته مساهمة جديدة في تحليلات ميكانيزم الاستعمار كانت مجهولة حتى الآن.

الخـــاتـمـة:

لقد تبين لنا بأن التمعن في مرجعيات فانون الفكرية يكشف أنه كان منغمسا على نحو عميق في عمليات المثاقفة مع الفكر الفلسفي الغربي، وفي تمثل وتوظيف نظريات التحليل النفسي ببعدها الفلسفي والعيادي معا لتفكيك الظاهرة الكولونيالية ونفسية المستعمِر والمستعمَر معا. ومن الواضح أن عمليات المثاقفة الفانونية ليست مقتصرة على اختبار مفاهيم ونظريات الفلاسفة الغربيين، بل قد تحولت على يديه إلى سلاح تحريري من الكولونيالية الغربية. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن نقده الفلسفي هو دحض للنظريات الفكرية والفلسفية التي تسوغ أشكال النفي، والاغتراب، ونزع السيادة عن الإنسان ضمن تعسف الشرط الكولونيالي، دفعت الأوساط الثقافية والاعلامية والسياسية الفرنسية إلى تهميش فكره. علما أن فكر "فانون" رَحَلَ إلى العديد من الفضائات الأكاديمية في العالم، وأصبح الأساس للدراسات "ما بعد الكولونيالية"، ولنظرية النقد الثقافي التي تعرف اليوم ازدهارا كبيرا في الجامعات الغربية .

لقد اكتشفنا أن كتاباته، إلى جانب كتابات "ايمي سيزار" و"ادوارد سعيد" و"ألبير ميمي" و"مصطفى الأشرف" و"مالك بن نبي" هي مادة خام للدراسات ما بعد الكولونيالية هذه كونها تعيد النظر في المواقف الأورو- مركزية للفكر الغربي الذي يعتقد اصحابها أن أوروبا هي أصل الحضارات وبقية العالم هي مجرد توابع متوحشة.

أما العنف الذي استجليناه من فلسفة "فرانز فانون" والتنظير له ، فهو مفيد على مستوى فهم الحال العربي المأزوم اليوم، على الرغم من أنه هو الآخر

نتـاج أدوات الغـرب المعرفيـة في مجـال تخصصـه المتمثـل في التحليـل النفسـي القـائم عـلى الشخص الاجتماعي والسياسي أو في مجال الفكر الفلسفي بصفة عامة.

لقـد تمكنـا مـن خـلال دراسـتنا لمـا تنـاوله "فـانون" في كتاباتـه حـول هـذا الشـأن إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا : (تأثير الخلفية النفسية الاجتماعية الجزائرية على تكوين فانون)

أننـا عنـدما نكشـف عـن مـدى تـأثير الثـورة عـلى تفكـير "فـانون"، فـذلك لـيس انـكارا لقيمتـه. فهـذا التـأثير كان نتيجـة تتبـع كرونولـوجي لكتـابات "فـانون" الـتي تعتـبر كلا لا يتجـزأ، مصـنّفة زمـانا، لأن المشـكلات الـتي عالجهـا انخـرط فيهـا بالتتـابع سـعيا إلى فهمها، حتى وان كان انتقاله لمعالجة الإشكال الجزائري يمثل نقطة مركزية .

فقـد تـرك لنـا "فـانون" في كل مـرحلة مـن مراحـل هـذا التتـابع الكرونولـوجي لأعماله كتابا معينا:

أ- كتـابا ذا منظـور سوسـيولوجي عـلمي، جعـله يقفـز مـن التمـرد الفـردي عـلى الزنوجيـة كفلسـفة تنـادي بقـيم الزنوجيـة: سجلهـا في كتابـه "بشـرة سـوداء أقنعة بيضاء"

ب- كتـابا محلـلا لمـرحلة الثـورة الـجزائرية: سجلهـا في كتابـه "سوسـيولوجية ثورة"

ج-كتـابا مـيزا لمـرحلة الأمـمية الـتي بلغهـا: سـجلها في كتابـه "معـذبو الأرض" دفاعا عن العالم الثالث

فكانـت هـذه كلهـا – فضـلا عـما تم جمعـه بعـد وفاتـه مـن مقـالات وكتـابات جُمعـت في مؤلـف "لأجـل الثـورة الافريقيـة" ، عنـاصر أساسـية أبـرزت عـبر تحليـل بارع أهم التوجهـات التنظيريـة الـتي أسـهمت في الكشـف عـن الخبـايا الجوهريـة للشخصية الوطنيـة، كما كانت مصدر الهام يستند اليه الكثير من المثقفين والمفكرين باخـتلاف ميـادين تخصصـاتهم، لتعـدد جوانـب فكـره وعلاقتهـا بالدراسـات الثقافيـة والسوسيولوجية.

ثانيا : (دخول فانون مرحلة الأممية بتوظيف تجربته في الثورة الجزائرية)

أن كثـيرا مـمن اجـرَوا دراسـات بشـأن "فـانون" ركـزوا عـلى كتاباتـه الـتي ظهـرت ابان الثـورة الجزائريـة، وغفلـوا عـن اجـراء مقارنـة علميـة شـاملة بـين مـا كتبـه قبل انضمامه للثورة الجزائرية وبين ما كتبه بعد انضمامه لها. هـذا مع العلم أنه اذا كان "فـانون" قـد سـاق كلامـا يصـلح لـكل بـلد مـن المسـتعمرات، فإنـه في الواقـع لم يـزد ان اعتمـد عـلى مـا اسـتقاه مـن تجـارب وخـبرات عاشـها في الجزائـر فصـاغها في قالـب أفـكار عامـة استخلصـها مـن التجربـة الجزائريـة، فـلم يعـد يفـرق بـين الجزائـر وبـلده الاصـلي "الأنتيي" بوجه خاص وأرض الاجداد بالقارة السمراء بوجه عام.

ثالثا : (تحويل فانون من مُنظّرٍ للثورة إلى صانع لها)

ان كتاباتـه وشـكلها الخـارجي أو المنهجـي والـتي أوردنا مقتطفـات كثـيرة منهـا في هـذه الدراسـة، اذا كانـت في بـدايتها معتمـدة عـلى قائمـة مـن المصـادر كان يستشـهد بهـا

وينتقدها، إلا انه حال انضمامه للثورة، بات يخفف من الاعتماد على هذه الركائز، اذ لم يعد مفسرا للفلسفة الاجتماعية بل غذا صانعا لها.

والأمر ذاته بخصوص المصطلحات التي اعتمدها في كتاباته هذه. فبعدما كان يتكلم عن الأبيض والأسود والتمييز العنصري، بات يستبدلها عند انضمامه للثورة بالمستعمِر والمستعمَر، مستخدما في كتابه الأخير "معذبو الأرض" لسان "العالم الثالث" في مقابل "السيطرة الغربية" و"الدعوة إلى العنف" في سبيل ازالة الاستعمار.

رابعا : (الفكر التنبؤي لفانون)

أن العبقرية التنبؤية لفانون غذت المرجع الأساس في مجال دراسات ما اصطلح على تسميته بـ "الدراسات ما بعد الكولونيالية" التي ظهرت في الدراسات الانجلوفونية في كل من الولايات المتحدة واستراليا والهند، علما أن ما زاد توسيع دائرة الاهتمام بـ"فانون" يتلخص في احتضان ثورة الزنوج بأمريكا لفكر "فانون" ، واعتبار كتاباته انجيلا ملهما لها في كل ما عرف عنها من شدة وانفعال، وصدى عميقا يعاد النظر بفضلها في المواقف "الأورو-مركزية" التي شكلت اطروحاتها تبريرا للاستعمار ودعوة إلى العنصرية، من خلال اعتبار الغرب مركز العالم وحضارة العقل في مقابل حضارات الأطراف في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وهكذا - وفي اعتقادنا - فإن "فانون" ظل حيا بعد الاستقلال، لأن أفكاره أصبحت تكتسب اليوم حياة جديدة بعد أن ظن الكثيرون أنها قد انتهت بانتهاء

الخـــاتـمـة:

عـالم الاسـتعمار العسـكري المبـاشر، وهـو الاسـتعمار العسـكري المبـاشر الذي بـدأ مـع بدايـة الالفيـة الثالثـة، والذي حـذر منـه "فـانون"، إذ وقعـت دول العـالم الثالـث فريسـة استعمار اقتصادي عميق،

فانخسـف حـلم الجزائـر الذي كان يُرتقـب أن يكـون بعـد انتصـار ثورتـه رائـدا لقـاطرة ثـورة العـالم الثالـث كلـه ، إذ عـاد الغـرب إلى تمجيـد تاريخـه الاسـتعماري بعـد أن انـزوى خجـلا لـبعض الوقـت*. وتطـور فكـر يسـتهدف نـزع النظـريات السـائدة في الغـرب بخصـوص حريـة الشـعوب، فأصـبحت المجتمعـات البيضـاء عندئـذ رافضـة - عـلى سـبيل المثـال - حـتى لاسـتقبال اللاجئـين الفـارين مـن وطـأة الأنظمـة الاسـتبدادية المحليـة ، القـادمين مـن العـالم الثالـث وذلك كـون الغـرب أصـبح غـير قـادر عـلى محـو ذاكرتـه الاسـتعمارية. وكأننـا عـدنا إلى نقطـة الصـفر، إلى العـالم الكولونيـالي الذي وصـفه "فرانز فانون".

نسـتخلص ممـا سـبق، أن فكـر "فـانون" كان فكـرا "مسـتقبليا" لأن الظـروف نفسها التي عاشها هذا الأخير ما تزال سائدة اليوم وبأكثر شكل من الأشكال.

<u>خـامسا</u> : (انعدام الدراسات الاكاديمية العربية لفكر فانون)

* - قال الوزير الاول البريطاني توني بلير : "لقد ولّى الزمن الذي كانت بريطانيا مضطرة فيه بالاعتذار عن تاريخها الامبريالي"

- وفي فرنسا جاء تمجيد واعتزاز تاريخها الاستعماري في البرلمان الفرنسي

الخـــاتـمـة:

ان "فـــانون" بكتاباتـــه واكتشـــافاته الميدانيـــة للملامـــح الثابتـــة للشخصـــية الجزائريـة، ودراسـته للفكـر الإسـتعماري بطريقـة سـيكولوجية وسوسـيولوجية توضّـح ماهيـة فكـر الانسـان الافريقي تجـاه الاسـتعمار، ارتقى إلى مسـتوى المثقـف الـراجح في تنظـيم الأمـور ممـا يسـتلزم قـرارات منتجـة تفيـد مـن الدراسـات التأويليـة والتوجيهـات الفلسفية المعاصرة وتيارات الفكر المعاصر وتطورات الثقافة.

كـما كشـف عـن امـكانات هـائلة عـلى صـعيد التنظـير الاكاديمي والنقـد الثقـافي لمشكلات الثقافة والتاريخ.

ويـــزداد الأمـــر إلحاحـــا اذا نظـــرنا إلى مكانتـــه في الدراســـات السوســـيولوجية والسياســـية والتاريخيـــة والفلســـفية في الجزائـــر والـــتي لم تقـــدم اســـهاما نظـــريا يســـمح بالحـديث عـن مقاربـة عربيـة أو جزائريـة خاصـة بفكـر "فـانون". ذلك أن كتبـه لم تعـرف الـرواج الـكافي ولم تـدرس بالجامعـات الجزائريـة ولم يُـوَفَّ قـدر هـذا المناضـل المتسـامي فكـرا وروحـا ، وذلك عـلى الـرغم مـن بعـض الاحتفـالات الدوريـة بمـآثره أو تسـمية بعض الشوارع والمؤسسات باسمه.

واجـمالا يمكـن التشـديد عـلى محدوديـة تـداول "فـانون" في العـالم العـربي وعـلى نوع من الحضور الشاحب لـ "فانون" في الفكر العربي.

والملاحـظ في هـذا السـياق أن الدراسـات العربيـة القلـيلة جـدا والمكرسـة للمفكـر "فرانـز فـانون" تخلـو غالبـا، إن لم نقُـل كليـا، مـن تقصـي الكيفيـة الـتي حـاور بهـا "فـانون" الفلسـفة الغربيـة بشـكل عـام وفلسـفات كل مـن " فريـدريك هيجـل" و"كارل

مـاركس"، و"كارل ياسـبرز" و"مـوريس ميرلـو بـونتي" وغـيرهم، فضـلا عـن أن هنـاك انعـداما للدراسـات العربيـة الـتي تعـني بتحليـل كتـابات "فـانون" وعلاقـة المسـتعمَر مـع المسـتعمِر مـن منظـوري التحليـل النفسـي، والطـب النفسـي الذي هـو التخصـص الأكاديمي لـ "فرانز فانون".

كل ذلك ... مقارنـة مـع الغـرب الذي وُجـد فيـه متخصصـون مـن المكرّسـين في منجـزه وشخصـيته معـا، فكتبـوا عنـه الكثـير وألفـوا حـوله الدراسـات والأبحـاث فاكتشـفوا كل مـرة جانبـا آخـر مضـيئا مـن منهجـه وأفـكاره. وامتـد الاهـتمام الغـربي المتزايـد بفـانون إلى إبـراز حـواره النقـدي مـع الفلسـفة الغربيـة بهـدف انزالهـا مـن فضـاء التجريـد والمفـاهيم الصماء إلى الواقع الإنساني.

سادسا : (التمسك بالثقافة الوطنية)

استخلصـنا ممـا جـاء في كتـابات "فـانون" أن التمسـك بالثقافـة الوطنيـة أُكتُشِـف كعنصـر في تحريـك الكفـاح المسـلح حيـث أصـبحت هـذه الثقافـة الوطنيـة - كـما يقـول - "المخـرج الوحيـد الذي يملكـه الجزائريـون لوضـع حـد لاسـتعمارهم واسـتغلالهم"، فبـات ينظـر إلى التقاليـد بمنظـر التمجيـد، في حـين كان قبـل سـنوات فقـط، ينكـر كل دور للتقاليـد ولا يعـترف بالمـاضي، وينظـر إليـه بعـين الاحتقـار وكمظهـر مـن مظـاهر الجمـود والانحطـاط، داعيـا الشـعوب المسـتعمَرة ألا يكـون ماضـيها غـير مـاضي الغـرب الاسـتعماري ان أرادت فعـلا الـتخلص مـن عُقـدِها، بـدل اللجـوء الى تقاليـدها وماضـيها وأسـاطيرها لاثبـات قوتهـا و عظمتهـا تجـاه المسـتعمِر، وبـذلك يقـف "فـانون"

على طـرف نقـيض ممـا كان يـؤمن بـه، بلهجتـه هـذه في كتابـه "بشــرة سـوداء ، اقنعـة بيضاء"، قبل انضمامه للثورة وتأثره بها .

سابعا : (الموقف العدائي الفانوني ضد حزبه اليساري)

تبـين مـن خـلال استعراضـنا لهـذه الدراسـة أن "فـانون" قـد تمـيز مـن بـين المفكـرين والأدباء كونـه لم يعـد ينتمـي لاي حـزب مـن الأحـزاب. لقـد كانـت الثـورة الجزائريـة وحـدها هي الـتي أتاحـت له ميـدانا عمليـا وتحـليلا أدبيـا وسياسـيا عـجّلت بما كان يخـتلج في نفســه ووجدانـه مـن تغـير وتحـول في تصـوره للعـالم، ذلك أن الثـورة الجزائريـة لم تـؤثر في فكـر "فـانون" فحسـب - عـلى النحـو الذي استعرضـناه سـابقا - بـل أدخلـت تعـديلا أساسـيا في نفسـيته حيـث أصـبح "فـانون" – فجـأة - لا يفهـم تـردد حـزب اليسـار الفرنسـي وميوعتـه، والذي بعـد أن ازيح النقـاب عنـه كونـه بقـي يتـذرّع بضـرورة الأخـذ بعـين الاعتبـار لمشـاعر الـرأي العـام الفرنسـي المتمسـك بفكـرة "الجزائـر فرنسـية" ويمتنـع عـن اتخـاذ أي موقـف واضح صريح، معتمـدا اللجـوء فقـط إلى شـعاراته المعتـادة الجوفـاء، تخلصـا مـن المسـألة الجزائريـة، باقتصـاره المنـاداة بمناهضـة الاستعمار ومساندة حركات التحرر في العالم.*

*يقول فانون : "لغة القيادة الجزائرية باتت لغة مسؤول ونداءات هذه القيادة للقوى الديمقراطية الفرنسية لم يعد تحريرها في أساليب خجولة ، وذلك ، على نحو :"إننا نقول لليسار الفرنسي: كونوا موضوعيين مع أنفسكم ... جسدوا شعاراتكم بدعم الثورة الجزائرية دعما حقيقيا لا يكتنفه أي نفاق" (ترجمة شخصية)

الخـــاتـمـة:

هـذا الموقـف المتذبـذب لليسـار الفرنسـي وعـدم اندفاعـه مثـل "فـانون" عمليـا للمنـاداة بالكفـاح المسـلح ** جعـل موقـف "فـانون" يتسـم بالعـداء والنفـور مـن هـذا اليسـار، بعـد أن كانـت علاقاتـه بـه طبيعيـة عاديـة. وتفسـير ذلك يعـود في تقـديرنا إلى أن "فانون" قطع كل صلة بماضيه بوصفه فرنسيا ومنضما سابقا لليسار الفرنسي.

ذلك أن "فـانون" بات مـن المفكـرين القلائـل الذيـن قـرروا التنـازل عـن جنسـيتهم الفرنسـية وإعـلان الانقطـاع التـام بالـوطن الام - فرنسـا - أي بعـد أن أصـبح جزائـريا قلبـا وقالبـا، إرتقـى إلى أسمـى مراحـل الانـدماج الكلـي في الشـعب الجزائـري، وغـدا يتصـور - بالتـالي - أنـه مـادام قـد اتخـذ هـذا الموقـف، فلـماذا لا يتخـذ الآخرون مثله الموقف ذاته؟

والواقـع أننـا لم نكـن نريـد الخـوض في تفاصـيل التطـور السـياسي لهـذا اليسـار بقـدر مـا كنـا نريـد معرفـة مـا احدثتـه الثـورة في تغييـر لفكـر "فـانون" حيـال هـذه المنظومة السياسية الفرنسية .

ثامنا: (الموقف الجديد لفانون للدين بوصفه محرك الثورة الأساسي)

** " لأن قناعاته يعقبها تطبيق عملي، فقد حاول "فانون" في آخر أيامه وهو يصارع الموت بتجسيد العنف (الكفاح المسلح)، من خلال فكرته حول خلق الجبهة الجنوبية الجزائرية مع مالي (Mali) ، واضعا اهدافها ومبادئ عملها لتدعيم الثورة الجزائرية (فرانسيس جونسون: - "حربنا" تر. ميشال لطوف" - منشورات ANEP - الجزائر 2006 ص 31)

عُنـــي فـانون عنايـة خاصـة بعنصـر الديـن وجعـله عـاملا أساسـيا مـن العوامـل التي أسهمت في إشاعة الاستقرار الاجتماعي وتعزيزه.

فـإلى جانـب تأكيـده عـلى الوظيفـة التكامليـة بالديـن إبان الثـورة ووصـفه لهـذا الدين بـ" محرك الثورة الاساسي ضد المحتل " [177] فقد عمـل على إبـراز العلاقـة التي تجمـع بـين وظـائف المعتقـدات الدينيـة والـنماذج المختلفـة للمجتمـع. وهكـذا بات "فـانون" يتحـدث عـن الديـن الإسـلامي بلهجـة تقـف عـلى طـرف نقـيض عـما كان يعتمـده قبـل احتكاكـه بالثـورة، خاصـة في كتابـه "بشـرة سـوداء أقنعـة بيضـاء" حيـث كان لا يـؤمن بأي دين ولم تتضمن كتاباته أي ذكر قط للإسلام.*

ويكفـي أن نطّلـع عـلى كتاباتـه في جريـدة "المجاهـد" ليتأكـد لنـا حديثـه - في أثناء الثورة التحريرية - عن الإسلام بأشكال مختلفة

ففـي احـدى مقالاتـه بهـذه الجريـدة، يُـرجِـع "فـانون" تشـكيل الشخصـية الجزائريـة ناجم عـن "مجيء الإسـلام واسـتقرار الثقافـة الوطنيـة...ذلك أن الجزائـر قـد أعطـت - عـلى غـرار تـونس والمغـرب - برهـانا سـاطعا لروحهـا الخلاقـة في المسـاهمة في تطـوير الحضـارة الإسـلامية، جـاعِلة منهـا إحـدى أسسـها الثقافيـة"[178]. ومـما يجسـد هـذه الفكـرة أنـه جـاء في أقـوال "فـانون": "أن المسـتعمِر اسـتخدم المسـيحية في الـترويج

[177] فرانز فانون : سوسيولوجية ثورة – المرجع السابق – ص 87

* كان موقفه هذا سببا في اتهامه من قبل المعهد العالمي للعمال في الأكاديمية السوفياتية بـ "الانحراف عن تعاليم اللينينية" لتأثره بثقافة الجزائر الاسلامية

[178] فانون: "الانبعاث الوطني والثورة الديمقراطية" جريدة "المجاهد" رقم 17 - الصادرة في 1958/02/01

لنموذجـه في افريقيـا، ولم يتـوان لحظـة عـلى إضـفاء طـابع عنصرـي عليهـا"، مضـيفا: "توجـد كنـائس للبـيض تـدعو إلى الله وكنـائس خاصـة بالسـود لا تـدعو إلى الله بـل تــدعو إلى الأبــيض، أي أن الكنيســة التبشــيرية في افريقيــا عملــت عــلى تســلط المستعمِر الاوروبي على كافة ديانات المستعمَرة" [179]

تاسعا : (ديمومة تنظيرات فانون واستمراريتها مكانا وزمانا)

أن التنـاقض الأسـاسي الذي طالمـا نُسـب لكتـابات "فـانون" تَرَكَّـزَ حـول مسـألة ان ملاحظاتـه تصـدق عـلى ظـرف معـين مـن تطـور المسـتعمرات في صراعهـا مـن أجـل التحـرر الـوطني ولا تصـدق عـلى مـرحلة التحـرر مـن الاسـتعمار الحـديث، وهي مـرحلة الصــراع ضــد الاســتغلال الذي يواجهــه الــبلد المتخلــف بعــد تحقيــق الاســتقلال السياسي.

غـير أن الواقـع أنـه تم اليـوم الاعـتراف بديمومـة أعـمال فـانون واسـتماريتها زمـانا ومكانا.

فقــد شــهدت الســتينات تحقيــق اســتقلال الجزائــر، وتمــيزت الســتينات في الوقــت ذاتــه بتحســس العــالم الثالــث للمشــاكل الاقتصــادية الــتي لم يكــن بوســع الاســتقلال الســياسي الشــكلي أن يحلهــا. فجــاء كتــاب "معــذبو الأرض" في فــترة مناســبة، لأنــه اســتطاع مــن خــلال التجربــة الــتي حصــلها مؤلفــة في ظــل الثــورة الجزائريـة أن يطـرح قضـايا تعميـق الثـورة، والمظـاهر السـلبية للاسـتقلالات الشـكلية،

[179] فانون : "معذبو الارض" المرجع السابق - ص 166

وان يكشـف النهـب الاسـتعماري لـثروات العـالم الثالـث، وإن يفعـل ذلك بمـا عُـرِف عنه من اللهجة الحادة والأسلوب العنيف.

ونظـرا لمـا تحمـله كتـابات "فـانون" مـن قـوة تنبؤيـة مـؤثرة، ومـا يحتاجـه العـالم الثالـث اليـوم مـن عمـل فكـري ثـوري، فقـد اعـاد العـالم الثالـث اليـوم إحيـاء "فـانون" لتعود كتاباته معاصرة وكأنها تكتب زمانا ومكانا بهذا العصر لا لغيره.

ذلك انـه عنـد قـراءة كلـمات "فـانون"، لا يمكـن للمـرء أن يمنـع نفسـه مـن الاسـتغراق في حقيقـة أن جُـلَّ مـا حـذر منـه يحصـل اليـوم وان تعـددت الأوجـه واختلفت المسميات.

إن افـكار "فـانون" تتحـاشى المـوت بعنـاد، مثـل الجـرح النـازف الذي يـرفض الالتئام، فالمظـالم الـتي يـدينها ويرفضـها فـانون بقـوة وحيويـة مـا زالـت معنـا حـتى اليـوم. إن شبح "فانون" ما زال يحوم حولنا.

فمنهجـه في محاربـة المسـتعمِر - قديمـه وجديـده - لا يـزال صـالحا إلى الآن في معظمه.

كـما أن التطـورات الـتي عرفتهـا الجزائـر بعـد الاسـتقلال، وبخاصـة منهـا أحـداث العشـرية الماضـية السـوداء تؤكـد صحـة بعـض الاسـتنتاجات الـتي استخلصـها "فـانون" مـن دراسـته للحالة الجزائرية وعدد من الحالات الافريقية. ودقة تشخيصه للأمراض الـتي تهـدد الحـركات الوطنيـة قائـدة المعركـة مـن اجـل الاسـتقلال، خاصـة بعـد أن تتـولى الحـكم وتكهناتـه في هـذا الشـأن لم تكـن نتيجـة تحليـل مخـبري ، لكنهـا كانـت

الخـــاتـمـة:

خلاصـة دراسـة ميدانيـة وملاحظـات دقيقـة، حللهـا بعـين المفكـر وخـبرة المحلـل النفساني.

فقـد عـاد الـنص الفـانوني ليفـرض ذاتـه مـع تفجّـر الحِـراك الجزائـري والعـربي حيـث ركـز "فـانون" دومـا عـلى "جماهـير الشـعب" بـدلا مـن النخـب السياسـية المسايرة للأنظمة المتغوّلة على نحو ما حصل في العالم العربي.

عـلى أن تأملاتـه المعتمـدة عـلى تجاربـه في دول غـرب افريقيـا لا يمكـن عـدم الالتفات فيها لما جاء مثلا في فصله الشهير "مزالق الوعي الوطني" بكتاب "معذبو الأرض" مـن افـلاس عقـم البورجوازيـة القوميـة في قـارة افريقيـا ومنطقـة الشـرق الأوسـط، بورجوازيـة كانـت تميـل لاسـتبدال القـوة الاسـتعمارية بنظـام طبقـي جديـد يكرر الهياكل الاستعمارية القديمة للاستغلال والاضطهاد.

هـذا فضـلا عمّـا كان يخشـاه "فـانون" ويحـذر منـه بشـأن وضـعية الجزائـر التـي تبّـه في كتاباتـه حولهـا مـن خطـر ترسـيخ النخـب البورجوازيـة الجشـعة للفسـاد وإدارة ظهرها لحقائق التنمية، وملإ جيوبها وتجاهل الركود المؤسف.

وقـد كتـب "فـانون" في كتابـه "معـذبو الأرض" وهـو عـلى فـراش المـوت "ان الاثـراء الفـاضح والسـريع الذي تحققـه لنفسـها تـلك الفئـة المحتكـرة سـيكون مصـحوبا بـصحوة حاسمـة مـن طـرف الشـعب و وعـي متزايـد يـبشر بحلـول أيام عاصـفة"، وتـلك تكهنـات لفـانون كانـت خلاصـة دراسـة ميدانيـة تسـد فراغـا و تـرد عـلى تسـاؤلات لا تزال موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث أجمع .

الخـــاتـمـة:

وإذا كان "فـانون" - عـلى الـرغم مـن أن توقعاتـه الثاقبـة بشـأن افريقيـا "مـا بعـد الكولونياليـة" - قـد ثَبُتَـت صحتـها إلا أنـه قـد صـاغ في كتاباتـه مـع ذلك سلسـلة مـن الإشـكاليات أكـثر منهـا اجـابات وبـذلك تكـون تكهناتـه - أيا كانـت أهميتهـا - غـير مكـتملة، وذلك امـا لأنـه كان في صراع مـع سـباق المـوت حـال دون صـهر الاشـكالات في شـكل مـذهب متناسـق أم أنـه كـان يكتفي بتسـجيل ملاحظاتـه، تاركا لغـيره مهمـة التعمق فيها.

ومـع ذلك فقـد توقفنـا عـن بعضـها متنـاولين في فصـول هـذه الدراسـة مواقـف "فرانـز فـانون" وعلاقاتـه وتفـاعله وتجاوبـه، مقتنعـين أنهـا تسـتدعي الاسـتزادة، وآملـين أن نكون قد فتحنا باب البحث في موضوعها بحيث تنجز لاحقا بأعمال متكاملة.

مـن ذلك أنـه - بالنظـر لسـعة الموضـوع - وعـلى الـرغم مـن جهـودنا الكبـيرة في محاولة الإحاطـة بـجوانبه المختلفـة - إلى أننـا عـلى يقين أننـا لا نـرى هـذه الدراسـة ناضجـة من جانبيها العلمي والمعرفي إلا باستزادتها تعزيز الاطروحات التي تتوخاها صائبة.

وأخيرا لا بد ان نشير إلى أن القليـل مـن الكُـتّاب تركـوا بصـماتهم عـلى العصـر الذي عاشـوا فيـه أكـثر مـن تـلك الـتي تركهـا "فرانـز فـانون". لذلك ، أن يُنسـى اسم "فـانون" بعـد أن كان اسمـه يسـاوي اسم "شي غيفـارا" شـهرة وتألقـا، لـيس بالمسـتغرب. فهـو لـيس أول ولـن يكـون آخـر مـن شـاع اسمـه ثم اختفى ... لكـن، أن يُنسـى في الجزائـر بالذات، فهـذا مـا يصـعب تفسـيره... لأن اسم "فـانون" سـيظل

منحـوتا لا محـالة في ذاكـرة المثقفـين الذيـن عـاصروه، وفي ذاكـرة الأجيـال الـتي قـرأت أعماله أو التي سوف تطّلع على أعماله ولو بعد حين.

وسـواء كان ممـن يكتـب عـن فـانون مـن أنصـاره المعجَبـين أو مـن منتقديـه أو ممـن يقفـون حيـاله موقـف الحيـاد ، فـالذي لا شـك فيـه أن الجميـع يتفقـون عـلى أن اسم "فانون" سيرن في عقل كل من يتكلم لغة التحرير .

قائمة المصادر والمراجع

أوّلاً : باللغة العربيـــة

1- عبد القادر غراب : "فرانز فانون رجل القطيعة" تر. عبد السلام يخلف – دار بهاء الدين للنشر والتوزيع – الجزائر 2013

2- الميلي محمد : فرانز فانون والثورة الجزائرية، مطبعة زرياب ، لبنان، 1973

3- وحيد بن بوعزيز : "فرانتز فانون في التفكير ما بعد الحداثة"، الكلمة والشيء، القدس العربي، 18 سبتمبر 2013

4- دافيد كوت : فرانز فانون سلسلة أعلام - الفكر العلمي المعاصر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1971

5- صالح بلحاج : تاريخ الثورة الجزائرية، دار الكتاب الحديث، الجزائر،2008

6- الغالي غربي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1958، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009،

7- حربي محمد : الثورة الجزائرية سنوات المخاض، تر: نجيب عبد، صالح لمثلوتي، موفم للنشر، الجزائر، 1994

8- بن نبي مالك : مشكلات الحضارة فكرة الإفريقية الأسيوية (في ضوء مؤتمر باندونغ)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، بدون تاريخ

9- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج2، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009

10- عبد المجيد عمراني، جان بول سارتر والثورة الجزائرية، د. ط.، مكتبة مدبولي، د.م.، د.س.

11- محمد الطيبي : الجزائر عشية الغزو الاحتلالي، دار ابن النديم، الجزائر 2009

12- بوصفصاف عبد الكريم : جهاد المرأة الجزائرية ف ولاية ميلة (1954 – 1962) دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، سبتمبر 2008

13- زغدود علي : ذاكرة ثورة التحرير الجزائرية، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2004

14- سعد الله أبو قاسم : منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1976

15- شيخاني سعاد : فرانتز فانون، رؤيته لدور الكاتب والادب الإفريقي باللغة الفرنسية، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1982

16- عبد المجيد عمراني : النخبة الفرنسية والثورة الجزائرية 1954 – 1962، مطبعة درا الشهاب - باتنة 2001

17- لعوج مبروك : الطب العقلي في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012

18- لونيسي رابح : دراسات حول إيديولوجية الثورة الجزائرية، كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012

19- بلغيث محمد الأمين : تاريخ الجزائر المعاصر، دراسات ووثائق، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008

20- محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 – 1939 الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980،

21- نعيم قداح : التمييز العنصري وحركة التحرير في إفريقيا الجنوبية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1975

22- الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982

23- محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 – 1939 الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980،

24- حربي محمد: حياة تحدي وصمود، مذكرات سياسية 1945-1962 – تر: عبد العزيز بوباكير، علي فسايسة، دار القصبة للنشر، الجزائر ، 2014

25- الزبير رشيد : موقف أحزاب اليسار الفرنسية من القضية الجزائرية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف الاكاديمية للدراسات الاجتماعية، ع9، 2013،

26- أزغيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، للمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989

27- إسحاق محمد عبد العزيز : نهضة إفريقية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971

28- الديدي عبد الفتاح : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966

29- الشيخ سليمان : الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين (دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية وثورة المسلحة)، ترجمة محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007

30- بوحوش عمار : التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005

31- بلحاج صالح : تاريخ الثورة الجزائرية، دار الكتاب الحديث، 2008

32- بن نادر الطيب : الجزائر حضارة وتاريخ، الحضارات المتعاقبة للجزائر تاريخها المشرف، دار الهدى، الجزائر د. ت.

33- يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009

34- تقية محمد : حرب التحرير، الولاية الرابعة، تر : بشير بولفراق، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012

35- ميم آسيا : شخصيات جزائرية، دار المسك للنشر، الجزائر، 2008

36- حسن، محمود : سيكولوجية الفرد في المجتمع، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001

37- باظة آمال عبد السميع : الأنماط السلوكية للشخصية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2000

38- أحمد، سهير كامل : سيكولوجية الشخصية، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2003

39- ابو سعد، أحمد : علم نفس الشخصية، دار عالم الكتب الجديد، عمان، الأردن، 2010

40- خوري توما : الشخصية مفهومها، سلوكها وعلاقتها بالتعلم، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1996

41- ولد خليفة محمد المغربي : الجزائر المفكرة والتاريخية، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007

42- يحياوي محمد صالح : حزب جبهة التحرير الوطني، المسيرة، مسيرة الشعب عبر ملايين الشهداء، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1980

43- الأشرف مصطفى : الجزائر، الأمة والمجتمع، تر : حنيفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007

44- علاق هنري : مذكرات جزائرية ذكريات كفاح، تر : مسعود جناح، عبد السلام عزيزي، دار القصبة، الجزائر، 2007

45- غالية عبد القادر : محطات تاريخية من حياة الثورة التحريرية، أحداث وأحاديث منسية، المؤسسة الصحفية بالمسيلة، (د.م.)، 2013

46- علاق هنري : مذكرات جزائرية ذكريات كفاح، تر : مسعود جناح، عبد السلام عزيزي، دار القصبة، الجزائر، 2007

47- أحمد حمدي، الثورة والإعلام، ط2، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995 م،

48- فضيل الورثلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2007

49- عب القادر خليفي : الثورة الجزائرية وبعدها الإفريقي، الملتقى المغاربي 2003، الابعاد الحضارية للثورة الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005، ص212

50- سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص13

51- بلخوجة عمار : الحركة الوطنية الجزائرية، بطال ومعالم، تر : سعود حاج مسعود، منشورات ألفا، الجزائر، 2015

52- مقلاتي عبد الله : إشكالية التسلح خلال الثورة الجزائرية 1954 – 1962، وزرة الثقافة، الجزائر، 2013

53- سعد الله أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي، 1954 – 1962، ج9، عالم المعرفة، الجزائر، 2015

54- كبير سليمة: فرانز فانون المفكر الغامض في أعماق الثورة الجزائرية، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت.)

55- مالك بن نبي : مشكلة الثقافة "ترجمة عبد الصبور شاهين دار الجهاج – مصر – 1959 – ط1 – ص.3 وما بعدها

- **المجلات** :

1- حسين ياسين عبد القادر : الدكتور فرانز فانون المفكر الأسود الذي مزّق الاقنعة البيضاء، مجلة النور، ع26، 08 ديسمبر 2015

2- الميلي محمد : أضواء على الثورة الجزائرية قانون والفكر الغربي، مجلة الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، ع1 الجزائر، مارس 1971

3- حمداني حسن : الفكر السوسيولوجي عند فرانز فانون، مجلة الثورة الإفريقية رقم 71 – 72 – الجزائر 1964

4- الكويتي - مجلة دراسات نفسية – المجلد 7 – العدد 2 – رابطة الأخصائيين النفسيين المصريين – ص 277-310

5- الأحمدي – شرف (2013) : تطوير مقياس العوامل الخمسة الكبرى في الشخصية (صورة قصيرة) – مجلة دراسات العلوم التربوية – المجلد 40 – ملحق 3 – كلية التربية – جامعة طيبة – السعودية

6- أبو هاشم – السيد محمد (2007): المكونات الأساسية للشخصية في نموذج كل من كاتل وايزنك وجولدبيرج لدى طلاب الجامعة (دراسة عامليه) – مجلة التربية – العدد 70 – جامعة بنها – ص 201-274

7- أبو هاشم – السيد محمد (2010) : النموذج البنائي للعلاقات بين السعادة النفسية والعوامل الخمسة الكبرى للشخصية وتقدير الذات والمساندة

الاجتماعية لدى طلاب الجامعة، مجلة كلية التربية – العدد 81 – جامعة الزقازيق

8- الخواجا عبد الفتاح (2012) : اضطراب ضغط ما بعد الصدمة وعلاقته بالاكتئاب لدى عينة من طلبة كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس ، مجلة العلوم التربوية والنفسية ، جامعة البحرين – مجلد 13 – العدد 3 – ص 465-441

9- الرويتع عله الله صالح (2007) : مقياس العوامل الخمس الكبرى في الشخصية على عينة سعودية من الاناث – المجلة التربوية – مجلد 21 – العدد 83 –

10- حويتية فطيمة الزهراء : ظروف تأسيس الجبهة الجنوبية للثورة الجزائرية وأبرز قادتها، مجلة روافد للبحوث والدراسات – جامعة غرداية – ع1 – ديسمبر 2016.

11- خطي سعيد: فرانز فانون نصير المعيذبين – حياة ثانية – مجلة الدوحة وزارة الثقافة والفنون والتراث – ع 71 – سبتمبر 2013

12- دوري ثائر : أشباح فانون – ج 1 – كنعان النشرة الإلكترونية – ع1086 – 2007

13- رقيق علاء الدين : جرائم الدولة للمحامي جاك فرجس عن محاكمة جبهة التحرير الوطني – مجلة أول نوفمبر – فصيلة تاريخية ثقافية سياسية – ع 174 – جويلية 2010

14- خالد سليمان "في أدب ونقد ما بعد الكولونيالية – مجلة علامات في النقد – ديسمبر 2004

15- عبد القادر جغلول : فرانتز فانون غموض إيديولوجية العالم الثالث، مج. 3، ترجمة: نور الدين زمام، ذاكرة الناس، 2013
16- نقوبين : فرانز فانون ومشاكل الاستقلال، (مجلة لابونسي) رقم 107 باريس 1963
17- تزغارت عثمان : معذبو الأرض يعانقون فرانز فانون، مجلة الأخبار، ع 1979، تشرين الأول، 2011
18- خالد سليمان : في أدب ونقد ما بعد الكولونيات "مجلة علامات" – الناقد الثقافي الأدبي – عدد ديسمبر – جدة 2004
19- حفتاري بعلي : صورة الجزائر في الكتابات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية – مجلة الآداب واللغات – جامعة الأغواط – الجزائر، ديسمبر 2004
20- سامية حسن الساعاتي : "دور المرأة في المجتمع المصري الحديث" المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، العدد الثاني والثالث
21- أبو القاسم سعد الله : موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة – ع. 14 – 15 – الجزائر

- **المنشورات** :

1- جونسون كوليت وفرانسيس: الجزائر خارجة عن القانون – تر: محمد معراجي – منشورات تالة – الجزائر – 2014
2- خليفي عبد القادر: محطات من تاريخ الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 2010
3- جان بول سارتر: عارنا في الجزائر – مكتبة مدبولي، (د ت)، (د م)

4- جان بول سارتر : مواقف مناهضة للاستعمار - تر: فاطمة بلجرد - منشورات ANEP - الجزائر 2007

5- عسال نور الدين : المثقفون الفرنسيون والتعذيب - الخلدونية لعلوم الانسانية والاجتماعية - جامعة ابن خلدون - تيارت - ديسمبر 2014.

6- ولد خليفة محمد العربي " الثورة الشعبية ومتابعها في الوطنية الجزائرية المحلية - أول نوفمبر- ع171 - لسان المنظمة الوطنية للمجاهدين - الجزائر - د ت

7- طالب مناد : الفكر السياسي عند سارتر وعلاقته بالثورة الجزائرية - دراسة تحليلية نقدية - دار الخطاب - الجزائر - 2007

8- حمدي أحمد : الثورة الجزائرية والإعلام، دراسة في الاعلام الثوري - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - الجزائر 1995

9- الصالح الصديق محمد: الرافضون عبر التاريخ - ج1 - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر

10-الزبيري الطاهر: مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين 1929-1962 – منشوراتANEP – الجزائر – 2008

11-ميمي ألبير : صورة المستعمر – ترجمة ميشال سطوف – منشورات ANEP – 2007

12-مصطفى خياطي : الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية – منشورات ANEP – الجزائر

13-مصطفى خياطي : المآزر البيضاء خلال الثورة - تر: نسيبة غربي – منشورات ANEP – الجزائر

14-مصطفى خياطي : حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي- – منشورات ANEP – الجزائر - 2013

15- ايمي سيزار: خطاب حول الاستدمار، ترجمة ميشال سطوف، منشورات ANEP، الجزائر، 2007

16-تومي محمد : طبيب في معاقل الثورة، حرب التحرير الوطني 1954 – 1962، تر : حضرية يوسفي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2010

17-شرقي محمد : كتاب مشروع المجتمع في تصورات النخبة السياسية الجزائرية المعاصرة، المجتمع الجزائري في تصور فرانتز فانون (1953 – 1961) الطبعة الأولى، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، مطبعة بغيجة، الجزء الثاني، 2008

18-جونسون فرانسيس : حربنا، تر : ميشال سطوف، مر : سمير سطوف منشورات ANEP، الجزائر، 2006

19-مقلاتي عبد الله : الجبهة الجنوبية لجيش التحرير الوطني بمالي، منشورات ANEP، الجزائر، 2017

20-نجادي بوعلام – الجلادون 1930 – 1962 ، تر. محمد معراجي – منشورات ANEP - الجزائر - 2007

21-سامية حسن الساعاتي : "ديناميات الأسرة الريفية والتنمية، أبحاث الندوة الدولية عن المرأة الريفية والتنمية، منشورات مركز بحوث الشرق الأوسط 1 – 4 ديسمبر – القاهرة 198 أحمد بن نعمان : سمات الشخصية الجزائرية " المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1988

22-دحلب سعد : المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، بدون تاريخ

23-الزبيري العربي : المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف للمجاهد،طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1995

24-الزبيري العربي : تاريخ الجزائر المعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر، 1995

25-مقلاتي عبد الله: الثورة الجزائرية وافريقيا - صفحة ديبلوماسية ناصعة - وزارة الثقافة - الجزائر 2012

26-شرف الدين أحمد رضوان : التعذيب قراءة في جريدة المجاهد - 1957-1962 - المصادر فصيلة تعني بشؤون المقاومة الشعبية وثورة أول نوفمبر - ماي 2013

27-سعيود احمد : اعمل الدبلوماسي لجبهة التحرير الوطني 19 سبتمبر 1958 - 01 نوفمبر 1954 - وزارة الثقافة - الجزائر 2008

28-المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وشؤون أول نوفمبر: جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر - المصادر - فصيلة تعني بشؤون المقاومة الشعبية وثورة أول نوفمبر - ع5 - 2001.

29-المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954: الديبلوماسية الجزائرية 1830 إلى 1962 - دراسات حول تطور الديبلوماسية الجزائرية - ط 2 - الجزائر - 2007

30-المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام : حوار حول الثورة - الدكتور جنيدي خليفة - طبع للمؤسسة الوطنية للفنون والمطبعية - الجزائر - 1986

- **الملتقيات :**

1- "ميراث فرانز فانون في الفنون والآداب الأمريكية – ملتقى بمدينة ديجون (فرنسا) 04 أبريل 2018

2- الملتقى الوطني الثالث "فرانز فانون" مديرية الثقافة لولاية الطارف 2006

3- بشيشي- محمد الأمين : دور الإعلام في معركة التحرير - الملتقى الوطني الثالث للثورة الجزائرية –جمعية أول نوفمبر – باتنة 1990

4- بكوش الهادي : أعمال الملتقى الدولي حور الاستعمار بين الحقيقة والجدل السياسي – منشورات وزارة المجاهدين – الجزائر 2007

5- خليفي عبد القادر : الثورة الجزائرية وبعدها الإفريقي الملتقى المغاربي 2003 – دار الغرب للنشر والتوزيع 2005

6- الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة والجدل السياسي، الجزائر، 2007

7- الملتقى الدولي الأول حول تاريخ الثورة الجزائرية – جامعة 20 أوت 1955 ، 11 و12 ديسمبر 2006 – سكيكدة

8- شولي بيارو كلودين : "مداخلة في الملتقى الوطني الثالث" – فرانتز فانون : "الاستعمار جريمة ضد الانسانية"، مديرية الثقافة لولاية الطارف – مطبعة المعارف – عنابة 2006 .

9- حساني عبد الكريم : مداخلة أثناء الملتقى الوطني الثالث "فرانز فانون" – الاستعمار جريمة ضد الانسانية – مديرية الثقافة لولاية الطارف – مطبعة المعارف – عنابة

- **الرسائل :**

1- السمان غادة : فرانز فانون، الإزدواجية والاستعمار (جنوب إفريقيا كحالة دراسة)، أطروحة دكتوراه، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2002

2- خالد القاسم سراب : مفهوم الكرامة الإنسانية وعلاقته بالمقاومة، أطروحة دكتوراه في الديمقراطية وحقوق الإنسان، كلية الدراسات العليا في جامعة بينزرت، فلسطين، 2012

3- جان لاكوتير : انتاج فرانز فانون - محاضرة القيت بالمدرسة الوطنية للإدارة

4- فرانز فانون "الإزدواجية والاستعمار – جنوب إفريقيا كحالة دراسة – رسالة ماجستير - جامعة بيرزيت – فلسطين 2006

5- بوضربة عمر : دور النشاط الخارجي للثورة الجزائرية 1954 – 1960، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث المعاصر، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2010-2011

6- مقاومة الاستعمار في فكر فرانز فانون : رسالة ماجيستير (جامعة طه طنطاوي) - القاهرة - معهد البحوث والدراسات الافريقية - قسم السياسة والاقتصاد - 2009

7- بو عبد الله عبد الحفيظ: فرحات عباس بين الادماج والوطنية (1919-1962) - رسالة ماجيستير - جامعة باتنة - 2006

8- داوود عزيز والطيب محمد والعييدي ناظم : الشخصية بين السواء والمرض - مكتبة الانجلومصرية - القاهرة - 1991

9- الداهري صالح والكبسي- وهيب : علم النفس العام - ط 1 - دار الكندي للنشر والتوزيع - الأردن - 1999

10- صبحي قنصوة : قضية الهوية وأثرها على الادراك الافريقي للعالم العربي - القاهرة - معهد البحوث والدراسات الافريقية - ورقة مقدمة إلى مؤتمر قسم السياسة - 18 فبراير 1998

11- بركات آسيا : العلاقة بين أساليب المعاملة الوالدية والاكتئاب لدى بعض المراهقين والمراهقات المراجعين لمستشفى الصحة النفسية بالطائف - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية التربية - قسم علم النفس - جامعة أم القرى بمكة المكرمة - السعودية - 2000

12- الجريسي محمد : الاكتئاب النفسي لدى مرضى سرطان الرئة بمحافظات غزة وعلاقته ببعض المتغيرات - رسالة ماجستير غير منشورة - قسم علم النفس - كلية التربية - عمادة الدراسات العليا - الجامعة الاسلامية - غزة - 2003

- **المقالات** :

1- أوستين دفيد : تشخيص فرانتز فانون – مقال على الموقع http://www.org/06reports/061115daustin.html

2- إفراج أسامة : فرانز فانون – حياة مناضل – جريدة الشعب – 21 جويلية 2015

3- هيلتون بلايك : فرانز فانون وسيكولوجية الاضطهاد – تر. صالح الزروق – كانون الأول – Journal scientific psychology – كانون الأول – 2011

4- ثابتي حياة : الدكتور فرانز فانون – قسم التاريخ وعلم الآثار – جامعة تلمسان

5- سلمان عبد العظيم صالح : خمسون عاما على رحيل فرانز فانون – مقال على الموقع http://www.diwanalarab.com/spip.php.auteur

- **قواميس وموسوعات :**

1- عبد المالك مرتاض : المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة التحريرية - دار الكتاب العربي - الجزائر 2010

2- أو حجر أمنة : الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم - دار أسامة للنشر والتوزيع - الطبعة 01 - الأردن - عمان 2008

3- الخوند مسعود : الموسوعة التاريخية الجغرافية - القارات - المناطق - الدول - البلدان - المدن - معالم - وثائق - موضوعات - زعماء - ج3 - 2005

4- الكيلي عبد الوهاب : موسوعة السياسة - ج1 - ط 4 - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان - 1999

5- مقلاتي عبد الله : موسوعة أعلام وأبطال الثورة الجزائرية - شمس الزيان للنشر والتوزيع - الجزائر 2013

6- الكيالي عبد الوهاب : موسوعة سياسية - ج 4 - ط 4 - بيروت - لبنان - 1999

7- مان ميشال : موسوعة العلوم الاجتماعية - تر: عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز - دار المعرفة - مصر - 1990

8- خطـاب رشـيد : أصـدقاء الخـاوة والدعم العـالمي للثـورة التحريريـة الوطنيـة - قاموس بيبيوغرافي - تر: مصطفى ماضي - دار الخطاب - الجزائر - 2013

9- خطـاب رشـيد : الخـاوة والرفـاق - قـاموس بيبيـوغرافي للجزائـريين ذي الأصـل الأوروبي واليهـودي - تـر: محمـد رضـا بوخالفـة - دار الخطـاب للنشـر - (د.م)، (د.ت)

ثانيا : باللغة الفرنسية

1- Frantz Fanon : « Peau noire, masques blancs » 1952 – La Découverte – Paris – 2011

2- Frantz Fanon : « Sociologie d'une révolution » (1959) – La découverte – Paris - 2011

3- Frantz Fanon : « Les damnés de la terre » (1962) – La découverte – Paris - 2011

4- Frantz Fanon : « Pour la révolution africaine » (1964) – La Découverte – Paris 2011

5- Frantz Fanon : « A propos d'un plaidoyer » in « pour la révolution africaine » - Paris – La Découverte – 2001

6- Frantz Fanon : « Cette Afrique à venir » in « pour la révolution africaine » - Paris – La Découverte – 2001

7- Frantz Fanon : « Ecoute homme blanc » « El Moudjahid » n° 47 – 03 Aout 1959

8- Frantz Fanon : « Fondement réciproque de la culture nationale et des luttes de libération » « Présence africaine , 2ème congrès des écrivains et artistes noirs - Rome – 26 Mars et 1er Avril 1959

9- Frantz Fanon :« Le syndrome Nord Africain » in « Pour la révolution africaine » - Paris – La découverte – 2001

10- Frantz Fanon :« Hier, aujourd'hui et demain » institut Mémoires de l'édition contemporaine 1953

11- Frantz Fanon : « le Phénomène de l'agitation en milieu psychiatrique « In Maroc Médical – Vol 36 – n°380 – Janvier 1957 »

12- Frantz Fanon : « Conduites d'aveu en Afrique du Nord » in « Congrès de la psychiatrie et de Neurologie en langue française » - Nice – Vol 51 – n°10 – 1955

13- Frantz Fanon : « Sociologie de la perception et de l'imagination » in « Congrès de la psychiatrie et de Neurologie en langue française » - Paris – 1956

14- J.Postel : « La vie et l'œuvre psychiatrique de F.Fanon » Volume 51 - n°10 - Décembre 1975

15- Sartre Jean-Paul, "Préface à l'édition de 1961" – Fanon Frantz – « Les damnés de la terre (1962) » - Paris – La Découverte – 2002

16- Cesaire Aimé, Discours sur le colonialisme (1955) – Paris – Présence Africaine – 2004

17- Alice Cherki: « Frantz Fanon , portrait – Paris – Seuil – 2000

18- David Macy : « F.Fanon une vie » Ed. Chihab – Alger – 2012

19- Arendt Hannah, « De la violence » (1969) – Tard – Guy Durand

20- Fanon Josie : « Entretien in Revue Révolution africaine » N° 1241 – 1987

21- Hegel Friedrich , Phénoménologie de l'Esprit – 1807 – Tard – Jean Hyppolite

22- Said Edward W : L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident (1978), tard. Catherine Malmoud, Paris – Seuil 1980

23- Albert Memmi : « Portrait du colonisé » - Ed. Galimard – Paris – 1985

24- Irene Gendzier : « F.Fanon « - Ed. Seuil – 1976

25- GSELL in Histoire ancienne de l'Afrique du Nord - Ed.Hachette - Paris

26- GAUTIER in Passé de l'Afrique du Nord (Payot) .

27- Antoine Porot : « le Primitivisme des indigènes nord-africains et incidences - Extrait de Pathologie mentale » - 15 Avril 1939

28- Charles André Julien : «L'Afrique du Nord en marche » - Ed. Juliard- Paris -1972

29- CAMPS in "Monuments et rites funéraires" (Ed. des Arts et Metiers)

30- Octave Mannoni : « Le racisme revisité » - Paris Denoël 1997

31- Mbembe, Achille, « Préface », in Fondation Frantz Fanon – Sortir du colonialisme – Frantz Fanon par les textes de l'époque – Paris – Les petits matins, 2012

32- Nareau, Michel, « Fanon, Cuba et autres Journal de Bolivie. L'Amérique Latine à Parti pris comme modalité de libération nationale » Bulletin d'histoire politique – Vol 23 (1) – 2014 .

33- Benchehida Ahmed : « Troubles Identitaires et Déviance, Aliénation et personnalisation, édition CRASC, décembre 1999

34- Patrick Raoult : « Clinique de passage à l'acte », Tome 59(1)481 – Janvier – Février 2006

35- Gilbert Comte : Mein Kampf de la décolonisation - in « La Nation francaise » 21 Mars 1962

36- Jean Lacouture : « Les damnés de la terre de F.Fanon » - Le Monde - Janvier 1962

37- J.Azoulay, Contribution à l'étude de la sociothérapie dans un service d'aliénés musulmans, thèse méd., Alger, 1954

38- Charles Robert Agéron : « Un aspect de la guerre d'Algérie : La propagande radiophonique de FLN » In « La guerre d'Algérie et les algériens 1954-1962 - Armand Colin - Paris - 1997

39- Roger Garaudy : L'Islam en occident, Cordoue capitale de l'esprit – Paris- L'Harmattan – 2000

40- BENTOUHAMI Hourya et Dorlin Elsa , Frantz Fanon – Actuel Marx – n° 55 (1) – 2014

41- Slimane Chikh : L'Algérie en armes ou le temps des certitudes – Caspah – Edition – Alger – 2005

42- Lawrence A.Pervin Oliver John : La Personnalité - De la théorie à la Recherche - Miranda de Bock – 2001

43- Tap Pierre : Identités collectives et changements sociaux - Privât - Paris – 1986

44- Chaulet Pierre : « Frantz Fanon , si proche… », revue pratique psychologique, volume 1 – n° 23 – Edition institut national de la santé publique – Alger – 2003

45- Les cahiers de l'histoire de la 1ère république française (1945-1958) – n° 48 – Aout 1965

46- Ayme Jean : « Entretien in revue Sud-Nord » - n° 22 – Edition Eres , 2007

47- Gollay Annabelle : « Féminisme et post colonialisme » (Beauvoir , Fanon et la guerre d'Algérie), international journal of francophone studies, volume 10, n°3 – 2007

48- Vidal Dominique : Les (traitres) qui sauvèrent l'honneur de la France, Le monde diplomatique – Septembre 2000

49- Stora Benjamin : La vie de Frantz Fanon, et la guerre d'indépendance algérienne – Actes du colloque Fanon- CSPRP – université – Paris 7 – Février 2008 – Edition en ligne disponible sur «http://www.csprp.univ-paris-iderot.ffactes_fanon.html »

50- Murand Numa : Psychiatrie et politique Frantz Fanon à Blida, Actes du colloque Fanon- CSPRP – université – Paris 7 – Février 2008 – Edition en ligne disponible sur http://www.csprp.univ-paris-diderot.ffactes_fanon.html

51- Hocine Nouara : « Les intellectuels Algériens Mythe – Mouvance et anamorphose – Ed. DAHLAB et ENAG – Alger 2005.3

52- Ibrahimi Ahmed Taleb : « De la décentralisation à la révolution culturelle » (1962-1972) – Alger : SNED

53- Janson Collette et Francis : L'Algérie hors la loi – Paris – Edition du seuil – 1955

54- Joseph Morner : Sartre et Fanon – n° 89 – VST – 2006

55- Philippe Lucas : Sociologie de Frantz Fanon – Contribution à une anthropologie de la libération - SNED - 1971

56- Bouvier P. « Aimé Cézaire - F. Fanon - Portrait des décolonisés - Paris – Les Belles Lettres 2010

57- Alexandredrini A. C. « F. Fanon Critical perspectives » London 1999

58- Zahar R. « L'œuvre de F. Fanon - Colonialisme et aliénation » Paris – Maspero – 1970

59- Arendt H. « Sur la violence » in « Du mensonge à la violence » Paris – Pocket 1994

60- Djeghloul A. « F.Fanon et la question paysanne en Afrique » in « Huit études sur l'Algérie » Alger – Entreprise nationale du livre 1986

61- Glissant « Un nouveau sens d'humanité pour les pays du sud » Antilla Spécial n° 23 – 1961 – Que nous reste-t-il de Frantz Fanon ?

62- Gordon « Décoloniser le savoir à la suite de F.Fanon » Tumultes n° 31 – Octobre 2008

63- Manville « Hommage à F.Fanon » Sans frontières spécial Fanon – Février 1982

64- Mediene B. : In Pour Fanon – Rencontre internationale d'Alger – Centre des arts – 10 à 13 décembre 1987

65- Memmi A. : « La vie impossible de F.Fanon » Esprit n° 406 – Septembre 1971

66- Nghe : « F.Fanon et les problèmes de l'indépendance » - « La Pensée » n° 107 – 1963

67- Renault M. : « Colloque international F. Fanon » - Alger – 07 et 08 Juillet 2009 – Journal des anthropologues n° 118 – 119 (2009)

68- Young : « Fanon et le recours à la lutte armée en Afrique » - « Les Temps Modernes » n°635 – 636 – Janvier 2006

69- Balandier : « Le noir est un homme » - « Présence africaine » Octobre – Novembre 1947

70- Bayart J.F. : « Les études postcoloniales » - Paris – Carthala – 2010

71- Claudine Chaulet : « Le Message de F.Fanon » – (31/34)

72- Josie Fanon : « Fanon au présent et au future » - « Demain l'Afrique » n° 16/18 – Décembre 1978

73- Mondouze : « A propos d'un mémorial , le retour de F.Fanon » - Le Monde – 07/04/1982

74- Ghobrini : « Publication – relire Fanon » El Moudjahid – 04 Octobre 1983

75- Ouahiba Labreche : « Daniel Maximin, poète et romancier parle de F.Fanon » Liberté – 15 Septembre 2004

76- Domenach J.M. : « Les damnés de la terre » in « Esprit » - n°305 - 1962

الـمـلاحـــق

الملحق الأول :
ترجمتنا لمقدمة "فانون" ولفصلين من كتابه
"سوسيولوجية ثورة"

مقدمة الكاتب

قريبا تدخل حرب الجزائر سنتها السادسة ولم يكن أحد سواء فيما بيننا هنا أو في العالم بأسره يشك، في شهر نوفمبر 1954، أنه سيتحتم على الجزائريين القتال مدة ستين شهرا قبل أن يفك الاستعمار الفرنسي- حصاره ويعطي صوته للشعب الجزائري.

وهكذا مضت خمس سنوات من المعركة دون أن يطرأ أي تعديل سياسي ولا يزال المسؤولون الفرنسيون يواصلون تصريحهم أن الجزائر فرنسية.

إن هذه الحرب قد عبأت الشعب الجزائري بأجمعه وأجبرته على أن يستثمر مدخراته وكل مصادر ثروته الخفية جملة واحدة. ولم يشأ الشعب الجزائري أن يمهل نفسه لأن الاستعمار الذي واجهه لم يدع له أدنى مهلة. لذا كانت هذه الحرب حربا هوجاء قادها الشعب لتحطيم الظلم الاستعماري.

وقد طاب لخصومها أن يؤكدوا بأن الثورة الجزائرية تتألف من مجموعة من السفاحين. أما الديمقراطيون الذين كسبت الثورة الجزائرية عطفهم فكثيرا ما كرروا على مسامعها أنها قد ارتكبت عددا من الأخطاء.

ولقد حدث فعلا أن نقض مواطنون جزائريون توجيهات المنتظمات القيادية وأن الكثير من الأمور التي كان أن ينبغي تجنبها قد جرت على أرض الوطن، أمور كانت في الغالب تتعلق فضلا عن ذلك بمواطنين جزائريين آخرين.

ولكن ما الذي عملته الثورة إذن؟ أتخلت عن مسؤوليتها؟ ألم تعاقب هذه التصرفات التي كادت أن تعيب كفاحنا؟ ألم يذكر السيد فرحات عباس، رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية علانية التدابير التي كان بعضها ذا أهمية قصوى والتي اتخذتها إدارة الثورة؟

وعلى الرغم من هذا فمن ذاك الذي لا يفهم من وجهة النظر الفرنسية وسائل العنف المفاجئة، التي وجهت ضد الخونة ومجرمي الحرب؟ وحتى الرجال الذين قاموا بالحملة في تدخل "الجيش الأول الفرنسي-" قد اشمأزوا شهورا كاملة من تصرفات المنصفين الذين قاموا في اللحظات الأخيرة بإطلاق رصاص أسلحتهم على المتعاونين مع العدو.... بل وأولئك الذين شاركوا في عمليات جزيرة (إيلب) وحملة إيطاليا والإرساء في ميناء (طولون) آذاهم وأقلق مشاعرهم إجراء تصفية الحسابات الأخوية غير المشروعة والتي جرت غالبا بشكل مخجل فاضح.

ومهما يكن من أمر هذه الأحداث فإنه لا يذكر من بينها إعدام واحد في صورة تطبيق قضائي عاجل من جانب رجال المقاومة ضد مدنيين غير مسلحين، بعد القيام بتعذيبهم. أما جبهة التحرير الوطني فإنها لم تخش حتى في الوقت الذي تعرض فيه الشعب لهجمات الاستعمار الشديدة الحدة، أن تحرم بعض الأنواع من النشاطات وأن تذكر دوما وحداتها المجندة بالقوانين الدولية المتعلقة بالحروب. ويتحتم على شعب خاضع للاستعمار أن ينتصر- في الحرب التحريرية ولكن عليه أن يبلغ ذلك الانتصار بطريقة مشروعة وخالية من "الهمجية". (فالشعب الأوروبي الذي ذهب مذهب التعذيب هو شعب ساقط يتنكر لتاريخه، في حين أن الشعب

المتخلف الذي يذهب هذا المذهب نفسه يحافظ على طبيعته ويتصرف تصرف شعب متخلف).

وكان على المتخلف (النامي) أن يمارس (اللعبة الشريفة) حتى لا تؤاخذه (الأمم الغربية) من الناحية الأخلاقية، في حين خاطر خصمه، مستريح الضمير من أجل استكشاف وسائل الإرهاب الجديدة استكشافا لا حد له.

ومن الضروري أن يبرهن هذا الشعب المتخلف (النامي) دفعة واحدة وفي كل التفصيلات الصغيرة على أنه أكثر الشعوب شفافية وأكثرها سيادة لنفسه سواء عن طريق إثبات قوة صراعه أو عن طريق إثبات لياقته لأن يؤلف أمة من الأمم، أو عن طريق إثبات نقائه في كل حركاته .... ولكن ذلك كله من أصعب الأمور.

ولقد حدث منذ ستة شهور بالضبط أن حوصر في إحدى ضواحي مدينة معسكر ما يزيد عن ثلاثين مجاهدا استنفذوا كل مؤنهم ولم يقعوا في الأسر إلا بعد أن استخدموا وسائل الدفاع بما في ذلك الفاء الأحجار على العدو. فسجنوا ونفذ فيهم الإعدام أمام أهل القرية، في وقت أفرد فيه طبيب جزائري في قطاع آخر فرقة من الجنود أرسلها إلى الحدود من أجل أن تستحضر، بالسرعة الممكنة، أدوية بعينها من شأنها أن تعالج مريضا فرنسيا سجينا. وقد ذهب ضحية هذه المهمة مجاهدان جزائريان لقيا حتفهما أثناء المسيرة ولقد حدث ذلك في أوقات أخرى أن أرسل بعض الجنود لمهمة تمويه حتى يمكنوا فرقة من المسجونين من بلوغ قواعدهم الرسمية سالمين.

وقد نشر الوزيران الفرنسيان (لاكوست) و (سوستيل) صورا بقصد الإساءة لقضيتنا وكان بعض هذه الصور يمثل أمورا قام بها بعض أعضاء ثورتنا وكان بعضها الآخر متعلقا ببعض من ضمن تلك الآلاف من الجرائم التي ارتكبها (بيللوني) والقوات غير النظامية (للحركة) التي كان يقوم بتمويلها وتسليحها الجيش الفرنسي-، وكان بعضها في نهاية الأمر يصور تلك العشرات والآلاف من الجزائريين والجزائريات الذين راحوا ضحية القوات الفرنسية.

لا ... ليس من الصواب أن نزعم أن الثورة قد ذهبت إلى أبعد ما ذهب إليه الاستعمار. ولكننا لا نبرز في نفس الوقت ردود فعل مواطنينا المباشرة. فنحن نفهمهم كل الفهم ولكننا لا نستطيع أن نعذرهم أو أن نرفضهم. فبحكم أننا نتوق إلى جزائر ديمقراطية حديثة ولأننا نعتقد أنه لا يمكن الصعود مع التحرر في قطاع من القطاعات والانخفاض بعد ذلك في قطاع آخر، فنحن نندد وقلوبنا تملؤها الحسرة بأفعال أولئك الإخوة الذين ألقوا بأنفسهم في النشاط الثوري بعنف يكاد يكون فيزيولوجيا مما خلقه وتعهده الاضطهاد القديم.

ولعل الأناس الذين ينكرون أو يؤاخذوننا على تلك الفترات الغامضة من ثورتنا يجهلون الفاجعة الفظيعة التي تصيب مسؤولاً تحتم عليه أن يقر عقوبة ضد مواطن تلخصت خطيئته في قتل خائن مشتهر بخيانته، أو ما هو أكثر من ذل في قتل امرأة أو طفل – دون الحصول مسبقاً على أمر بذلك – فهذا الرجل الذي يحاكم بلا قواعد أو قانون، ولكن بالرجوع فقط إلى الضمير الشخصي- لكل واحد، هذا الضمير الذي ينص تارة على ما ينبغي القيام به وتارة على ما ينبغي حظره ليس

طارئاً على الجماعة المقاتلة، فهو قد قدم براهين لا مشاحنة فيها عن إنكار الذات والوطنية والشجاعة أثناء شهور عديدة، بيد أنّ ذلك لا يمنع من محاكمته. ويتحتم على المسؤول أو الممثل المحلي للمنظمة القيادية أن يطبق التوجيهات، ومن الضروري أن يأخذ على عاتقه أحياناً القيام بدور يمثل الاتهام طالما كان الآخرون من أعضاء الفرقة قد امتنعوا عن قبول اتهام هذا الأخ أمام المحكمة الثورية.

إنه ليس باليسير أن نقوّم بأدنى الهفوات كفاح شعب هزته 130 سنة من السيطرة ضد عدو مثل الاستعمار الفرنسي- الشديد التصميم والقسوة. وقد أجرت السيدة (كريستيانة ليليا ستيارنة) الصحافية السويدية في إحدى المعسكرات، حديثاً مع بعض الأفراد من بين المهاجرين الجزائريين، وهاك نصاً من الاستطلاع الصحافي الذي أجرته :

"إن الموالي في الصف ولد عمره 07 سنوات ظهرت في جسمه جروح عميقة من جراء سلسلة حددية شدّ بها وثاقه أثناء قيام الفرنسيين بعمليات التعذيب والقتل لآبائهم وإخوانهم وتعمدّ ملازم أن يمسك بعينيه مفتوحتين برغم أنفه حتى يشاد الطفل ذلك ويتذكره ردحاً من الدهر " ...

"وقد قال هذا الطفل الذي حمله في يده مدة 05 أيام و05 ليالٍ ليوصله إلى المعسكر : (لا أتوق إلا لشيء واحد : هو تمكني من تقطيع جندي فرنسي- إرباً إرباً".

فهل نستطيع إذاً أن نعتقد أنه من السهل أن ننسي- هذا الطفل الجريمة التي ارتكبت ضد أبويه وكذلك مقته الشديد في آنٍ معاً ؟ وهل تشكل هذه الطفولة اليتيمة التي تكبر في جو الإبادة المطلقة كل ما تتألف منه تلك الرسالة التي سوف تخلفها الديمقراطية الفرنسية ؟

ولم يكن أحد يعتقد أن فرنسا ستدافع طيلة خمس سنوات عن هذا الاستعمار السفيه دفاعاً تاماً، وإنها ستقوم في القارة الإفريقية بمثل ما قامت به زميلتها في إفريقيا الجنوبية ... بل ولم نكن نعتقد – فضلاً عن ذلك – أن الشعب الجزائري سيسجل اسمه في التاريخ بمثل هذه القوة !

وعلينا أن نتحاشى الأوهام. ولن تكون الأجيال القادمة أشد تهاون كما لن تكون منهوكة القوى بصورة أكثر من تلك التي آثرت الفرار، بل أصبح يتوفر على العكس من ذلك نوع من الصلابة ومن الإرادة بغية الوصول إلى مستوى (الأبعاد التاريخية) حرصاً على عدم التهاون في حق مئات الآلاف من الضحايا ... هذا بالإضافة إلى أنّ ثمة تقديراً دقيقاً لإبعاد الخلاف والصداقات والتضامنات والمصالح والتناقضات التي تملأ العالم الاستعماري

"إن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يستخدمها الجزائري اليوم بقصد إعطاء معنى لموته هي الحصول على بندقية والانضمام إلى جيش التحرير الوطني ...فالحياة تحت السيطرة قد فقدت معناها منذ أمدٍ بعيد"

وعندما تصبح هذه صورة للتصريحات التي يفوه بها أعضاء من الحكومة الجزائرية فهي لا تعبر عن خطإ في الحكم أو عن الذهاب إلى ابعد مدى ممكن في التطرف بل هي أبسط صورة لتقرير الحقيقة.

وفي الجزائر موقف لا يقبل النقض فيما يتعلق بالشعب الجزائري نفسه. ولقد الاستعمار الفرنسي- ذلك بنفسه وهو يحاول الآن أن يتتبع الحركة التاريخية بطريقة فوضوية، وإذا بنا نرى 80 نائباً جزائرياً يشغلون مراكزهم في الجمعية الوطنية الفرنسية ولكن ذلك لا يجدي نفعاً اليوم.

لقد وافق على الجمعية النخبة الموحدة والمتطرفون من أعضاء السيطرة والسيادة ولكنت هذا يدعو للسخرية في 1995 إذا وضعنا في الاعتبار بعض الأبعاد الاستثنائية التي أدركتها الجزائر بوعيها القومي، فلنستطلع على سبيل المثال رأي أية امرأة أو رجل في مشارق الأرض ومغاربها، ولنسأله ما إذا كان الشعب الجزائري لم يحصل بعد على حقه في نيل الاستقلال نيلاً مضاعفاً 20 مرة. إنه ليس ثمة أحد عدا أولئك الفرنسيين الذين ساقوا بلدهم إلى هذه المغامرة الشنيعة، لا يأمل في عام 1959، في جعل حد نهائي لهذه المجزرة حتى يولد الوطن الجزائري.

ومع ذلك فالحرب تتواصل دون أي مخرج متوقع، ومعروف أن الجيش الفرنسي- لا يزال يهيئ للشهور المقبلة سلسلة من الهجمات. فالحرب مستمرة، وللناس الحق اليوم إذن في أن يتفاءلوا عن أسباب هذا العناد. وعلى الجميع واجب في أن يفهموا هذا التعمق في حرب تشبه من شتى جوانبها الملاطفة عن طريق القسوة

العاطفية المرضية. ونحن نودّ أن نبرز في هذه الدراسة الأولى أنه قد نشأ فوق الأرض الجزائرية مجتمع جديد ... فرجال الجزائر ونساؤنا لا يشبهون رجال ونساء عام 1830، وهو لا يشبهون كذلك رجال ونساء عام 1954 ولا رجال ونساء 1957 فالجزائر القديمة قد انتهت.

إن هذا الدم البريء الذي يتفجر من الشرايين المكتنزة فوق التراب الوطني قد رفع إلى الوجود إنسانية جديدة ولا ينبغي أن يجهل أحد هذه الواقعة.

وبعد أن اكدت فرنسا بالأمس بأنها "لا تسلم مليون من أولادها إلى العرب" أخذت تصرح اليوم أنها لن تتخلى أبداً عن الصحراء وثروتها، وتلك حجج ليس لها بطبيعة الأمر أية قيمة عند الجزائري. فهو يجيب على ذلك بأن ثروة بلد من البلدان لا يمكن أن تشكل عذراً مقبولاً لظلمه واضطهاده.

وسوف نوضح هنا أن شكل ومحتوى الوجود القومي يوجدان في الجزائر منذ القدم وانه لا يمكن – في أي حال من الأحوال – أن يكون الرجوع إلى الوراء موضع تفكير . وإذا كنا نلاحظ في كثير من البلدان ذات المستعمرات أنّ الاستقلال الذي تحصل عليه بعض الأحزاب هو وحده الكفيل بأن يبثّ الوعي القومي في شعب من الشعوب، فإن الوعي القوي هذا وأنواع البؤس والأهوال المشتركة هي التي تجعل الشعب الجزائري يأخذ زمام مصيره بيديه. ذلك أن الجزائر قد حصلت مبدئياً على استقلالها، واعتبر شعبها نفسه بعد ذلك صاحب السيادة والسلطان، فلم يبق حينئذ لفرنسا إلاّ أن تعترف بها ... وهذا أهم شيء بطبيعة الحال.

غير أن الوضع من أمهات المسائل وينبغي أن يذاع لدى العامة، لأنه يضع حداً أساسياً لآمال الاستعمال الفرنسي-، العسكرية منها والسياسية. فلماذا يا ترى ترفض الحكومة الفرنسية وضع نهاية لحرب الجزائر وإقامة تفاوض مع أعضاء الحكومة الجزائرية؟ أليست هذه تساؤلات يطرحها كل رجل شريف عرف عام 1959 ؟ أنه لا يكفي أن تؤكد بأن الاستعمار الفرنسي- لا يزال قوياً في فرنسا أو بأن الصحراء قد غيرت معطيات المسألة فكل ذلك صواب لكن ثمة شيء آخر يجعلنا نعتقد في الجزائر من أنّ النقطة الرئيسية التي تقف حجرة عثرة أمام الاستعداد القومية وأمام الحكومة الفرنسية كانت تتمثل في الأقلية الأوروبية ولذا فلقد خصصنا فصلاً كاملاً في هذه المسألة.

إن الجزائر مستعمرة عمرت بالسكان، ونحن نعلم بالمعنى الواسع، أنّ آخر مستعمرة عمرت بالسكان وأذاعت صيتها هي إفريقيا الجنوبية. وأنّ الأوروبيين في الجزائر لم ييأسوا أبداً من قطع حبل الصداقة مع فرنسا وفرض سننهم القاسية على الجزائريين، وتلك هي الظاهرة الوحيدة التي تميزت بها السياسة الاستعمارية في الجزائر لأن هذه الفكرة في صالح الجيش الفرنسي- إما إشاعات السلم التي تفجر هنا وهناك فلا ينبغي أبداً أن ننظر إليها بعين الاعتبار... ففرنسا لا تحقق السلام إلا بطريقة دعم سيطرتها على الجزائر أو "تحطيم الإقطاعات الأوروبية في الجزائر" وما عدا هذين الجانبين فيجب أن يفرض عليها السلام دولياً من قبل الأمم المتحدة، أو عسكرياً من قبل القوات الجزائرية ... وبذلك نرى أنّ آفاق السلام بعيدة كل البعد.

سوف نبين أن فرنسا لا يمكن أبداً أن تستأنف من جديد تسلطها على الجزائر، حتى وإن كان هذا التسلط مخففاً مستوراً. فالحكومة الفرنسية مضطرة إلى أن تقاوم بعض المئات من مجرمي الحرب وأن تغطي أكثر فأكثر هذه الإبادة التي تزداد ضيقاً وحدّة في الجزائر. ولعل السلطات الفرنسية تسخر حينما تؤكد أنّ "عدد الثائرين 25.000 رجل" إذ ما قيمة هذه الأعداد بالنظر إلى الطاقة المقدسة العظيمة التي تثبت غليان الشعب بأكمله ؟ وحتى إن وقعت البراهين على أنّ عدد قواتنا يتجاوز 5.000 رجل غير مسلح تسليحاً كافياً، فما قيمة معرفة هذه الأعداد إذا كان مليون مسلح يبقى دوماً هذه السلطات غامضة غير راضية ؟ فهكناك مئات الآلاف من الجزائريين والجزائريات الآخرين لا يعذرون المسؤولين لعدم تجنيدهم وتركهم غير مسلحين... وحينئذ نتساءل كيف يكون مصير الحكومة الجزائرية دون وجود شعب بأكمله وراءه ؟

لقد اعترفت السلطات الفرنسية حديثاً وبصفة رسمية، بوجود مليون من الجزائريين، المفترقين منهم والمجتمعين، وأرادت أن تقسم الجيش الشعبي وتتجنب على ما يبدو (تعفن الجزائر) ولكن إلى أي حدّ ؟

وبمجرد توفر مليون من الرهائن المعتقلين صار الفرنسيون أنسفهم ينذرون بالخطر وأخذوا يرددون عباراتهم المشهورة : "إنّ الأدوية لم تؤثر في هؤلاء المسجونين بسبب هبوط مستواهم الفيسيولوجي هبوطاً عميقاً" ومع ذلك لا يزال الاستعمار يفرغ جهده الجهيد من أجل دعم سيطرته واستغلاله البشري والاقتصادي وكذلك من أجل المحافظة الذاتية على الصورة المحتقرة التي كان

الجزائري يرى فيها نفسه من قبل... لكن ذلك قد اصبح مستحيلاً منذ أمدد مديد.

إنّ الأمة الجزائرية لم تعد اليوم مرسومة في آفاق خيالية. ولم تعد وليدة خيالات غامضة قد اعتجنتها الخرافات والأوهام، ذلك أنها قلب الرجل الجزائري الجديد ذاته، وهو رجل (ذو طبيعة جديدة) وذو أبعاد مستحدثة لوجوده. والدعوة التي تذهب إلى أن الرجال يتغيرون في وقت تغيرهم للعالم، لم يكن لها ابداً مثال أعظم وضوحاً ونمط أقوى دليلاً من الجزائر. فتجربة القوة هذه لا تعيد تشكيلة ضمير الإنسان ووعيه بذاته. ولا تحول الفكرة التي يضمرها إزاء المتسلطين عليه أو على العالم فحسب.

ولكن هذه المعركة ذات المستويات المختلفة تعمل اليوم على تجديد رموز الشعب وأساطيره واعتقاداته وانفعالاته... ونحن نشهد في الجزائر استئنافاً جديداً لسير الإنسان.

فمن ذا الذي يستطيع أن يأمل في إيقاف هذه الحركة الجزائرية ؟ ألا يجدر بنا أن نفتح أعيننا لنتأمل ما في هذا المصير من جلال ومن وضع طبيعي أيضاً ؟ ألا يزال الأمر في هذا العصر – كما كان في الماضي – يحتاج إلى أن يقاتل الإنسان ويموت ليحصل على حقه في أن يكون مواطن أمة من الأمم ؟

أليس شنيعاً ومخزياً وفاحشاً أن يقال مثل هذا الشعار : "الفرنسيون .. المسلمون"؟ أليس على وجه البسيطة ما يكفي من العزائم لفرض التعقل ضد

عدم التعقل؟ لقد صرح الجنرال (شارل) "أن احتمال التغلب على المقاومة لم يعد أمراً يمكن تجاهله"' لكن ذلك يعتبر سخرية إذ أنّ القادة العسكريين والجنرالات الاستعماريين يكررون نفس الشيء ولكن كيف لا يفهمون أنّ الثورة لا تهزم، وما الذي يعنيه (القضاء على المقاومة)؟ كثيراً ما سعوا للتغلب على وحدة الكاميرون الشعبية ولكن ألم يمنح الاستقلال إلى الكاميرون ؟ لعل الفرق الوحيد هنا، هو أنّ الاستعمار قد خلف اضعافاً مضاعفة، في حظيرة الشعب الكاميروني قبل انصرافه، من أنواع الخديعة واستغلال النفوذ وصنوف البغض والضغينة... ومن ثم كان مستقبل الكاميرون مرهوناً سنوات عديدة بسياسة ذاتت طابع مشؤوم وركيك على ما يبدو.

وإننا نودّ أن نوضح في هذه الصفحات أنّ "الاستعمار قد خسر المبادرة نهائياً في الجزائر بينما ربحها الجزائريون نهائياً وفي جميع الوجوه"

إنّ هذا الشعب الذي فقده التاريخ، والذي أعاد إلى الوجود ثانية علماً وحكومة اعترفت بها دول عديدة، لا يمكن أن يتراجع الآن عن أمر قصده. فهذا الشعب الأمي الذي يسجل صفحات من أجمل صفحات النضال وأبلغها تأثراً، لا يمكن أن يقهر ويسكت أبداً.

فعلى الاستعمار الفرنسي أن يدرك هذه الأمور والاّ يجهل أن الحكومة الجزائرية تستطيع أن تعبئ في أي وقت كان، أي جزائري من الجزائريين، وحتى أولئك المنتخبون الجدد الذين سجلت أسماؤهم بالرغم منهم في القوائم الانتخابية للإدارة يستقيلون بأدنى أمر تصدره جبهة التحرير الوطني. والأمر نفسه يتعلق

بنواب (13 مايو) الذين لا يمكنهم كذلك أن يعارضوا السلطة الوطنية الجديدة. إذن ؟ قد يستطيع جيش من الجيوش أن يسترجع في جميع الأوقات معركة خسرها، ولكن كيف يستطيع أن يثبت من جديد الخوف واليأس ومركب النقص في ضمير شعب من الشعوب ؟ وكيف نفترض – كما كان الجنرال (ديغول) يدعو إلى ذلك بسذاجة – أن "يعود الجزائريون إلى ديارهم" ؟ أي معنى يمكن أن تتضمن هذه العبارة اليوم بالنسبة للجزائريين ؟

إن الاستعمار يجهل المعطيات الحقيقة للمسألة ويخيل إليه أننا نقدر قواتنا بتقدير عدد رشاشاتنا الثقيلة، لقد كان ذلك صحيحاً في الشهور الأولى من عام 1955، أما اليوم فقد اصبح الوضع على غير ما كان عليه سابقاً.

ذلك أنّ عناصر أخرى قد أصبحت ذات تاثير في التاريخ، ثم أنه لم تعد الرشاشات والمدافع اليوم تمثل أسلحة المستعمر الغازي.

إن ثلثي سكان العالم يستعدون اليوم إلى منح ثورة كلما تحتاج إليه من رشاشات ثقيلة... ولإن كان الثلث الأخير قد يمتنع عن مثل هذا، فليس معنى ذلك أنه لا يتفق مع قضية الشعب الجزائري. إنه على العكس، يشعر دوماً وبتعبير ملموس صريح أنه يمنحه تأييده المعوي المطلق في جميع الأوقات

إن قوة الثورة الجزائرية تتمثل بادئ ذي بدء في التحويل الجذري الذي حدث عند الجزائريين. أما الجنرال ديجول فقد كان على صواب حينما صرح اخيراً،

متوجهـاً إلى المتطـرفين الأوروبيـين في الجزائـر : "إن الجزائـر باب قـد ماتـت" لكـن الجزائر قد ذهبت على ابعد من ذلك.

فقـد ماتـت كـذلك جزائـر الأخ الكبـير واصـبحت اليـوم جزائـر جديـدة ووطنـاً جزائرياً وحكومة جزائرية... وتلك حقائق ينبغي الرجوع إليها آجلاً أم عاجلاً.

سـوف نـرى في هـذه الصفحـات تـلك الاضـطرابات الـتي حلـت بضـمير الجزائـري وتـلك التشققـات الـتي اسـتعاد بفضـلها المجتمـع الأوروبي في الجزائـر تكوينـه. ونحـن نشـهد في الواقـع عقليـة المسـتغل الأوروبي وهي تحتضر- رويـدا رويـداً، ولكـن بالتأكيد.

ومـن ثمـة كانـت هـذه الدعـوة الـتي تصادفنـا غالبـاً والـتي تثبـت " أن نهايـة الاستعمار هي نهاية رجل الاستعمار والخاضع للاستعمار على السواء"

إن العلاقـات الجديـدة لا يمكنهـا أن تـتلخص في إحـلال همجيـة بهمجيـة أخـرى أو في سحـق الإنسـان بسـحق آخـر للإنسـان. فالشيـء الذي نريـده نحـن الجزائريـون هـو اكتشـاف الإنسـان مـن وراء رجـل الاسـتعمار أي ذلك الإنسـان الذي يعتبر في نفس الوقت إنساً منظمـاً وضحيـة لنظـام خنقـه وحمـله عـلى السـكوت. أمـا نحـن فقـد أرجعنـا حقـوق الرجـل الجزائـري المسـتعمر منـذ شـهور طـويلة وانتزعنـاه من الاضطهاد الحاقد المديد.

وقـد نهضنـا ونحـن نقـدم الآن عـلى نهضـة ملحوظـة، فمـن ذلك الذي يمكنـه أن يرمي بنـا ثانية في حجر الاستعباد ؟

إننـــا نتـوق إلى الجزائـر مفتوحـة للجميـع ومناســبة لكافـة العبــاقرة. ذلك مـا نريده وما سنقوم به ولا نعتقد قط أنّ ثمة قوة من شأنها أن تسدّ طريق سعينـــــا.

(فرانز فانون)

يوليو 1959

الفـصـل الاول

الجزائر ترفع نقابها

تؤلف تقنيات الملبس و تقاليد الزي و الزينة أكثر صور الأصالة لفتا للانتظار، اي ان هذه التقنيات هي اول ما يبدو للرؤية في مجتمع من المجتمعات . ذلك انه توجد بطبيعة الحال ، في داخل المجموعة و في اطار الشكل الهيكلي الخارجي المحدد سلفا بصفة قاطعة ، تعديلات تمس التفضيلات و تجديدات تحدد الموضة في المجتمعات الشديدة التقدم و تحصرها حصرا . غير ان خط السير العام يظل متجانسا و يمكن اعادة تجميع الاتجاهات المدنية الكبرى و مناطق حضارية شاسعة عن طريق التقنيات ذات الاصالة المخصصة من ملابس الرجال و النساء .

وتعرف انماط المجتمع اول ما تعرف من خلال الملبس ، سواء بواسطة الاستطلاعات (الريبورتاجات) او بواسطة الاشرطة السينمائية . فثمة حضارات بلا ربطة العنق و حضارات اخرى بالتنورات و ثالثة بلا قبعات . و يستدل على انتماء الى بعض الاتجاهات الثقافية المعروفة في اغلب الاحيان ، بواسطة تقاليد الملبس لدى اعضائها .

و اول يلاحظها السائح مباشرة في العالم العربي مثلا هو الحجاب الذي تلتحفه النساء. فقد بقية السائح مدة طويلة قبل ان يعرف ان المسلم لا الخنزير في طعامه او انه يمتنع عن العلاقات الجنسية في النهار اثناء شهر رمضان ، لكن حجاب المرأة هذا يظهر بالحاح و ثبات يكفيان لجعله طابعا مميزا للمجتمع العربي .

ويعتبر الحجاب في المغرب العربي تقليدا من تقاليد اللباس في المجتمعات الوطنية ، التونسية منها و الجزائرية و المغربية و الليبية . و هو يحدد بالنسبة الى السائح الاجنبي، المجتمع الجزائري و عنصره النسوي معا .

اما بالنسبة الى الرجل الجزائري فقد يمكن على العكس اعطاء الموصفات للتعديلات الاقليمية الصغيرة . فهناك " الطربوش " في المراكز العمرانية و"العمامة" و" الجلباب" في الاقاليم الريفية . و تتيح ملابس الرجال الفرصة لاقامة حد من الحرية و اختيار مع اقل مجال للتنافر بينما تعمد المرأة الى توحيد المراى امام ناظر النسوي الجزائري وهي ماسورة في حجابها الابيض .

ومما لا شك فيه ان الامر بتعلق بزي عام لايقبل اي تعديل او تنوع. (فالحايك) يحدد المجتمع الجزائري الخاضع للاستعمار .ونحن نستطيع ، طبعا ان نبقى مترددين حائرين امام فتاة صغيرة ، لكن لا يلبث ان يختفي كل التشكك وقت البلوغ . فالحجاب يحدد الامور و ينظمها و ذلك ما يجعل المراقب الاجنبي ينظر الى المرأة الجزائرية بوصفها " تلك التي الي تختفي وراء الحجاب " . سوف نرى ان الحجاب الذي يعد عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية سيصبح فرس الحلبة في معركة ضخمة تعبئ قوات الاحتلال بمناسبة اكثر مصادر ثروتها قوة وتنوعا، بينما يبذل فيها المواطن الخاضع للاستعمار قدرة مذهلة القصور .

و يسلك المجتمع الاستعماري عامة في مقابل ذلك سلوكا متناسقا امام لبس الخمار ، يستخدم فيه كل قيمه و خطوط هجومه و فلسفته . و قد ظهر الصدام الحقيقي قبل سنة 1954 بل من سنة 1930 الى سنة 1935 على وجه التحديد .. ذلك ان مسؤولي الادارة الفرنسية بالجزائر ، و المكلفين بتحطيم اصالة الشعب المزودين بسلطات للعمل على تفتيت صور الوجود المحرك للقومية بشكل او بآخر مهما كلفهم الامر ، سوف يوجهون اقصى جهودهم على لبس الحجاب الذي صار

ينظـر اليـه خـلال المعركـة كرمـز لكيـان المـرأة الجزائريـة ووضـعيتها . ولم يكـن ذلك الموقـف نتيجـة لحـدس عشـوائي ، بـل ان اخصـائي شـؤون المـواطنين الاصـليين ورؤسـاء المكاتـب العربيـة صـاروا يعملـون عـلى تنسـيق نشـاطهم ابتـداء مـن تحـليلات علـماء الاجـتماع و علـماء المسـائل السـكانية و مشـاكل الشـعوب . ولا نلبـث فنشـهد في المـرحلة الاولى اعـادة خالصـة نقيـة للصـيغة مشـهورة للعبـارة ((فلنمـتلك النسـاء اولا و لا يلبـث كل شيء ان يتلـو)) . و يجـد هـذا التعبـير تفسـيره النـاجح بان يكتسي صبغة علمية كأنه اخر ((اكتشافات)) علماء الاجتماع.

و اعتـاد الأخصـائيون ان يصـفو الـنمط الاسري المعتمـد عـلى سـلطات الاب في المجتمـع الجزائـري وصـفا يضـع الام في الموضـع الجـوهري . فـالمجتمع العـربي قـد خضـع في اغلـب الاحيـان لتحـليلات الغـربيين كأنـه مجتمـع قـائم عـلى المظهـر الخـارجي فقـط وكانـه يتمسك بإفراط بالشكليات و الوجاهة الشخصية .

وتبـدو المـرأة الجزائريـة وهي تعـيش بـين القـوة الغامضـة و الجماعـة ذات اهميـة اوليـة. ويتضـح بالتأكيـد انـه يوجـد وراء الحـكم الابـوي المـرئي الظـاهر، حـكم خاضـع لنفـوذ الام في اساســه . و تــذكر هنــا ادوار الام الجزائريــة و الجــدات و الخــالات، و((الشائبات)) (المسنات) بصورة تبجيلية دقيقة .

وقـد امكـن الادارة الاسـتعمارية اذن ان تحـدد مـذهبا سياسـيا دقيقـا عـلى نحـو ((اذا اردنا ان يضرـب المجتمـع الجزائـري في سـياقه المـتلاحم و في مقدرتـه عـلى المقاومـة والصـمود فينبغـي اولا ان نسـتولي عـلى المـرأة مـن وراء حجابهـا حيـث تختفـي ، و في المنازل يخيفها الرجل))، و بذلك يصبح موقف المرأة اذن موضوعا للعمل الفعال.

فالإدارة الأجنبية المسيطرة ترغب في أن تدافع بجلال عن المرأة المستذلة المعزولة المحجوبة عن الاعين ... ويجري على الأقلام وصف الإمكانيات الضخمة للمرأة التي حولها الرجل الجزائري لسوء الحظ الى مادة جامدة فقدت حظوتها وشخصيتها، اي إنسانيتها .

و تندد الإدارة الاستعمارية تنديد حاسم قائم على العلم بتصرف الرجل الجزائري و تجعله امتدادا لخصال القرون الوسطى البربرية، كما انها تقوم بمهارة بالغة بإلصاق عتاب نموذجي ضد الجزائري السادي المتوحش في تصرفه مع النسا، و يجمع المستعمر الاجنبي حول حياة الجزائري العائلية مجموعة كاملة من الأحكام و التقديرات و الاعتبارات و يكثر من النكات و النوادر و الأمثلة البناءة محاولا بذلك وضع الجزائري في قفص الاتهام .

و تتكاثر جمعيات التعاون و التضامن مع النساء الجزائريات تنظم الشكاوي:((يا لخزي الجزائري على ما يقترفه إزاء الأنثى)) وتلك هي فترة الهيجان الشديدة والاستعانة بتطبيق كل التقنيات من اجل النفاذ و التسرب و التزاحم داخل الأحياء العربية في صورة المعاونات المسعفات والمنشطات الأعمال الخيرية

و بدا المشروع بمقر النساء الفقيرات الجائعات . ففي مقابل كيلو من السميد الموزع على الناس، كانت توجه كمية من السخط على الحجاب والانعزال. و يعقب هذا السخط نصائح عملية تتمثل في دعوة النساء الجزائريات الى أن يلعبن ((دورا أساسيا و رئيسيا في تغيير مصيرهن)).

ويجري فرض الإجابة ب ((لا)) أمام الخنوع المؤبد مع شرح دور العظيم الذي ينتظرهن . و تستثمر الادارة الاستعمارية مبالغ هامة في هذا الصراع . وبعد التأكيد ان المرأة تشكل محور المجتمع الجزائري ، تبذل جميع المجهودات من اجل المراقبة والتعهد المستمر . ومن المؤكد ان الجزائري لن يحرك ساكنا و سيقاوم عملية التخريب الثقافي التي يشنها المستغل الاجنبي كما انه سيعترض على اي اندماج ما دامت زوجته لا تمتثل للوضع الراهن . و ترجع الى المرأة، وفقا للبرنامج الاستعماري، المهمة التاريخية بدفع الرجل الجزائري الى فقد التوازن . فإقناع المرأة و تحويل عقيدتها واخضاعها للقيم الأجنبية، و انتزاعها من كيانها ... كل ذلك يعني في الوقت نفسه، السيطرة الحقيقية على الرجل و امتلاك الوسائل العملية الفعالة لتخريب الحضارة الجزائرية .

و اليوم ، في سنة 1959 لم تغب عن احلام العدو استخدام المجتمع الجزائري واستئناسه بمعاونة النساء السافرات المؤزرات للغاضب المحتل، و بقيت تراود خيال المسؤولين السياسيين الاستعماريين.

اما الرجال الجزائريون فانهم يتعرضون من جهتهم لانتقادات رؤساهم بلهجة جدية، و لايوجد عامل اوربي واحد لم ير نفسه مدفوعا في اطار علاقاته الشخصية في الورشة او في المكتب الى طرح الاسئلة الخاصة بالمناسبات العامة على الجزائري على نحو : ((هل امراتك محجبة ؟ لماذا لا تزمع العيش على الطريقة الاروبية ؟ لماذا لا تصحب زوجتك الى السينما او المباراة او المقهى ؟))

و لا يكتفي السادة الاروبيون بالموقف بالموقف الاستفساري او الدعوة في المناسبات، بل انهم يستخدمون : ((مناورات الهنود الحمر)) من اجل تضييق الخناق على الجزائري، و من اجل ان يفرضوا عليه قرارات مؤلمة .

و هكذا يدعو هؤلاء السادة ((الجزائري و زوجته)) بمناسبة حفلة من الحفلات كعيد ميلاد المسيح او عيد رأس السنة ، او حتى لبعض المناسبات الخاصة بالمؤسسة التي يعملون بها ، ولكن الدعوة لا تكون جماعية ، ويطلب مسبقا من الجزائري الحضور الى مكتب المدير حيث يدعى شخصيا بالاسم للمجيء مع ((عائلته الصغيرة)) الي الوليمة . و نظرا لكون هذه المؤسسة بمثابة اسرة كبيرة فان كل من يحضر- بدون زوجته سيحظى بنظرة سيئة .. و السبب لا يخفى عليكم بطبيعة الحال .. و يشهد الجزائري أمام هذا الإنذار الرسمي لحظات صعبة في بعض الأحيان . فحضوره مع زوجته يعني الاعتراف بهزيمته وكأنه ((تعريض بزوجته و استعراض لها على الملأ و فقدان اتجاهه في المقاومة)).

اما حضوره وحيدا فيعني ، خلافا لذلك ، عدم إرضاء لرغبة رئيسه وتعريض نفسه للبطالة . و ان الدراسة حالة من حالات المختارة صدفة و تنمية انواع الفخاخ من طرف الاروبي من اجل تضييق الخناق على الجزائري و دفعه الى أن ينفرد بوضعه وأن يبوح بقوله : ((إن زوجتي ترتدي الحجاب و لا تذهب إلى أي مكان)) او ان يندفعوا الى الخيانة فيقول : ((اذا كنت تصر- على ان تراها فهاهي ذي)) . ويشير الطابع السادي الشرير الخاص بالروابط و العلاقات باختصار الى المستوى النفسي- حيث ماساة الوضع الاستعماري و تقابل الناظمين وجها لوجه ،

والملحمة الخاصة بالمجتمع الخاضع لاستعمار بكل مخصصات وجوده ازاء الافعى الاستعمارية .

ويظهر الاعتداء بكل كثافته ضد الجزائري . فالفلاح ((ذلك العبد السلبي لمجموعة متصلبة)) يجد نوعا ما من السماحة امام الحكم الذي يصدره الغازي ، في حين يتعرض المحامي و الطبيب الى تنديد حاد لم يسبق له مثيل . ويشار الى هؤلاء المثقفين الذين يستمرون في ابقاء زوجاتهم في حالة نصف عبودية بالأصبع في جلاء ووضوح .

و يثور المجتمع الاستعماري بحدة ضد انعزال المرأة الجزائرية على هذا نحو ، ويبدي قلقه و اهتمامه بؤلاء النساء التعيسات اللواتي قد فرض عليهن ((إنجاب الأولاد)) و هن محبوسات محرومات .

وتبزغ البراهين الاستدلالية العنصرية في وجه المثقف الجزائري بسهولة خاصة. فيقال مثلا : ((انه على ماهو عليه من العلم و الثقافة كطبيب فهذا لا ينقص شيئا من كونه عربيا قبل كل شيء ، فلنجرده من طبيعته الاصلية و سنراه بغد ذلك ملك ايدينا)) و يمكن ان تتضاعف الامثلة المعبرة عن هذه العنصرية تضاعفا غير محدود .

فقد يعاتب المثقف جهارا على كونه يجد من انتشار العادات الغربية المالوفة ، وعلى انه لا يلعب دوره كنواة فعالة لقلب عادات المجتمع الخاضع للاستعمار ، و على انه لا يمتع زوجته بمزايا أكرم و اعمق .

اما في المناطق المكتظة بالسكان فقد اصبح جاري العادة الاستماع الى ارويي يعترف بسخط على انه لم ير بعد زوجة صديقه الجزائري الذي يتردد عليه منذ عشرين سنة . غير اننا نجد على المستوى اوسع ادراكا و اكثر تعبيرا وصفا مريرا للواقع كما هو في قولهم : ((نبذل جهودا لا طائل من ورائها)) و ((.. ان الاسلام متمسك بتلابيب فريسته ...)) .

ويكفي اظهار الجزائري كفريسة يتصارع حولها كل من الاسلام و فرنسا الغربية بضراوة بالغة كيما ندرك اسلوب المحتل كاملا و فلسفته و سياسته التي تتجلى هنا بشكل صريح .

و يبين هذا التفسير في الواقع ان المحتل ، و قد اغضبته وقائع فاشلة صار يقدم بطريقة تبسيطية و معيبة نسقا من القيم يستعين به المواطن الجزائري ليدرأ عن نفسه اعتداءات ذلك المحتل الكثيرة .

وقد أدى هذا الموقف الى ان ارادة التفرد و الحرص على الاحتفاظ ببعض مظاهر الوجود القومي بلا مساس قد اصبحتا مندمجتين اندماجا كاملا في ضروب السلوك الدينية و الخراقية و المتعصبة.

ويأخذ هذا الرفض من جانب المحتل الغازي ، وفقا لهذه الظروف او لهذه الانماط من المواقف الاستعمارية ، صورا اصيلة . ففي المجموع كانت ضروب السلوك تلك خضعت للدراسة خلال العشرين سنة الاخيرة : ويمكننا بالرغم من ذلك ان نؤكد ان النتائج التي تحققت كانت كلها ذات قيمة .

و يستفيد اخصائيو التعليم الأول في البلاد المختلفة او التقنيون المخططون المختصون بالمجتمعات المتأخرة ... يستفيد هؤلاء من فهمهم هذا الطابع العقيم والضار لكل اجراء يوضح بالأفضلية عنصرا ما من العناصر التي يتألف منها المجتمع الخاضع للاستعمار . و حتى في اطار الامة التي استقلت حديثا ، فانه لا يمكن التهجم على هذا الجانب او ذاك من المجموع الحضاري ، بدون خطر على العمل المأخوذ في الاعتبار (لا بالنسبة إلى التوازن النفسي- الخاص بالمواطن الأصلي) . وينبغي على وجه التحديد ان تفهم الظواهر الخاصة بالعداء للتثقيف كما لو كانت استحالة عضوية توجد فيها إحدى الثقافات ، كما ينبغي تعديل أي واحد من هذه الأنماط في المعاش الإنساني بدون استعادة التفكير في قيمتها شديدة العمق او في نماذجها الأشد استقرار في نفس الوقت . و الواقع ان الكلام حول موقف العداء للتثقيف في حالة الاحتلال الاستعماري هو امر لا معنى له اذ يجب رد ظواهر المقاومة الملحوظة عند المواطن المحتل الى الوضع المضاد للاندماج و الى محاولة الاحتفاظ بالأصالة الحضارية و القومية بالتالي .

و كان لابد أن تحظى بطبيعة الحال قوى الاحتلال ببعض النتائج عندما حملت على ظاهرة الحجاب لدى المرأة الجزائرية أقصى- حملتها النفسية . وكان هذا ، هنا وهناك يقوم إذن مقام ((الإنقاذ)) لبعض النساء اللائي كنّ غير محجبات شكلا.

و كانت هؤلاء النساء الخاضعات للتجربة يمضين وسط المجتمع الأروبي المتحمسون والمنتصرون بكل هذا النوع من التعديل الذي يغمرهم ، ظواهر نفسية أشبه ما تكون بالظواهر النفسية التي تقترن بعملية التحول الديني .

و يشرع المسؤولون عن السلطة ، في تقوية إيمانهم في المرأة الجزائرية كعنصر من عناصر التاييد لنفاذ الحضارة الغربية الى المجتمع الجزائري الأصلي ، عقب كل مرحلة يسجلونها من مراحل نجاحهم . و كأنما كل حجاب يرتفع يعين لاستعماريين على استكشاف آفاق كانت حتى ذلك الوقت ، مستحيلة بالنسبة اليهم وتظهر لهم الأبدان الجزائرية المتعرية جزءا جزءا.

و كانت امال رجل الاستعمار تتضاعف عشرات المرات بفعل العداء المستحكم من نفسه عقب كل وجه يتخلى عن نقابة . و كان الأمل ينبعث لدى المحتل مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلى عن الحجاب في مجتمع جزائري تحكمه انساق دفاعية في طريقها الى التحلل و التكشف و التراجع .

و كان كل حجاب يسقط و كل جسد يتحرر من قيد الحجاب "الحايك التقليدي" وكل وجه يستسلم للنظرات الحادة الطامعة لدى رجل الاستعمار ، يعبر سلبا عن ان الجزائر تبدأ في الخضوع و تقبل مع كل حجاب يسقط الانضمام إلى المدرسة السادة الحكام و يقر بتغير عاداته بإرشاد رجل الاحتلال و تحت إشرافه .

وقد رأينا كيف يدرك المجتمع الخاص بالمستعمرين و إدارتهم حقيقة الحجاب . وقد أجملنا الصورة الدينامكية التي اتبعنها السلطات في جهودها من أجل الصراع على أكثر من جبهة سواء كنظام شامل أو كمجموعة من صور المقاومة التي نماها المجتمع الأصلي المحتل .

و لعله من الممتع أن نتابع ، على مستوى الفرد الأروبي على وجه الخصوص ضروب السلوك العديدة الناشئة عن وجود الحجاب ، أي المتولدة عن ذلك الأسلوب الأصيل الذي اختصت به المرأة الجزائرية في ان تكون حاضرة او غير حاضرة .

و لكن ماهي الانطباعات التي امكن تسجيلها لدى الشخص الأروبي الذي لم يأخذ على عاتقه مباشرة عملية التحويل العقائدية ؟

و يبدو لنا الموقف المسيطر كضرب من الإغتراب الرومانتيكي المشبع بحسية قوية . فالحجاب أولا وقبل كل شيء يستر جمالا. تلك إحدى الأفكار التي كان قد قدمها لنا احد الأروبيين العابرين في الجزائر من بين عدد من الأفكار الأخرى الموحية بذلك الرأي .

و كان قد أمكنه أن يتعرف على بعض الجزائريات غير المحجبات أثناء قيامه بممارسة مهنته في المحاماة و كان يقول عن الجزائريين أنهم مذنبون عندما يقومون بتغطية كل هذا القدر من الجمال الفريد و لابد ان يقوم الشعب ، عندما يمتلك (هكذا ظن هذا المحامي) مثل هذا القدر من أنواع النجاح و الكمال في الطبيعة .... لابد ان يقوم هذا الشعب باظهار و عرض هذا كله . واذا اقتضى الأمر ــ هكذا قال ــ علينا ان نتمكن من ان نلزمهم بأن يفعلوا ذلك .

وكان ما يشاهده الاروبيون في التزام و القطار من خصلة الشعر الظاهرة وبعض جوانب الجبهة مما ينبئ بوجه ((مروع)) : كان هذا كله يخاطب إيمان الرجل

الاروبي في وضعه اللامعقول و يقويه ، بأن المرأة الجزائرية هي سيدة كل النساء بلا مراء غير أن عداء الرجل الأروبي الذي كان بالمثل قد تبلور و بلغ درجة التوتر في العنف ازاء المرأة هو البرهنة على ما لها من جمال و كشف اسرارها و تحطيم مقاومتها و دفعها الى ان تصبح في متناول اليد عند المغامرة .. ذلك ان اخفاء الوجه هو ايضا اخفاء للسر- بل وخلق لعالم من الأسرار والاستار . وعاش الرجل الأروبي في اضطراب وبصورة معقدة جدا كل صلاته بالمرأة الجزائرية و تجسم ذلك في ارادته في ان تصبح تلك المرأة في متناول اليد وفي رغبته في ان يجعل منها شيئا عابرا يملكه .

و تلك المرأة الجزائرية التي ترى و لا ترى كانت تحبط رجل الاستعمار وتخيفه لعدم وجود تقابل متبادل . فهي لا تذعن و لا تعطي نفسها و لا تستسلم . واعتاد الرجل الجزائري وضعا معينا واضحا في مجموعة ازاء المرأة الجزائرية .فهو لا يراها بل وتكاد تسيطر عليه ارادة دائمة في ان لا يستشعر هيئة المرأة و في ألا يلتفت الى النساء . وعلى ذلك لا يوجد لدى الجزائري سواء كان في الطريق العام او في شارع صغير ، ذلك السلوك الخاص باللقاء بين الجنسين كما يوصف عادة على مستويات النظرة والخيلاء و المظهر العضلي و الاختلافات السلوكية المضطربة التي اعتدناها في ظاهرية اللقاء .

و لكن الرجل الأروبي في مواجهته للمرأة الجزائرية يتطلع للرؤية ، و لذلك يتميز موقفه برد فعل بطريقة عدائية امام هذا التحديد لأبصاره . و لذا يتطور كل من الاحباط والعداء في انسجام تام .

و يظهر العداء أول ما يظهر ، في الأوضاع غير الثابتة من الناحية البنيوية وفي مواد الأحلام التي يقدم الأروبي السوي (المصاب باضطرابات عصبية مرضية) الدليل على وجودها بلا مبالاة .

و في العادة يسمع الأطباء الأروبيون في نهاية استشاراتهم الطبية مثلا اخر النهار، وهم يعبرون عن خيبة أملهم . فالنساء اللائي يكشفن عن حجابهن أمامهم هن نساء تافهات ... وغير مهذبات ... ولا يوجد في الحقيقة الا احاطتهن بهالة من الاسرار ، وجري التسؤل عم يخفين .

وتنظم السيدات الأروبيات الصراع في قليل جدا من الحذر ، و هن يؤكدن في جدية أن المرء لا يكشفعما هو جميل و يبررن هذه العادة العربية بأنها ارادة نسائية بكل معاني الكلمة ، لاخفاء العيوب . و يمكن هنا مقارنة استراتيجية المرأة الأروبية التي تهدف الى الأناقة و الجمال و اعطاء الأشياء قيمتها (التجميل وترتيب الشعر والموضة) باستراتيجية المرأة الجزائرية التي تفضل الاحتجاب والتستر وتنمية الشك و الرغبة لدى الرجل ، و من جانب آخر يمكن الذهاب إلى أن ثمة إرادة خداع حول ((السلعة)) وما اذا كنا لا نقع في خديعة أثناء لحظة تغليف هذه السلعة مما يعدل فعلا من طبيعتها و قيمتها . و تحدد لنا مادة الأحلام التي يوفرها الأوروبيون موضوعات أخرى مفضلة وأفكار مميزة .

و قد اشار ((جان بول سارتر)) في كتابه عن افكار حول المسألة اليهودية ((انه على مستوى اللاشعور تعبق المرأة اليهودية دائما على وجه التقريب برائحة الانثى في الاصطياد و الاغتصاب)).

وقد ساعد تاريخ الغزو الفرنسي- في الجزائر ، المتعلق بالحملات المباغتة للقوات في القرى و المصادرة للثروات و الممتلكات و اغتصاب النساء و نهب البلاد ، ساعد كل هذا على ايجاد و بلورة نفس هذه الصورة الدينامكية.

و يخلق استحضار تلك الحرية المخولة ((للسادية)) التي يتمتع الغازي المحتل في شهوته الجنسية .. يخلق هذا الاستحضار مستوى هذه الادراج النفسية عنده كمحتل ، عددا من الهفوات والنقاط المثمرة التي يمكن ان تبزغ فيها دفعة وحدة ضروب من السلوك الاحتلالي بل و ضروب من السلوك الاجرامي في بعض المناسبات .

و هكذا اغتصاب المرأة الجزائرية في حلم الرجل الأروبي مسبوقا دائما بتمزيق الحجاب . و نشهد ها هنا عملية مزدوجة من عمليات فض البكارة و بذلك لا يصبح سلوك المرأة على الاطلاق نوعا من التأييد او القبول بل من الخنوع والامتثال .

و في كل مرة يلتقي فيها الرجل الأروبي الذي تسيطر عليه الأحلام ذات المضمون الجنسي بالمرأة الجزائرية تتبدى خصوصيات علاقاته بالمجتمع الجزائري المستعمر و لا تجري أحلامه لا على المستوى العشقي الجنسي- و لا حتى بنفس الايقاع الذي يتوفر لدى أولئك الذين يقحمون المرأة الأروبية في الأمر .

و لا توجد غلبة تدريجية أو حياء متبادل فيما يتعلق بالمرأة الجزائرية و انما يوجد تعامل على دفعة واحدة بأقصى- العنف و التملك و الاغتصاب و ما يشبه القتل .

ويكتسي- الفعل ازاءها بقسوة و بسادية شبه عصابية حتى لدى الأروبي السوي ، وهذه القسوة و تلك السادية هما مو يوضحه ، فضلا عن ذلك ، الوضع المتخوف لدى المرأة الجزائرية . وفي حلم تصرخ المرأة كضحية و تدافع عن نفسها كأنثى الابل ولكونها بلا أخطاء و بلا وعي تتعرض للهزيمة و تغلب غلى أمرها وقد تمزقت تمزيقا .

و يجرد بالمثل أن نبرز فيما بين مواد الأحلام طابعا يبدو لنا ذا أهمية .

فالأروبي لا يحلم اطلاقا بامرأة جزائرية انفرد بها على حدة . وفي االمرات القليلة النادرة التي يتحقق فيها اللقاء في صورة زوج لا تلبث ان تتحول لحظات اللقاء بسرعة بفعل الهرب اليائس للمرأة التي لا تجد مفرا من سوق الذكر و سحبه الى حظيرة من النساء . فالأروبي يحلم بمجموعة من النساء و بحقل من النساء مع استحضار فكرة الخدر و الحريم وهما موضوعان غريبان متمركزان بقوة في اللاشعور .

و تمثل قسوة الأوربي و عدائيته عن نفسها في اعتبارات خاصة بأخلاق المرأة الجزائرية و يتحول خجل المرأة الجزائرية و تحفظها و فقا لقوانين مبتذلة من علم النفس النزالي الى ضدها ، و تصبح الجزائرية متصفة بالنفاق و الفسق أو بعبارة أخرى شخصية نمفاوية حقيقية أي ذات شراهة جنسية ملحوظة .

و هكذا رأينا بسرعة استراتجية الاستعمار في خلق التحلل داخل المجتمع الجزائري على مستوى الافراد ، و رأينا هذه الاستراتجية كانت تعطى المكانة

الاولى في اهتمامها الى المرأة الجزائرية . و كان لتعطش الرجل المستعمر و شراهته مناهج في الصراع تذهب كلها بطبيعة الحال مذهبا يثير ضروبا من السلوك كردود فعل لدى الشعب الخاضع للاستعمار . و كان هذا الأخير يتجه عند مواجهته للعنف المتبع لدى جنود الاحتلال الى حد تحديد وضع مبدئي ازاء عنصر- كامن في نوعية الثقافة للمواطن الأصلي منذ القديم . وذلك هو الغضب الخاص بجنود الاستعمار بسبب رغبتهم في سفور المرأة الجزائرية و ذلك أيضا هو مغامرته من أجل كسب النصر- بأي ثمن فيما يتعلق بالحجاب ، و كلاهما سوف يثيران كل كوامن الشخصية الجزائرية الأصلية .

و تعطي الأقوال العدائية الخالية من الضوابط التي يتفوه بها جنود الاستعمار حول مسألة الحجاب حياة جيدة لهذا العنصر- الكامن ، الساكن سكون الموت في شخصية المواطن الأصلي الجزائري لأنه ظل مستقرا بلا تطور من حيث الشكل ومن حيث التلوين حتى أصبح زادا ثقافيا جزائريا . وهنا نجد من جديد واحدا من قوانين علم النفس الاستعماري . و لأول و هلة يبدو ان الفعل هو السبب أو هي جملة المشروعات والأهداف الخاصة بالجنود المستعمرين التي تحدد مراكز المقاومة التي تنظم من حولها إرادة الخلود عند شعب من الشعوب .

ان الرجل الأبيض هو الذي يخلق الرجل الزنجي ، و لكن الزنجي هو الذي يخلق مشكلة الزنوج أي جملة الخصائص الزنجية أمام الرجل الأبيض . و لم يلبث ذلك المواطن الخاضع للاستعمار ان قابل الاعتداء الاستعماري حول مشكلة الحجاب بالتمسك بالحجاب . وهكذا يتخذ هذا العنصر- الذي كان غير مميز في

مجموعة متجانسة طابع التحريم بحيث يصير وضع مثل هذه المرأة الجزائرية في مواجهة الحجاب يرتد دائما الى الوضع الشمولي في مواجهة المستعمر الأجنبي .

و يقوم المواطن الذي يخضع للاستعمار برد فعل على نحو عنيف جدا أمام الإلحاح المستمر من قبل المستعمر الأجنبي على هذا القطاع أو ذاك من قطاعات التقاليد ، و تقوم الاهتمامات بتعديل هذا القطاع بالذات و العاطفية الانفعالية المضادة من جانب الغازي المحتل في عمله التربوي و كل دعواته و مطالبه وتهديداته ، تقوم هذه كلها بإعداد نسيج حول العنصر- المفضل من عالم الحقيقي من ضروب المقاومة .

وكان تمسك الغازي المستعمر و عناده حول هذا العنصر- المحدد يستلزم انزال الهزيمة به في شكل مشهدي على مرأى و مسمع من الجميع ، أي التمسك على الخصوص بهذا ((التعايش)) بين أبعاد الصراع و الحرب الخفية و هذا خلق الجو المناسب للسلام المسلح . ويتعرض موقف المرأة الجزائرية و المجتمع القومي الأصلي فيما يتعلق بالحجاب لتعديلات هامة أثناء صراع التحرير . وتكمن اهمية هذه التجديدات في أنها لم تكن في أي وقت من الأوقات متضمنة في برنامج الصراع . و لم يفترض مذهب الثورة و الأوقات ولا استراتيجية الكفاح على الاطلاق أية مراجعة للتصرفات ازاء مسألة الحجاب . و يمكن التأكيد بادئ ذي بدء أن مثل هذه المسائل لن يثيرها أحد في الجزائر المستقلة لأن الشعب قد فهم من خلال ممارسته ان المشاكل انما تحل داخل نطاق الحركة نفسها التي تطرحها .

وقد قاد الكفاح الرجال وحدهم حتى سنة 1955 و فرضت خصائص الكفاح الثورية و ضرورة السرية المطلقة على كل موال لها ان تبقى زوجته في جهل تام بالموضوع . و بدأت المشاكل المستحدثة تظهر شيئا فشيئا في عملية تكيف العدو مع صور الكفاح بشكل استدعى حلولا مبتكرة . و لم يكن قرار قبول المناضلات من النساء كعناصر فعالة في الثورة الجزائرية أمرا ميسورا . اذ كان على مفهوم الكفاح نفسه أن يتعرض للتعديل بعض الشيء . وأدت وسائل الإرهاب استخدمها العدو المحتل وشراسته و تعلقه المفرط بالأرض القومية الى اتخاذ القيادات لبعض القرارات التي لا تعمل على استبعاد صور معينة من صور الكفاح.

و لم يلبث الإلحاح بضرورة الحرب الشاملة ان يستشري شيئا فشيئا . غير أن تشغيل النساء لم يكن يتفق و حسب مع الرغبة في تجنيد مجموع الامة ، بل كان ينبغي كذلك توحيد الجهود توحيدا منسقا في اشتراك المرأة في الحرب وفي احترام النمط المعتاد للحرب الثورية . و بعبارة أخرى كان على المرأة ان تستجيب بنفس روح التضحية التي استجاب بها الرجال .

و كان من الضروري اذن ان تعطي المرأة نفس الثقة التي تتطلبها من الأشخاص المشايعين المتحمسين الذين كانوا يتعرضون للسجن مرات عديدة . وكان من الضروري أيضا مطالبة المرأة بالتربية الخلقية و بقوة نفسية غير عادية وان كان بعضهن قد تردد ترددا كاملا .

و قد اتسعت دوائر العمل الثورية اتساعا ملحوظا و مضى جهاز الثورة بايقاع محدد. و كان من ضروري أن يطرأ التعقيد الجهاز أي أن تتزايد شبكاته بغير

احداث أدنى تغيير في فعاليته . وما كان يمكن استيعاب السيدات كمجرد قطع غيار، بل كعنصر قادر على أن يستجيب استجابة متكافئة مع المهام المستحدثة .

و أعانت السيدات في أعماق الجبال كل مقاتل اثناء استراحته أو أثناء نقاهته عقب اصابته بجروح أو بمرض التيفوئيد في مسرح المعركة غير أن القرار بادماج المرأة كنصر- رئيسي- و دفع الثورة الى الاعتماد على جهودها و على نشاطها في هذا القطاع أو ذاك ، كان كما هو واضح بمثابة وضع ثوري شامل ، وكان تعقيد الثورة الى هذا الحد اعتمادا على نشاط المرأة بمثابة القطع برأي له أهميته .

غير أن مثل هذا القرار قد لاقى صعوبات لأسباب عديدة . فقد رأينا المجتمع الجزائري ، و النساء بالذات ، يملن أثناء طول فترة الاحتلال التي لم يقم ضدها أي اعتراض الى تحاشي رجل الاستعمار اذ أن عناد هذا الأخير و اصراره في مشروعه بشأن سفور المرأة و بتحويلها الى حليف في عملية الهدم الحضارية ادت الى تقوية أنواع السلوك التقليدية .

و قد كان لهذه الأنواع من السلوك ، بطبيعة الحال ، بعض الآثار السلبية على الرغم من كونها ايجابيات فعالة في استراتيجيات المقاومة ضد فعل رجل الاستعمار التخريبي .و المرأة و بخاصة تلك التي تعيش في المدن تفتقر عادة الى بعض الصبر وبعض الثبات . و لما كان عليها ان تستغل مجالات ضيقة فقد ظل جسمها غير مزود بالحركية العادية وجها لوجه امام ذلك الافق اللانهائي من الشوارع و الأرصفة الضيقة والمنازل و السيارات و الأشخاص الذين ينبغي ازاحتهم

أو صدهم ... هذه الحياة المثقفة نسبيا و ذات التحركات المعروفة والمحسوبة و المنظمة سلفا تعرض كل ثورة مفاجئة للارتهان بصورة خطيرة .

و كان الرؤساء السياسيون يعرفون مثل هذه الأحداث الفريدة من نوعها معرفة كاملة ، ولم يكن ترددهم في الأمر الا تعبيرا عن الوعي الذي كانوا يملكونه ازاء مسؤوليتهم ، و كان من حقهم ان يشكوا في نجاح هذا الاجراء . اما كان يمكن ان يترتب على مثل هذا القرار أحداث خطيرة تؤثر في سير الثورة تأثيرا فاجعا ؟

و انضاف الى هذا الشك عنصر آخر له أهمية كذلك فقد صار المسؤولون يترددون في تشغيل النساء و تجنيدهن لمدى علمهم بفضاعة رجل الاستعمار وشراسته. و لم يكن المسؤولون عن الثورة يغالطون أنفسهم أدنى مغالطة فيما يتعلق بقدرات العدو الاجرامية ، اذ كان هذا العدو مجموعة من الأفراد خريجي السجون أو من أولئك الذين دربوا مع المفلتين من المعسكرات أو من الخلايا المساعدة للبوليس الجنائي الفرنسي .

و لم يكن من بينهم واحدا يجهل حقيقة أن كل امرأة جزائرية ستتعرض اذا قبض عليها للتعذيب حتى الموت . ومن الميسور نسبيا ان يلتزم المرء بنفسه في هذا الطريق وأن يتقبل من بين كل العوارض المختلفة فكرة أن يموت بالتعذيب ولكن الأمر كان أكثر صعوبة عندما كان ينبغي تعيين الشخص الذي يخاطر بتقبل هذه الموت بطريقة مؤكدة بشكل ظاهر . بيد انه كان ينبغي التصميم على دخول المرأة في الثورة و كانت المعارضات الداخلية بالجملة كما كان كل قرار من هذا القبيل يثير نفس التردد و يؤدي الى خلق هذا النوع من اليأس نفسه .

ولم يملك المراقبون امام هذا النجاح الغريب لهذه الصورة الجديدة من الكفاح الشعبي ، لم يملك هؤلاء المراقبون الا أن يضعوا نشاط المرأة الجزائرية في مصاف نشاط بعض بطلات المقاومة أو حتى بعض العملاء السريين في الخدمات الخاصة . وينبغي على الدوام ان نستحضر- في اذهاننا هذه الحقيقة ، وهي ان المرأة الجزائرية التي اشتركت في الثورة و التزمت بها قد تعلمت بالغريزة دورها كامرأة وحيدة في الطريق العام و رسالتها الثورية في وقت واحد .

ولم تكن المرأة الجزائرية عميلة سرية و انما اعتادت أن تخرج الى الطريق العام بدون تعلم و بدون تحضر- و بدون تاريخ ، و هي تحمل في حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقريرا عن النشاط محفوظا بمكان خاص في طيات ثدييها .

و لم تكن تعرف ذلك الاحساس بأنها تلعب دورا مقروءا مئات المرات في الروايات، أو مشاهدا في السينما . و لم يكن لديها شيء من ذلك العامل الحركي أو هذه الفعالية في المحاكاة التي تغلب دائما على وجه التقريب على هذه الصورة من العمل عندما تدرس المرأة الغربية .

فلم يكن دورها دور ابراز شخصية معروفة و مألوفة ألف مرة في الخيال أو في القصص بل ذلك نوع من الميلاد الحقيقي،في حالة النقاء بلا اعداد أو تمهيد. فلم يكن ثمة شخصية ينبغي محاكاتها . لقد كان ثمة ، على العكس من ذلك ، نوع المأساوية الشديدة و اختفاء تام لأدنى فرق بين المرأة و الثائرة ، اذ تقفز المرأة الجزائرية دفعة واحدة الى المستوى التراجيدي .

و كان كل ما يجري من تضاعف الخلايا الثورية التابعة لجبهة التحرير الوطني الجزائرية و اتساع رقعة المهام الجديدة و الشؤون المالية و الإرشادات والتوجيهات المضادة و التكوين السياسي وضرورة تأسيس خلية معينة للتدريب واعداد ثلاث أو أربع خلايا أخرى في نفس الوقت للحلول محلها ، اذا لزم الأمر وقوات الاحتياط القادرة على النزول الى المعركة عند أبسط إشارة إنذار تتعلق بالخطة الأولى ...كان كل هذا يلزم المسؤولين بالبحث عن عناصر أخرى من أجل إكمال مهمات فردية بصفة قاطعة . و عندما تعددت المقابلات الأخيرة اليومية التي فرضتها الثورة ، صدر القرار بتشغيل العنصر الأنثوي في الصراع القومي تشغيلا عينيا .

و يجب أن نلح مرة أخرى كذلك في يتعلق بالطابع الثوري الخاص بذلك الرأي النهائي . ففي البداية لم تشترك سوى النساء المتزوجات ولكن لم تلبث هذه الاحتياطات ان استعبدت بسرعة ووقع الاختيار أولا على زوجات الرجال العاملين في جيش التحرير.ثم لم يلبث أن وقع الاختيار على الأرامل او المطلقات. ولكن بأي حال من الأحوال لم يسمح للبنات الابكار بالعمل وكان سبب ذلك أن الفتاة الشابة حتى لو بلغت عشرين أو ثلاثة وعشرين سنة من عمرها قلما كان يسمح لها بالخروج منفردة من بين الأسرة . أما واجبات الأم او الزوجة والقلق بشأن حصر النتائج المحتملة فيما يتعلق بالقبض عليها وموتها في اضيق نطاق ممكن و كذلك تطوع العدد المتزايد من الشابات ، كل هذا دفع المسؤولين السياسين الى التنازل و استعباد كل تحفظ واتخاذ موقف متعادل امام مجموعة من النساء الجزائريات .

و أثناء ذلك كانت المرأة كضابطة اتصال أو حاملة منشورات متقدمة على بعد مائة متر أو مائتين امام أحد المسؤولين في تحركاته . كانت تلك المرأة لا تزال محجبة ولكن ابتداء من فترة معينة لم تلبث عجلات الصراع ان امتدت نحو المدينة الأروبية.

ولم تلبث أرضية ((القصبة)) الواقية و ستائر الأمن العضوية تقريبا ، التي كانت المدينة العربية تنسجها حول المواطن الأصلي ، أن تراجعت كلها واندفعت المرأة الجزائرية بلا غطاء دفاعي نحو مدينة الغازي المحتل. و بسرعة مذهلة تتخذ لنفسها سلوكا في الاعتداء لا يمكن تصوره . و اعتاد ابن البلاد المحتلة عندما يشرع في عمل ضد رجل الاستعمار الباغي ، و عندما يمضي- هذا البغي في صور العنف الحامي المستمر كما هو الأمر في الجزائر ، أن يقوم بالتغاضي عد عدد هام من المحظورات . فالمدينة الأروبية ليست سوى الامتداد الخاص بمدينة السكان الأصليين و لم يكن المستعمرون قد استقروا وسط الوطنيين و انما احاطوا بمدينتهم و نظموا الحصار حولها.

بحيث كان الخروج من القصبة في العاصمة ينتهي الى حيث يوجد العدو ، وكان الأمر بالمثل في كل من قسنطينة ووهران و البليدة و بون (عنابة) .

و كان هناك تناسق بين المدن المواطنين الأصليين في وضعها داخل كلابات العدو الغازي و لزم أن تتوفر الخطوط العمرانية الخاصة بالمدينة في المستعمرة مع وضع تقديرات السلطات العسكرية لقوات الاحتلال موضع الاعتبار . وبهذا يمكن

ان تتضح لنل الصرامة التي كانت تنظم بها عملية اخماد مدينة المواطنين الاصليين وتجمعات السكان من الأهالي.

ولم تكن الشابة الجزائرية على وجه الخصوص تخاطر الا قليلا في المدن الأوروبية اللهم الا تلك النساء العاملات في البيوت لدى الغازي المستعمر وهن اللائي يطلق عليهن رجل الاستعمار اسم ((الفاطمات)) و ظلت كل تحركات المرأة الجزائرية تقريبا خارج المدينة الأروبية .

و كانت تحركاتهن في المدينة العربية منحصرة في أضيق نطاق ممكن و في المرات النادرة التي كانت الجزائرية تغادر فيها المدينة فقد كان ذلك يتم بمناسبة حادثة ما استثنائية (كموت أحد الاقارب الذين يسكنون موقعا مجاورا) و اما غالبا لأداء زيارات تقليدية فيما بين الأقارب بعضهم البعض بمناسبة الأعياد الدينية.

واما بمناسبة الحج حيث كانت السيارات في هذه الحالة تجتاح المدينة الأروبية في الصباح المبكر غالبا وكان على الجزائرية الشابة فيما عدا بعض الطالبت النادرات (ممن لم يكن اطلاقا بنفس التحر السلوكي الميسور عند قريناتهن من الأروبيات) كان عليها ان تجتاز المدينة الأروبية وان تتخطى عددا مضاعفا من الممنوعات الداخلية ومن المخاوف المنظمة ذاتيا ومن الانفعالات .

وكان عليها في واحد ، أن تواجه عالما عدائيا على وجه الخصوص ، و هو عالم المعتدي المحتل و قوات الشرطة المعبأة المتيقظة الفعالة وكان على الجزائرية في كل مرة تدخل فيها الى المدينة الأروبية ، ان تنتصر على نفسها و على مخاوفها الطفولية

و كان عليها أن تستعيد تشكيلها بل وان تمهد للعمل الرئيسي- في تنحية هذه الصورة وابطال قيمتها و انتزاع وقاحتها و ازالة كل ما علق منها في أوهام الناس .

و الواقع ان كل الملصقات بالعدو والاستعمار التي بدأت أول الأمر بصفة ذاتية بحتة هي نتيجة لانتصار المواطن المحتل على فزعه القديم و تخوفه و يأسه المستقطر يوما بعد يوم عن طريق الاستعمار الذي استقر في ((منظور من الأبدية)).

و في كل مرة يتحقق فيها استدعاء الشابة الجزائرية كانت تنشئ اتصالا جديدا . فالجزائر العاصمة لم تكن المدينة العربية و انما كانت منطقة مستقلة بداخلها كأنها الجهاز العصبي لكل استعداد .

و كانت وهران و قسنطينة تنميان ابعادهما فلا يلبث الجزائري وهو يخوص الصراع ، أن يحل خناق الكلابة التي تعتصر- مدن السكان الأصليين . واستطاعت الثورة من نقطة لأخرى في الجزائر العاصمة بين حي رويسو (العناصر) وحي حسين داي و فيما بين حي الأبيار و شارع ميشلي (شارع ديدوش مراد) استطاعت الثورة في كل هذه الأماكن أن تخلق اتصالات جديدة و وكان على المرأة الجزائرية الشابة أن تقوم بهذه المهام ، بنسبة تتزايد من يوم لآخر .

و كانت تحمل الرسائل والأوامر الشفاهية المعقدة و كانت تضطر أحيانا الى حفظها عن ظهر أحيانا الى حفظها عن ظهر قلب مهما تكن درجة تعليمها البسيطة الى حد الانعدام ، و بهذه الصورة كانت بعض المهمات من ذلك النوع توكل الى المرأة الجزائرية .

و لكن كان عليها أيضا أن تقوم بالمراقبة ساعة كاملة و أكثر من ساعة أحيانا أمام منزل يقع فيه لقاء بين مسؤولين .

و خلال هذه الدقائق التي لا تنتهي حيث كان عليها ان تتحاشى البقاء في مكان واحد خشية لفت النظر ، و تحاشي الابتعاد كثيرا يحكم حمل مسؤولية أمن الأخوة الموجودين بالداخل ، كانت تجري أثناء هذه اللحظات اللانهائية بعض المشاهدة التراجيدية و المضحكة معا . هذه الشابة الجزائرية التي تتعادى على الأرصفة بلا حجاب سرعان ما كانت تلفت نظر الشباب بذهابها و مجيئها على نحو ما يحدث بين الشباب في العالم كله و لكن باستثناء واحد و هو يترتب على فكرة تنشأ عادة عند رؤية المرأة الجزائرية السافرة و هي أفكار غالبا ماتكون قبيحة وقحة مزرية .

وكان ينبغي عند حدوث مثل هذه الأمور ، اقفال الفم والتحرك بضعة امتار للتخلص من المارة الذين يلفتون النظر نحو الشخص و ممن يدفعون المارة الأخرين اما الى تقليدهم أو الدفاع عن الشخصية المطاردة .

وكانت المرأة الجزائرية تتحرك أحيانا و هي تحمل مبلغا يعادل عشرين أو ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات التي تخص الثورة في حقيبة يدها أو في شنطة صغيرة حتى توصلها الى أصحابها من ذوي الحاجات كأسر المسجونين أو لشراء أدوية طبية أو مأكولات للمقاتلين في الميدان .

و قامت المرأة الجزائرية بهذا الجانب من الثورة في ثبات و سيطرة على نفسها ونجاح لا يصدق ، و على الرغم من الصعوبات الداخلية و الذاتية ، و على الرغم من عدم التفاهم العنيف أحيانا من قبل الاسرة ، أخذت المرأة الجزائرية على عاتقها كل تلك المهام .

غير أن الأمور لا تلبث أن تتعقد شيئا فشيئا . فالمسؤولون الذين يتحركون ويحتمون بالسيدات المرشدات و الشابات الموصلات لم يكونوا كمجرد رجال جدد من السياسين الذين كانوا لا يزالون مجهولين لدى قوات البوليس بل على العكس بدأ في المدن انتقال القواد العسكريين المسؤولين الأصليين . وكان أولئك من المعروفين الذين يبحث عنهم الاستعمار في كل مكان . ولم يكن هناك رئيس قسم من أقسام البوليس لا يملك صورهم على مكتبه .

و كان هؤلاء العسكريون المتنقلون و المجاهدين يحملون أسلحتهم في صورة مدافع رشاشة و مسدسات و قنابل وفي بعض الاحيان كان كل ذلك دفعة واحدة . و لولا العديد من الشكوك ما كان المسؤول السياسي يذهب الى حد الاذن لهؤلاء الرجال ممن كانوا لا يقبلون أن يتحولوا السجناء ، بأن يسلموا كل أسلحتهم الى الشابات المكلفات بتقديمهم الى موضع اللقاء بشرط استعادتها مباشرة عندما يتعقد الموقف . وعلى بعد مائة متر كانت تقف شابة تحمل حقيبة بيدها ووراءها رجلان أو ثلاثة من ذوي المظهر البريء .

وكانت بمثابة المصباح المضيء أو المقياس للمجموع و كأنها ايقاع الخطر . فيحدث توقف ثم انطلاق ثم توقف ثم انطلاق وسط سيارات الشرطة التي تتوالى في الاتجاهين فضلا عن الدوريات و غيرها و غيرها .

و كان العسكريون يعترفون من وقت لآخر عند نهاية المهمة بأن الرغبة كانت تجتاحهم من أجل استعادة الأسلحة من شدة الخوف من الوقوع في كمين دون توفر الوقت الكافي للدفاع . و بهذه المرحلة تكون المرأة الجزائرية قد ذهبت الى أبعد مدى في لحمة الثورة و سداها.

و لكن نشاطها لم يلبث ابتداء من سنة 1956 أن بدأ يتجاوز أبعادا ضربة بضربة على كل مجزرة يقيمها العدو للمدنيين الجزائريين في الجبال و المدن . فتطورت بعد ذلك ، بحكم رغبتها في تحاشي وصول الارهاب الى قلب الشعب ، في اتخاذ صور من الصراع كانت حتى ذلك الوقت مستعبدة . ولم يقم أحد بتحليل هذه الظاهرة بما يكفي كما لم يلح أحد في تأكيد الاسباب التي أدت بالحركة الثورية الى اتخاذ سلاح الارهاب بصورة مستوفاة .

لقد هم الإرهاب إثناء المقاومة الفرنسية بتتبع العسكريين من الالمان القائمين بالاحتلال . أو بالتسلط على المواقع الاستراجية للعدو ، و تعمد الإرهاب في كل مكان استخدام نفس التقنيات اما بالهجمات على الأفراد و و الاعتداء على حياتهم أو بالهجمات الجماعية بواسطة القنابل و الانحراف بالقطارات عن قضبانها.

وفي الموقف الاستعماري و خاصة في الجزائر ، حيث كان التجمع السكاني الأروبي ذا أهمية كبيرة و حيث كانت الجيوش الوطنية قد احتلت مواقعها و حيث اشترك الممرض و البقال في النسق العقابي .. في هذا كله و أمام هذا وجد مسؤول الصراع نفسه يواجه موقفا جديدا بالمرة.

فلم يكن ثمة شخص يأخذ القرار بسهولة لقتل أحد المواطنين في الطريق ، ولم يكن هناك شخص يوقف بلا مأساة من جانب الضمير وضع قنبلة في مكام عام .

و كان المسؤولون الجزائريون يفترضون مع كل ما كانت عليه كثافة الارهاب العقابي و الطابع الالزامي للاضطهاد ، امكان الاستجابة بلا مشاكل ضميرية خطيرة للضربات كما كانوا يكتشفون ان الجرائم البشعة لا يمكن أن تكون عذرا كافيا لبعض القرارات .

وكان المسؤولون أحيانا كثيرة يرجعون عن مشروعاتهم و كان الامر يبلغ بهم أحيانا الى استدعاء((الفدائي)) المكلف بوضع القنبلة في اخر لحظة . وكان يوجد بالتأكيد بعض الذكريات عن مدنيين قتلوا او جرحوا جراحا بالغة وراء هذه الترددات . وكانت ثمة مخاوف من جانب الشرطة في عدم القيام ببعض الافعال التي تؤدي الى تغيير طبيعة قضية الحرية .

وكان هناك ايضا عامل الخوف على الأروبيين الذين عملوا مع الجبهة حتى لا تقع لهم بعض الأحداث و حتى تصيبهم الاعتداءات . وبالتالي فقد كان هناك قلق ثلاثي من اجل عدم الخلط في الايقاع بالضحايا الابرياء في بعض الاحيان ،

وهـو نفـس القلـق مـن أجـل عـدم اعطـاء صـورة فاسـدة عـن الثـورة ، ومـن أجـل التمسـك بتأييـد كل أنصـار الديمقراطيـة الفرنسـيين في كل بـلاد العـالم و بخاصـة لدى الأروبيين الجزائريين الذين اجتذبهم المثل الأعلى القومي الجزائري .

بيـد أن مجـازر الجزائـريين و عنـاصر المجـرمين المنشـورين في الحمـلات كانـت تقـوى ضـمانات المـدنيين الأروبيـين و تهـيء الوضـع الاسـتعماري و تؤيـده و تزيـد مـن الأمل في العالم الاستعماري .

وكان الأروبيـون يسـتعيدون عـلى أثـر بعـض الأحـداث العسـكرية الـتي كان يقـوم بهـا الجـيش الـوطني الجزائـري لصـالح الكفـاح الشـعب الجزائـري مـوقفهم القـديم المتمثـل في صممهـم ازاء عنصريـتهم ووقـاحتهم وفي كـبريائهم القـديم و احتقـارهم للآخرين .

واني لأذكـر ذلك البيروقراطـي الموظـف في ((بيرتوتـه)) الذي كان يلـوّح يـوم أسر الطـائرة الـتي كانـت تحمـل أعضـاء جبهـة التحريـر الـوطني الخمسـة ، مـن موقـع عمـله بصـور هِـؤلاء الأعضـاء صـارخا : ((لقـد أوقعنـاهم، و سـوف تقطـع مـنهم الأشـياء الـتي أتوقعها)).

وكانـت كل ضربـة توجـه نحـو الثـورة و كل مجـزرة ينفـذها الخصـم تقـوى مـن شراسة الإستعماريين و تحزن كل أجزاء الوطن الجزائري.

و كان كل شيء يضـيف الى شـعيب ذلك الإنطبـاع بأنـه قـد سـلب العنايـة ، تـلك القطـارات الـتي تحمـل العسـكريين الفرنسـيين و البحريـة الفرنسـية في خلـيج

الجزائـر العاصمـة و فليبفيـل (سـكيكدة) وهي تقـوم بمناوراتهـا و تقـذف بقنابلهـا . والطـائرات النفاثـة و جنـود الذيـن يفـاجئون الدواويـر و المنـازل و الذيـن يقتلـون الرّجـال الجزائـريين بـلا عـد و بـلا حصرـ ، كان كل هـذا يجـري حـول الشـعب الجزائـري ويشـعره بأنـه بـلا حمايـة وان الأمـور لم تتغـير و أن الأروبيـون مزالـوا يرتعـون في الأرض و يفعلون كل ما يريدون .

وكانـت تـلك هي الفـترة الـتي كان يسـمع فيهـا الأروبيـون في الطرقـات وهم يعلنـون : ((لـو أخـذ كل منـا عشرـة منهم و فتـك بهـم لحلـت المشـكلة الجزائـر بسرـعة فائقـة)). وكان الشـعب الجزائـري وخاصـة ذلك الشـعب الذي يعـيش في المـدن ، يشـهد تـلك الوقاحـة الـتي تفضـح امـله و يشـهد كـذلك ان هـؤلاء المجرمـون الذيـن لا يخـافون اجـرامهم، لا يلقـون العقـاب الازم . و يمكننـا ان نسـأل كل جزائـري و كل جزائريـة في المدينة فيعينون لنا بالاسم كل سفاح قاتل في المنطقة .

و كان الشـك يـداخل نفـوس بعـض أبنـاء الشـعب ابتـداء مـن لحظـة معينـة فيتسـاءلون مـا اذا كان في الأمـاكن حقيقـة مقاومـة اعتـداءات الغـازي المحتـل كميـا وكيفيـا .

وهـل تسـتحق الحريـة إقحامهـا في هـذه الدائـرة الضـخمة مـن الارهـاب و الـردع ؟ ألا يعبر هذا الاختلال في التوازن عن استحالة الإفلات من الاضطهاد ؟

وعـلى الـرغم مـن ذلك كان هنـاك جـزء كبـير آخـر مـن الشّـعب يتحـرق شـوقا ويتطلـع الى ايقـاف كل المـزايا الـتي يسـتفيد منهـا العـدو عـن طريـق الارهـاب ، ولـو

يكن هناك بديل عن القرار بضرب الخصم فردا فردا و اسما و اسم . وكانت أوضاع كل السجناء الذين زعم العدو عنهم أنهم ((قتلوا و هم يحاولون الهروب)) فضلا عن صرخات المعذبين كان ذلك يفرضلا اتخاذ صورة جديدة من صور الكفاح .

و بدأ التصويب نحو رجال البوليس و مواقع تجمع الاستعماريين (في مقاهي العاصمة ووهران وقسنطينة) أول الأمر . منذ ذلك الوقت أصبحت الجزائرية مشتبكة اشتباكا شاملا و بعناد و اصرار في العمل الثوري .

و كان على المرأة الجزائرية ان تحمل القنابل و المسدسات في حقيبتها حتى يتسلمها منها أحد الفدائيين في اللحظة الأخيرة أمام إحدى الحانات أو عند أحد الممرات الخاصة بالمجرم المقصود . وفي خلال تلك الفترة كان الجزائريون الذين يفاجئهم العدو في المدن الأروبية يتعرضون بلا رحمة و لا هوادة للاستجواب و القبض والتفتيش .

لهذا كان ينبغي متابعة الطريق الموازي لطريق ذلك الرجل و تلك المرأة ، أي هذا الزوج الذي يحمل الموت إلى العدو و يبعث الحياة في الثورة . و كان كل منهما يساند الآخر و ان كان كل منهما غريبا بالنسبة للآخر . فكانت المرأة تتحول تحولا جذريا الى امرأة اروبية مليئة بالانطلاق و التحرر ، بما لا يسمح بالشك في شخصيتها و يغرقها إغراقا في الوسط الذي توجد فيه في حين ان الآخر غريب متوتر ، يمضي في اتجاه مصيره . و لم يكن في الفدائي ، الجزائري يغفل أو يتعاطى ما يغفل عينيه لحظة على عكس الفوضويين الذين اختل توازنهم و اشتهرت أسماؤهم عن

طريـق الأدب والفكـر .. و لم الفـدائي بحاجـة الى تجاهـل الخطـر او إلى بعـث الغمـوض في وعيه أو الى النسيات .

" فالإرهـابي" المقاتـل يـدع المـوت ينفـذ الى روحـه منـذ اللحظـة الـتي يقبـل فيها المهمة فهو على موعد مع الموت غلى الرغم من ذلك ، و لكنه ، أي الفدائي على موعد مع حياة الثورة و امتداد حياته هو ، فالفدائي ليس رجل مضحى به، إنه لا يتراجع بالتأكيد أمام فرصة فقد فقد حياته من أجل استقلال الوطن . ولكنه لايقبل على اختيار الموت في أي لحظة . فإذا كان القرار فقد تأكد بقتل محافظ الدي يقوم بالتعـذيب او بقتـل ذلك الرجـل الرئـاسي في مجموعـة الاسـتعماريين . فمعـنى ذلك أن هؤلاء الرّجال يقفون حجر عثرة في طريق تقدم الثورة .

وكان ((فروجيـه)) مـثلا يشـكل تقاليـد اسـتعمارية و منهجـا افتـتح في البدايـة بمدينـة سـطيف و قالمـة سـنة 1945 . و ((فروجيـه)) هـذا هـو أحـد قـادة المجموعـة الإسـتعمارية و قـد قلتـه أحـد الفـدائيين في نهايـة سـنة 1956. و كانـت قـوة ((فروجيـه)) المزعومـة تبلـور الاسـتعمار و الاسـتغلال و تعطـي الآمـال الى أولئـك الذين بدأوا يشكون في المتانة الحقيقية للنسق .

و كان الفـدائي يعـلم ذلك كـما تعلمـه المـرأة الـتي رافقتـه في مهمتـه أيضـا أي تـلك المرأة حاملة الذخيرة

و تتطـور المـرأة الجزائريـة السـافرة حـتى تصـبح حـاملة مسدسـات و قنابـل ومئـات مـن البطاقـات الشخصـية المـزورة أو مـن المتفجـرات كأنمـا تحولـت الى سمـك

يعيش في مياه الغرب . وكان العسكريون و رجال الدوريات الفرنسيون يبتسمون لهن ويوجهون اليهن التهنئات بما بلغته اجسامهن من الاكتمال و الجمال هنا و هناك ، و ان لم يكن يوجد اطلاقا من يشك في ان هذه الحقائب تحمل المدافع الرشاشة التي سوف تحصد عما قليل أربعة أو خمسة من اعضاء تلك الدورية.

و علينا أن نعود قليلا الى هذه الشابة التي لم تخلع الحجاب الا بالأمس فقط لتتقدم نحو المدينة الأوروبية الحافلة برجال البوليس و برجال المظلات و بالجنود المقاتلين . ولم تكن تمضي- متوارية في الجدران كما كانت قد اعتادت أن تفعل قبل الثورة . و لما كانت الجزائرية تدعى دوما لتبتعد من طريق أحد اعضاء المجتمع الاستعماري الحاكم ، فقد تحاشت المشي- في منتصف الرصيف الذي من حق أي انسان أن يمضي فيه اذا شاء في كل بلاد العالم .

وكانت أكتاف الجزائرية حرة في حركاتها ، كما كانت مشيتها مرنة متزنة ، لا هي بالسريعة و لا هي بالبطيئة . وكانت ساقاها عاريتين لا يغلفهما الحجاب في انطلاقها في حرية مع ارتفاع الأرداف في رشاقة .

و كان بدن الشابة الجزائرية في المجتمع التقليدي محكوما ببلوغ سن الزواج وبالحجاب . والحجاب يغطي البدن و يخضعه للنظام و يعالجه و يدفعه الى التوازن في اللحظة نفسها التي يكتشف فيها مرحلته في الفوران الكبير. فالواقع أن الحجاب يحمي مع إعطائه للثقة بالنفس و الإحساس بالعزلة . و لابد من سماع اعترافات الجزائريات أو تحليل مواد الأحلام الخاصة ببعض من تخلين عن الحجاب حديثا ، حتى نتبين أهمية الحجاب بالنسبة الى جسم المرأة الحي . وعندما يظهر عند المرأة

الانطباع ببدنها وقد انقسم الى أبعاد و تقاذف يمنة ويسرة، تبدو أعضائها كأنها تتمدد إلى ما لا نهاية.

وعندما كان على الجزائرية أن تعبر الطريق، كان هناك دائما تقدير مختل أثناء فترة طويلة لمدى المسافة التي ينبغي ان تقطعها ، وعندئذ يبدو البدن غير محجب كما لو كان قد افلت و تطاير قطعا قطعا . وهنا يحضرها الانطباع أنها ليست في زي لائق أي أنها قد صارت عارية . و ذلك إحساس بالقصور والنقص تستشعره بحدة شديدة . فيظل بخاطرها كنوع من الإحساس بنقص لشيء لا يبلغ الاكتمال و ذلك هو الاحساس المخيف بعدم الاندماج ... و على ذلك فقد أدى اختفاء الحجاب عند الجزائرية الى بعث الاضطراب في تخطيطها البنيوي لبدنها .

و كان عليها أن تخترع بسرعة ابعادا جديدة لبدنها . ووسائل جديدة لتحكمها العضلي . و كان عليها كذلك أن تخلق لنفسها طريقة خاصة بها في السير كامرأة – بلا حجاب – في الخارج. و لابد من تحطيم ادنى خجل و أنى خوف (لأن المفروض أن تلقى الاوروبية) مع تحاشي ان تكون ندا في المزايدة يالنسبة لخيرها و أن تبالغ في الزينة مما يجتذب الانتباه . فالجزائرية التي تنزل الى المدينة الأروبية ((عارية)) تماما ، تتعلم من جديد صلتها ببدنها و تعيد وضعه من جديد بطريقة وضعية شاملة . وهذا الجدل الجديد فيما بين الجسد و العالم الخارجي رئيسي في حالة المرأة .

و لكن الجزائرية ليست في صراع، مع بدنها وحسب ، فهي بالإضافة إلى ذلك رمز جوهري في بعض الأحيان للتعبير عن الجهاز الثوري فهي الأسلحة وتعرف مواقع الاحناء و الوقاية العامة . و ينبغي ان تفهم الانتصارات التي لا احد

لها مما كان عليها ان تحققه على ضوء الأخطار التي واجهتها حتى تبلغ طريق العودة و تبلغ المسؤول عند عودتها إليه :" انتهت المهمة .. ولم يحدث شيء غير عادي " .

وهناك مشكلة أخرى تستحق أن نشير اليها. وكانت قد ظهرت منذ الشهور الأولى التي بدأت فيها المرأة نشاطها الأنثوي و تتلخص هذه الصعوبة في أن المرأة الجزائرية كانت تتعرض لأن يشاهدها احد أقربائها أو صديق من أصدقاء الأسرة أثناء مرورها سافرة في احدى تحركاتها فكان الأب يخطر بالواقعة بسرعة ويتردد هذا الأخير بطبيعة الحال في تصديق هذه المزاعم ولكن تتضاعف التقارير ويؤكد أشخاص مختلفون أنهم شاهدوا ((زهرة أو فاطمة سافرة و هي تمضي- في الطريق كال... يا الهي ارحمنا)) . ويقرر الوالد عندئذ إلزام البنت بإعطاء تفسيراتها للواقع .وبمجرد نطقها بأقوالها الأولى ، يتريث ويتوقف و يفهم الأب من نظرة فتاته الحازمة التزامها بالنشاط الوطني . و تقدم الخوف الجديد الطازج المنتعش لكنس ذلك العار القديم ..

فالخوف الآن هو خوف الموت في الكفاح أو خوف عذابها كفتاة . فالأسرة كلها بطبيعة الحال من وراء البنت و الأب الجزائري الذي ينظم كل شيء و المؤسس لكل قيمة ، يمضون جميعا في أثر البنت و يتسللون ليلتزموا بالصراع من أجل الجزائر الجديدة .

و كان رفع الحجاب ثم وضعه من جديد أداتي بحث و إذا به يتحول الى تقنية خاصة بالايهام العسكري كوسيلة للصراع ، و يختفي ذلك الطابع شبه التحريمي الذي أخذه الحجاب أثناء عهد الاستعمار اختفاء تاما تقريبا خلال صراع التحرير .

و حتى الجزائريات غير المشتركات اشتراكا فعليا في الحرب تسربت إليهن عادة السفور . وحقيقي ان ظروفا دفعت الى ظهور الحجاب من جديد في 1957 ، ذلك أن بعض المهام قد تعذرت في الواقع ، لأن العدو يعرف الآن خاصة و ان بعض المناضلات قد أبحن بالسر أثناء التعذيب و هن في الغالب من النساء المشتبهات بالأروبيات من حيث المظهر و يلعبن دورا أساسيا في المعركة بل قد وقع القبض على بعض الأروبيات في الجزائر . و يعود العدو و هو يلمح أوجه دفاعه تنهار فيقع في الاضطراب الكامل . ويعد اكتشاف السلطات الفرنسية لاشتراك الأروبيين أنفسهم في صراع التحرير ، تاريخيا من تواريخ الثورة الجزائرية البارزة .

فابتداء من ذلك التاريخ صارت الدوريات الفرنسية تستجوب أي شخص وصار الأروبيون كالجزائريين موضع شك و ارتياب وتهدمت الحواجز التاريخية واختفت و أصبح كل من يمسك حزمة ملفوفة معرضا لدعوته الى فكها والكشف عما فيها . وكل إنسان يملك الحق في أن يسأل أي إنسان آخر حسابا عن طبيعة الطرود المرسلة الى الجزائر العاصمة أو فليبفيل (سكيكدة) أو باتنة .

وفي هذه الأحوال يصبح من الضروري فك الحزمة على مرأى من الغازي المحتل وأن يعود من جديد إلى وضع الحجاب الواقي . وهنا أيضا ينبغي تعلم تقنيات جديدة مرة أخرى ، ويقول المسؤول أن حمل جسم ثقيل تحت الحجاب وهو خطير التداول واللمس مع اعطاء الانطباع بأن الأيدي فارغة وانه لا يوجد شيء تحت الحجاب اللهم إلا أنها امرأة مسكينة أو شابة لا أهمية لها .. فهذا يعني أن

الأمـر لا يتعلـق بالحجـاب و لابـد مـن الظهـور كإحـدى ((الفـاطمات)) حـتى يطمـئن الجندي الى ان هذه لايمكن أن تكون قادرة على اتيان أي شيء .

هـذا أمـر صـعب ، ورجـال الشرـطة عنـدما يسـتوقفون امـرأة محجبـة عـلى بعـد ثلاثـة أمتـار منـك ليسـتجوبوها ، لا يظهـر فيهـا مـا يـدعو للشـك عـلى الخصوص . أمـا فيما يتعلق بالقنبلة فقد ظن المسؤول أن الأمر متعلق كما يبدو من الانفعـالي ، أمـا بهـذا أو بحقيقـة للقنابـل وهي مربوطـة في الجسـم مجموعـة مـن الأربطـة والخيـوط . ذلك أن الأيـدي يجـب أن تبقـى حـرة عاريـة متعريـة حـاضرة لتقـوم بحركـة مسرحية تنم عن الخنوع والبلاهة العسكريين حتى لايتقدموا غالى أكثر من ذلك .

و إظهـار اليـدين فـارغتين و سـاكنتين و حـرتين شـكلا هـو بمثابـة العلامـة الـتي تجعل الجندي عدوا أعزل.

و الآن يعـود جسـد المـرأة الجزائريـة الذي بقـي تحـت رحمـة التفتـيش أول الأمـر فينـتفخ و في المراحـل الأولى كان ينبغـي تحريـك البـدن برشـاقة و تنظيمـه أمـا في اتجاه المهابة أو الاغراء . أما هنا فلا بد من الغاء البدن الغاء و احالته بلا شكل بل والذهـاب الى أبعـد مـن ذلك في جعـله لا شيء بالمـرة . و رأينـا أن هـذه هي المـرحلة القذائف و القنابل و المدافع الرشاشة.

بيـد أن العـدو قـد أحـيط بالأمـر ، وفي الشـوارع أصـبح المشـهد التقليـدي للنسـاء الجزائـريات المسـندات الى الحـائط و يمـرر بأبـدانهن دائمـا أبـدا تـلك الجساسـات المغناطيسـية المشـهورة ، و هي أشـبه شيء ب ((أواني القـلي)) و صـارت كل امـرأة

محجبة بل كل جزائرية مشكوكا في أمرها ... لا تميز ... تلك فترة يتعرض فيها الرجال والنساء و الأولاد و كل الشعب الجزائري لتجربة جديدة في آن واحد وهي تجربة وحدته وايمانه القوي بالانصهار الجديد للمجتمع الجزائري .

و يبدأ الاستعمار الفرنسي- متجاهلا أو مظهرا جهله بألوان السلوك المتجدد فيعيد القيام بحملته التقليدية بمناسبة 13 مايو من أجل سفور المرأة الجزائرية وإخضاعها لحضارة الغرب . و بدأ التهديد بطرد العاملات و الخدمات كما بدأ طرد النساء المسكينات من بيوتهن و مطاردة الغانيات و يؤتي بهن جميعا الى ساحة العمومية ويعرين من حجابهن ((رمزيا)) و هن يصرخن: ((تحيا الجزائر الفرنسية)) وأمام هذا الاعتداء الجديد تظهر ردود الفعل القديمة ، و تلقائيا وبدون أمر عام ، تعود المرأة الجزائرية السافرة منذ وقت طويل فتضع الحجاب من جديد مؤكدة بذلك أن تحرر المرأة غير صحيح إذا كان بإملاء فرنسا و الجنرال ديجول .

وينبغي النظر من وراء هذه الأفعال المنعكسة النفسية او ردود الأفعال الممثلة في هذه الاستجابة المباشرة بلا أدنى خلاف تقريبا الى ذلك الاتجاه الشامل لرفض القيم التي يفرضها الجندي الاستعماري حتى ولو كانت هذه القيم موضع اختيار فعلي . ولعدم ادراك هذه الحقيقة الذهنية وهذا الاستعداد في الطباع (وهي الحساسية المعروفة عند الخاضعين للاستعمار) يظل الاستعماريون غضبى دائما لظنهم بأنهم (يقدمون لهم الخدمات على الرغم منهم) وهم يرفضونها. فالاستعمار يود لو أتى كل شيء من جانبه ، بيد أن الحالة النفسية المسيطرة للخاضع للاستعمار هي عادة أن

ينطوي على نفسه أمام أية اشارة من الغازي المحتل . وبهذا يعد تنظيم الاستعمار للموكب المشهور في 13 مايو خطوة نحو الزام المجتمع الجزائري باستعادة مناهج قديمة فات أوانها في الصراع.

فبمعنى من المعاني تثير الاحتفالات المختلفة الرغبة في العودة الى الخلف أي تراجع و النكوص .

ويصبح على الاستعمار ان يتقبل أشياء تجري بدون رقابته أو ارادته . ونحن نذكر العبارة التي نطق بها أحد الرجال السياسيين الافريقيين في الجمعية الدولية اذ يجيب هذا الأخير على الاعتذار التقليدي بعدم نضج الشعوب المستعمرة و بعدم قدرتها على إدارة أمورها كما ينبغي ، بقوله ان الشعوب النامية تحتفظ لنفسها بالحق في المطالبة ((بحق أن تحكم نفسها حكما سيئا)). و لا ينتج عن كل التأهبات المذهبية للاستعمار في محاولته تبرير احتفاظه بسيطرته في معظم الأحوال أن المواطن الخاضع للاستعمار يجد نفسه واقعا في نطاق من المعارضات القاطعة الصلبة الجامدة .

وعاد الحجاب عقب 13 مايو و لكن بعد أن أفرغ نهائيا من بعده التقليدي الوحيد . فثمة جانب ديناميكي تاريخي للحجاب تسهل ملاحظته عينيا من خلال سيرة الاستعمار في الجزائر . في البداية الحجاب آلية من آليات المقاومة وتبقى قيمته بالنسبة للمجموع الاجتماعي كبيرة جدا . فالحجاب إما تقليد و إما تمييز صارم للجنسين أو هو كذلك معارضة للمحتل الاستعماري عندما ((يريد سفور الجزائر))

. وفي المرحلة الثانية يتدخل التغيير بمناسبة الثورة وفي ظروف معينة بالذات . ويترك الحجاب جانبا أثناء العمل الثوري .

فما كان حرصا من جانب المحتل المستعمر على اسقاط كل الاعتداءات النفسية أو السياسية، تحول الى أداة ووسيلة ، فالحجاب يعين الجزائرية على الاستجابة للمسائل الجديدة التي فرضها الصراع.

و انتقلت مبادرة ردود الفعل الماضية بالمواطن المستعمر ، من أيدي الاستعماريين و تلك مستلزمات الكفاح التي تثير في المجتمع الجزائري أوضاعا جديدة أو اتجاهات جديدة في الظهور. و ألوانا مستحدثة من السلوك.

الفصل الثاني

هنا صوت الجزائر

لعلنا ندرس في هذا الفصل الأوضاع المستحدثة التي تبناها الشعب الجزائري أثناء صراع التحرير أزاء الأدوات التقنية المحددة ، وأعني بها : جهاز الراديو.وسنرى من ثم أن الموقف الاستعماري في مجموعه قد صار موضوع التساؤل من وراء هذه الأنواع الجديدة من السلوك .

وسوف نجد الفرصة خلال هذا الكتاب بطوله لاظهار أن المعارضة من حيث المبدأ للسيطرة الأجنبية تؤدي في حد ذاتها إلى تغيرات جوهرية وتحولات جديدة في وعي المواطن الخاضع للاستعمار كما تؤدي الى نفس الشيء في ادراكه الخاص للمستعمر الاجنبي في وضعه كرجل في هذا العالم .

وراديو الجزائر العاصمة عبارة عن محطة ارسال فرنسية موجودة في العاصمة منذ عشرات السنين ليكون صدى لمحطات الاذاعة الفرنسية المؤسسة في باريس ، وليعبر قبل كل شيء عن مجتمع الاستعماري و قيمه ويملك معظم الأروبيين في الجزائر في مجموعهم جهازا لراديو و اعتدنا ان نرى قبل سنة 1945 أجهزة راديو بنسبة تعادل 95 ويعد من يملك مثل أجهزة من بين الجزائريين على وجه الخصوص كأحد المنتمين الى ((البورجوازية المتطورة)) كما قد يكونون من بين ((القبائل)) الذين هاجروا منذ زمن بعيد و عادوا إلى القرية بعد ذلك .

وتفسر لنا التنظيمات الطبقية الإقتصادية بين المجتمعات المسيطرة و خاضغة الى السيطرة الى حد كبير هذا الوضع الخاص بالأشياء ..... ولكن بطبيعة الحال تتلون هذه القائمة من الوقائع بطريقة خاصة كما هو الامر في كل موقف استعماري وعلى النحو كانت مئات الاسر الجزائرية التي يسمح مستوى حياتها بحيازة جهاز

لراديو تحرم نفسها من إقتنائه .وبرغم من ذلك لم يكن ثمة اي قرار عقلاني او نابع من ظروف نفسها لرفض هذا الجهاز ..

لاتوجد أي مقاومة منظمة ضد هذه الآداة التقنية ولا يوجد دليل واحد حتى بعد البحث و الفحص على أية خطوط حقيقية بوقوف العادي لتثقيف كما يأتي غالبا في وصف المدرج ضمن بعض الدراسات الخاصة المقصورة على المناطق المختلفة . ويمكننا أن نلاحظ على اي حال هذه الحجة تؤكد نتائج علماء الاجتماع ان الجزائريين وقد خضعوا لالحاح هذه المسائل المتعلقة بأسباب الكتمان ، يردون ردا مؤداه في الغالب كالاتي :

((تتخذ تقاليد التوقير و الاحترام عندنا أهمية و تدرجا بحيث يصبح مستحيلا عمليا الاصغاء في جلسة عائلية الى البرامج الإذاعية وذلك لأن الاشارات الى موضوعات الغشق و الغرام أو حتى مواقف الهزء التي يراد بها الاضحاك في برامج الاذاعة تثير في أعقابها وسط الأسرة عددا من التوترات غير المحتملة .))

و يكفي أن يكون هناك احتمال الضحك و هو احتمال قائم أمام رئيس الأسرة أو الأخ الأكبر و الاستماع المشترك الى أقوال العشق أو عبارات النزق حتى يحدث ابطاء بكل وضوح للتوسع في انتشار أجهزة الراديو في المجتمع الأصلي الجزائري . وينبغي فهم العادة المتبعة لدى الرسميين في الإذاعة الجزائرية عند اعلانهم للبرامج التي تتوخى السماع المشترك و البرامج الخاصة التي تتعرض خلالها الاشكال الاجتماعية التقليدية لكثير من الحرج .

وهـاك اذن حـالة معينـة في مقـام التوضـيح ، و هي أن أجهـزة الاسـتقبال تفـرض نفسـها بصـعوبة عـلى المجتمـع الجزائـري . فهـذا المجتمـع الجزائـري يـرفض هـذه التقنيـات في مجموعهـا لأنهـا تعـرض بكيانـه و بأنمـاط االحيـاة المعيشـية التقليديـة . وفضـلا عـن ذلك فالسـبب المزعـوم وهـو أن بـرامج الجزائـر الـتي لاتخضـع للتنـوع لصـبها في قوالـب غربيـة لا تتكيـف مـع التـدرج الـوراثي للسـلطة الأبويـة بصـورتها الصـارمة بـل و الاقطاعيـة وذات الموانع و المحرمات الأخلاقية المتعددة و المتفشية في الأسرة الجزائرية .

وأمكـن اقـتراح تقنيـات اعلاميـة للتخاطـب ابتـداء مـن هـذا التحليـل لخدمـة الأسرة كـكل شـامل مـع التصـويب نحـو مجموعـات الذكـور ومجموعـات الاناث ومـا الى ذلك...

وسـنرى عنـدما نصـف التقلبـات الـتي طـرأت عـلى هـذا المجـال بمناسـبة الحـرب القوميـة مـا ينطـوي عليـه مثـل هـذا التفسـير الاجتماعي مـن تصـنع زائـف ومـا يحتـوي عليه من الأخطاء الكبيرة .

وكنـا قـد أرشـفنا سـلفا الى السرـعة المتزايـدة الـتي تم بهـا اقتنـاء جهـاز الراديـو في المجتمعـات الأروبيـة و يجـري دخـول الراديـو الى المجتمـع الخاضـع للاسـتعمار بايقـاع يـذكرنا بالسرـعة الـتي نفـذ بهـا الى المنـاطق الغربيـة المتطـورة . وينبغي أن نتـذكر أنـه يوجـد في الموقـف الاسـتعماري حيـث يبلـغ الانقسـام الاجتماعي كـما شـهدناه مـن قبـل حـدّة لا مثيل لها ..

ويوجد في هذا الموقف الاجتماعي اندفاع نحو الوضع البورجوازي بلا توقف والطريقة الهزلية المألوفة دائما عند أبناء الوطن المستعمر ويعد امتلاك جهاز الراديو بالنسبة للاروبي بالتأكيد بمثابة افتتاح دائرة حاضرة على الدوام في متناول البرجوازية الصغيرة الغربية التي تشتري ((الفيلا)) عقب الراديو مارة فيما بينهما بالسيارة والثلاجة.

وامتلاك جهاز الراديو و الشعور أيضا بالحياة و بدبيبها في المجتمع الاستعماري بكل ما في المجتمع الاستعماري بكل ما في هذه الحياة من احتفالات وتقاليد لا تلبث أن تتأسس ، و بأشكال من التقدم ، أي فكل ما يهمها من عوامل مدّ جذورها في الأرض و ثباتها فيها غير أن هذا على الخصوص لا يتحقق الا وسط البلاد كموقع تجمع سكاني فقير و في المراكز الخاصة بالاستعماريين حيث يكون الراديو الوسيلة الوحيدة للارتباط بالمدن و بالجزائر العاصمة و بأرض الوطن الأصلي و بعالم المتمدنين .

فكأن الراديو إحدى الوسائل التي يهرب الإنسان بفصلها من الضغط في حالات القصور و السلبية الذي يتميز به المواطن الأصلي ووسطه المحيط به وكأن الراديو حسب التغبير التقليدي لمصّاصي المنافع من المستعمرين هو ((الطريقة الوحيدة التي يستشعر بها الانسان أنه مايزال إنسانا متمدنا.))

ويقوم الراديو في المزارع و الحقول للتذكير مصاصي المنافع المستعمرين حقيقة السلطة و الأمان و الاطمئنان التي يوفرها هذا الجهاز بمجرد وجوده و يؤسس راديو الجزائر العاصمة كل حقوق مصّاصي المنافع الاستعماريين و يقوي يقينهم في

الاستمرار التاريخي للغزو أي في استغلالهم الزراعي . و تؤلف موسيقى باريس ومقتطفات صحافة الوطن الأم والأزمات الوزارية الفرنسية قاعا أرضيا متناسقا تستمد منه المجتمعات الاستعمارية كل كثافتها و تبريرها و يأخذ راديو الجزائر العاصمة على عاتقه مهمة تأسيس ثقافة المستعمر الغازي و القضاء على الجهل وعلى طبيعة المواطن الأصلي .

ويقيم راديو الجزائر العاصمة وهو صوت فرنسا في الجزائر المركز الوحيد كمرجع في المستوى الإعلامي . وراديو الجزائر العاصمة هو دعوة يومية بالنسبة الى مصّاص المنافع حتى لاينضم الى قضية البلاد الاصلية و حتى لا ينسى- حقه المشروع في الثقافة . و يعرف أبناء المواقع الاسكانية الفقيرة من رجال الاستعمار و هم المغامرون المهتمون باصلاح الأرض . يعرفون هذه الحقيقة جيدا ولا يكفون عن تكرار قولهم أنه لولا النبيذ و الاذاعة لأصبحوا عربا منذ وقت طويل .

و كان الراديو في الجزائر قبل سنة 1945 قد تضاعف من حيث هو أداة للاعلام داخل المجتمع المسيطر . و بالتالي فقا رأينا هذا الراديو وقد تحول الى أداة مقاومة عند الأروبيين المعزولين و أداة ضغط عند الأروبيين في مجموع أيامهم المعيشية بمثابة رباط يربطهم بالعالم المتمدن و بمثابة وسيلة فعالة لمقاومة التأثير الفتاك من جانب المجتمع الأصلي الجامد القائم بلا منظور و بلا قيمة و في تخلف مستمر .

أما بالنسبة للجزائر فعلى العكس من ذلك يكاد يكون الموقف متغيرا تغيرا شاملا وقد شهدنا من قبل كيف كانت الأسرة ميسورة الحال تتردد في اقتناء الراديو. وعلى أي حال فلم يؤثر عنها أي تعبير واضح ينم عن المقاومة بصفة منتظمة

و منطقيـة و انمـا يـدفع الأسرة الجزائريـة الى ذلك في الغالـب عـدم اهـتمام حـزين لهـذا الجانـب مـن الوجـود الفرنسي- . والموقـف أكـثر وضـوحا في الأوسـاط الريفيـة و المنـاطق البعيدة عن مراكز الاستعمار .

وهنـاك جهـل بالمشـكلة أو عـلى وجـه التحديـد المشـكلة عنـد هـذا الحـد أبعـد مـاتكون عـن المشـاغل اليوميـة للمـواطن الأصـلي ، بمـا لا يسـمح بطريقـة واضحـة بوقـوع الفضـيحة الـتي تـدعو الجزائـري الى البـوح بالسـبب الذي يدفعـه الى عـدم امـتلاك جهـاز الراديو .

ولا يبلـغ الباحـث المحقـق الذي يفـرض و يطالـب بإجـابات مرضـية درجـة قشـع الغيـوم فـيما يتعلـق بجهـله بالمشـكلة ، والواقـع أنـه ينبغـي تلقـي كل التبريـرات المقترحـة بأقصـى مـايمكن مـن الحـذر ولا ينبغي في مسـتوى التجربـة المعاشـة توقـع الحصـول عـلى نوع من تعقيل الأوضاع و الأذواق و المشارب.

و يمكـن تنـاول تفسـيرين بالتحليـل هنـا فجهـاز الراديـو كأداة تقنيـة بالمعـنى الحـرفي ينمي القـدرات الحسـية و الذهنيـة ، والعضـلية للنـاس في مجتمـع معـين ، في حـين أن ((جهـاز راديـو في الجزائـر المحـتلة هـو التقنيـة الـتي يملكهـا الاسـتعمار في اطـار السـيطرة الاسـتعمارية بـدون أن يسـتجيب لأيـة حاجـة لدى المـواطن الأصـلي)). وقـد أصـاب جهـاز الراديـو كرمـز للوجـود الفرنسي- و كنسـق مـادي داخـل الهيئـة الاسـتعمارية ، قـدرا معـادلا مـن السـلبية المهمـة الى أقصى- درجـة . ولا يلبـث المـواطن الأصـلي أن يـرفض أو ينكـر ضمنيـا احـتمال المضـاعفة و امكانيـة التوسـع في القـدرات الحسـية أو ذهنيـة عـن طريق الراديو الفرنسي .

ولا يمكـن إطلاقـا ادراك الأداة التقنيـة و الحصـيلة العلميـة الجديـدة في حـد ذاتهـا وفي حيـاد تام عنـدما تنطـوي عـلى شحنـة كافيـة مـن أجـل زعزعـة مثـل هـذا الاسـتعداد المحكم لدى المجتمع الأصـلي . و تصـبح الإدارة التقنيـة ، موجـودة ضمنيـا في الموقـف الاسـتعماري حيـث توجـد المعـدلات السـلبية أو الايجابيـة كـما نعـرف دائمـا بطريقة قوية الدعائم .

و يمكـن النظـر الى جهـاز الراديـو وسـط الموقـف الاسـتعماري بطريقـة خاصـة وعـلى مسـتوى آخـر كنسـق للاعـلام و كمعـبرين لغـة و بالتـالي عـن رسـالة . و توجـد تقنيـات الراديـو والصحافة والأنسـاق الرمزيـة بكل رسـالاتها ووسـائل نقلها بطريقـة عامـة في المجتمـع الاسـتعماري وفقـا لكيـان مميز تمامـا . ولا يشـارك المجتمـع الجزائـري أي المجتمـع المغلوب على أمره اطلاقا في هذا العالم الخاص بالرموز .

ولا يتلقـى الرسـائل المرسـلة عـن طريـق راديـو الجزائـر الا بواسـطة أولئـك المنتمـين الى القـوة الغالبـة ممـن يتحاشـون في طريقـة تشـبه السـحر ، أعضـاء المجتمـع ((الأصـلي)) . ويقـوي عـدم امـتلاك الراديـو عنـد هـذا المجتمـع الأصـلي عـلى وجـه التحديـد ذلك الانطبـاع بالعـالم المقفـل الذي يـؤثره الاسـتعمار باعلامـه الاسـتعماري . ومـن الـواضح عـلى المسـتوى الخـاص بالـبرامج اليوميـة قبـل سـنة 1954 أن الثنـاء الذي يوجـه الى قـوات الاحـتلال لم يكـن موجـودا بصـفة عمليـة و كان يكتفـي هنـا وهنـاك بالتأكيـد بمـا يشـير اليـه الراديـو مـن التـواريخ المجيـدة لاحـتلال الجزائـر مـع ذكـر بعـض مشـاهد الفحـش و الخـزي خلالهـا بمـا يلامـس اللاشـعور حـتى تتهيـأ للعـدو والمحتل فرصة تحقير و اذلال المقاوم الجزائري سنة 1830.

و كانت توجد تلك المواكب التذكارية حيث يدعى المحاربون القدماء((المسلمون)) لوضع باقة من الزهور عند قاعدة تمثال الجنرال ((بيجو)) أو الرقيب ((بلاندان)) بحكم كونهما بطلين من أبطال الغزو و من أبطال القضاء على آلاف الوطنيين الجزائريين ، و لكن في المجموع لا يمكن التأكيد أن المضمون العنصري الواضح أو المضمون المعادي للجزائر يحسب حساب تلك اللامبلاة وتلك المقاومة عند المواطن الأصلي ، و يوجد تفسير ذلك أكثر في حقيقة أن الجزائري كان يرى راديو الجزائر بنفس الطريقة التي يرى بها عالم الاستعمار وهو يفصح عن نفسه.

و اعتاد الجزائري قبل الحرب أن يلمس روح السخرية التي دفعته الى تعريف راديو و الجزائر العاصمة بوصفه ، ((مجموعة من الفرنسيين تخاطب الفرنسيين)).

ولا تلبث الجزائر ابتداء من سنة 1945 أن تقفز بعنف صارخ على المسرح الدولي ... و اذا بنا نفاجأ أثناء بضعة أسابيع بعدد 45000 ألفا من القتلى في كل من سطيف و قالمة مما يملأ صفحات الجرائد و النشرات الإعلامية عن مناطق كانت حتى ذلك الوقت مجهولة .

و يصور الجزائريون أنفسهم تصويرا مبدئيا قبل أن تكون ثمة أية علامة تنبئ بالانقلابات الهامة وهم بصدد التغير ابتداء من الإخوة الذين استشهدوا أو أصابهم تشويه الحرب أو خلال التعاطف الزائد من قبل الرّجال و النساء في كل من أمريكا وأروبا وافريقيا . و تضع يقظة العالم الخاضع للاستعمار وكذا التحرر التدريجي

للشعوب المستعبدة منذ زمن طويل الجزائر في إطار عملية تتجاوزها وهي تؤسسها ، ويأخذ ظهور البلاد العربية المتحررة أهمية فريدة من نوعها وإذا بدخول أجهزة الراديو إلى الجزائر لأول مرّة على نحو ضخم يقترن بايجاد محطات الارسال القومية في سوريا ولبنان و مصر .

وتزايدت أجهزة الراديو ابتداء من سنة 1947_1948 زيادة معتدلة ولكن حتى في ذلك الوقت لم يكن الجزائري يهتم بالاستماع لاجهزة الراديو الأجنبية و العربية ، ولا يستقبل راديو محطة الجزائر العاصمة الا عندما تذيع الموسيقى ذات الطابع الجزائري أي الموسيقى القومية . ولم يلبث أصحاب المشروعات التجارية الأروبية أمام هذا التوسع في السوق الجزائرية أن يختاروا وكلاء مندوبياتهم من ممثلي العناصر القومية للسكان الأصليين . و اقتنعت الدور الأروبية عندئذ بأن بيع أجهزة الراديو يتوقف على جنسية التاجر .

ولكن بمناسبة ظهور بوادر المناوشات الحربية في تونس سنة 1951_1952 ، بدأ الشعب الجزائري يستشعر بالحاجة إلى زيادة شبكاته الإعلامية و بدأ المغرب سنة 1952_1953 يأخذ على عاتقه مهمة القائم بحرب التحرير ضد المستعمر ، ولا تلبث الجزائر في أول نوفمبر سنة 1954 أن تلحق بالجبهة المغربية المعادية للاستعمار . وفي تلك اللحظة تقع تغيرات جوهرية جدا في اطار محدد هو مسألة الحصول على أجهزة الراديو كأسلوب في اتخاذ أوضاع جديدة وجها لوجه أمام هذه التقنية الإعلامية بالذات.

فالواقع أن ردود فعل العدو المحتل هي التي تحيط الجزائري علما بأن شيئا خطيرا وهاما يجري داخل البلاد و يحصل الرجل الأروبي عن طريق شبكة من الصحافة والإذاعة والانتقالات على فكرة واضحة إلى حدّ ما عن الأخطار التي تهدد المجتمع الاستعماري ويرى الرجل الجزائري وجه المستعمرين الغزاة فيلتقط منها دلالات معينة بمدى التزايد في اضطراب الاستعمار ويستشعر الحاجة الملحة والحيوية الى أن يكون على إلمام بما يدور حوله ويقوى عنده الانطباع الغامض بأن أشياء هامة جوهرية تجري بحكم ذلك القرار الصامت لدى الشعب و يجسم الإرادة في الوجود كدولة وهو ما لم يعرف من قبل، وكذلك بحكم ما يراه على الخصوص من تلاشي حاله الطمأنينة لدى المصاص المستغل الأجنبي تلاشيا موضوعيا يصادف هوى ورضا في عينيه.

ويفرض صراع التحرير الذي بدأ يتكشف في مظهر الطبيعة المفاجئة للدى المصاص المستغل الأجنبي أو في ملامح الغضب غير المتوقع ولغير سبب ، على الجزائري ضرورة متابعة تطور الأحداث نحو المواجهة خطوة بخطوة ، ويبالغ الأروبيون في زيادة أخطائهم في هذه الفترة التي بدأ فيها التلامس بين حواف الصراع . وعلى هذا النحو يبدأ المنتفعون الأجانب في مزارعهم بتجميع العمال الزراعيين لكي يسوقوا اليهم أنباء تلك العصابة من الثوار غير المعروفة بالمنطقة وقد فقدت عشرات من رجالها بين منطقتي الأوراس و القبائل .

وفي بعض الأحيان كانت توزع على العاملين و الخدم زجاجات ((الليموناد)) أو قطع ((الجاتوه)) بمناسبة تنفيذ الإعدام في ثلاثة أو أربعة من المشكوك فيهم على بعد عدة كيلومترات من الإقطاعية .

ويجد الجزائري نفسه على هذا النحو منذ البداية الشهر الأول للثورة مسوقا لامتلاك وسائله الإعلامية الخاصة حتى يحمي نفسه و حتى يتقي ما يعتبره مناورات دعائية كاذبة من جانب الغازي المحتل و تصبح معرفة ما يدور ويجري ومعرفة الخسائر الحقيقية للعدو و بين رجال وطنه أساسية للغاية . ويشعر الجزائري في تلك الفترة بأنه محتاج الى رفع حياته الى مستوى الثورة وهو بحاجة إلى الدخول في شبكة واسعة للاعلام ، وبحاجة الى الاندماج في العالم الذي تجري فيه الأشياء و الذي توجد فيه الأحداث و تتفاعل فيه القوى . فبفضل الحرب التي أثارها دوره يتفتح الجزائري على عالم طائفي في صراع و على مجتمع عامل .

وعلى الجزائري أن يواجه إعلام العدو بإعلامه الخاص و يواجه الجزائري الحقيقة التي يعلنها الاستعماري الإرهابي و التي كان يرفضها من قبل كأكذوبة ، بحقيقة أخرى ومن شأن أكذوبة الاستعماري أن تأخذ صورة الحقيقية لأنه هو نفسه قد صار اليوم أكذوبة في خطر وفي مأزق الدفاع وكل هذه الأساليب الدفاعية لدى الاستعماري وكل ردود أفعاله وإجراءاته في المقومة تؤدي إلى إبراز فاعلية العمل القومي و تدفعه دفعا الى المشاركة في عالم الصدق والحقيقة ، ولم يعد رد فعل الجزائري مجرد رفض منقبض يائس فلأنه يعترف بوجوده في قلق تصبح أكذوبة العدو بالنسبة إليه جانبا إيجابا من الحقيقة الجديدة الخاصة بأمته .

وتشرع الجزائر في محاولاتها لتنظيم جهازها الإعلامي أثناء الشهور الأولى من الحرب جنبا الى جنب مع صحافة الكلمة المكتوبة . وكانت الصحافة الديمقراطية لا تزال قائمة في الجزائر فضلا عن الصحف ذات التقاليد العدائية للاستعمار أو ذات الإدارة الموضوعية مما اعتاد المواطن الجزائري قراءته بلهفة . واعتاد الجزائري أن يحصل على عناصر لإعادة التوازن في هذا القطاع من الإعلام . وتتبدى قوة رسالة الاستعمار والأنساق العاملة من أجل فرض هذه الرّسالة و اختلاق ((الصدق حول هذه الرسالة)) حتى لا يبقى للجزائري الخاضع للاستعمار في معظم الوقت سوى ايمانه الذاتي المتزايد شيئا فشيئا في معارضته للاعتداءات الغاشمة التي توجهها الصحافة الفرنسية من أجل بث عوامل البتر و الانفصال الباطنة وفي التظاهرات الاستعراضية للقوى العسكرية و البوليسية . ولا يلجأ المواطن المدني الذي يواجه كل يوم ((بالقضاء على آخر فلول العصابات)) الى اليأس بفضل ايمانه الرّاسخ وعقيدته الثابتة التي لا تمس.

وتتوقف شيئا فشيئا المعونة الأخلاقية بحكم كونها وبحكم صدورها عن الصحافة الديموقراطية وتعمل الرقابة الذاتية للصحف المحلية المعروفة بشرفها التقليدي على تقوية هذا الانطباع بعدم التمام و بعدم الاكتمال أعني الانطباع بالخيانة على مستوى الإعلام . ويبدو في نظر الجزائري أن جوانب كاملة من الحقيقة تخفى عنه إخفاء ، ولديه ما يشبه اليقين بان القوة الاستعمارية في طريقها الى الانهيار على مسمع ومرأى منه وبأنه لا يتابع عن كثب كل ما يقع بالفعل من مظاهر الاحتضار . وفجأة يشعر بالخوف من أن هذا الشيء الذي طالما شعر بالكراهية نحوه و أنزل

به الإصابة القاضية في الجبل والذي صار من المحتمل أن تكون أيامه الباقية معدودة ....

فجأة يشعر الجزائري يأنه قد لا يختفي بدون أن يسمح له برؤية كيفية تحلل هذه القوة وذلك الشبح الكئيب . و يستشعر الجزائري أثناء هذه الفترة بانطباع الإحباط النفسي- و تتوقف عدائيته لأنه لا يحصي- النقاط ولأنه لا يسجل ساعة بساعة هزائم العدّو ولأنه لا يقيس في النهاية شبرا بشبر عملية التقلص التدريجي للقوة الغازية المعادية.

وقد أحاط الأروبي إحاطة عامة و بصفة موضوعية بأبعاد الثورة المناهضة ولا يظن حقيقة بأن الفرق الثورية سوف تحتل المدينة في صباح يوم مشرق . ويعرف الأروبي بنوع من الدقة غير التامة خطورة قوات الثورة ولايكف عن الموازنة بينها وبين القوات الفرنسية .

فكل طائرة تشق أجواء الفضاء وكل قطعة مصفحة تتقدم مع الصباح هي بمثابة لمحات من النور المشرق في عالم من القلق وعدم التحدد وهو العالم الذي يعيش فيه المنتفع المستغل الأجنبي ويحس الأروبي بالهزّة ولكن لا يلبث مع الشهور الأولى من سنة 1955 أن يعتقد بأن شيئا لم يضع وبأن الاستعمار له مستقبله في الجزائر . وتقوّي التصريحات الرسمية الإذاعية عزيمته من هذه الناحية .

أما الجزائري و بخاصة ذلك الذي يعيش في المناطق الريفية فانه يشكل أوجه النقص في معلوماته بوسائل لا معقولة مطلقة من المزايدة و المضاربة ولهذا تطرأ

ردود فعل مختلة النسق الى حد كبير مع الواقع الموضوعي حتى يكتسي- في نظر المراقب بمشهد مرضي . ويحدث أن يشاع في قسنطينة في الأشهر الأولى من السنة 1955 خبر مؤداه مثلا أن الجزائر العاصمة قد وقعت في أيدي الوطنيين أو أنه يذاع في العاصمة أن الراية الجزائرية ترفرف فوق قسنطينة وفليبفيل(سكيكدة) وباتنة...

ولا يدرك المصاصون المنتفعون الأجانب دائما في الأوساط الاستعمارية الصغيرة تلك التأكيدات العارمة العنيفة والمفاجئة التي يطلقها الفلاح ، وكثيرا ما يحدث أن يشاهد وهو يتصل اتصالا هاتفيا بالمدينة القريبة من داره حتى يتثبت من أن شيئا ذا أهمية لم يحدث في البلاد . ويستشعر الأروبي بأن الحياة التي شيدها فوق أنقاض الشعب المغلوب على أمره قد فقدت كل ضمانتها .

فقبل الثورة كانت ثمة حياة وحركة ووجود للمنتفع الأجنبي وفي مقابل ذلك كان هناك احتضار متصل للمواطن الخاضع للاستعمار . ويقرر الأروبي ابتداء من سنة 1954 أن حياة أخرى بدأت تلوح في الجو موازية لحياته وان المجتمع الجزائري فيما يبدو لم تعد الأشياء تجري فيه و تتكرر كما كان الحال من قبل.و إذا بالأروبي بعد سنة 1954 يعرف أن الأشياء ما محجوب عنه وتلك هي الفترة التي يكتسي- فيها التعبير القديم عن ((محادثة التلفون العربية)) دلالة شبه علمية.

ويطلق الأروبيون في بلاد المغرب العربي ، عبارة ((محادثة التلفون العربية)) على السرعة النسبية المعتادة عندما تسري الهمسات الإخبارية و تنتشر- بها في المجتمع الوطني الأصلي . ولم يكن في أية لحظة ما يدعو لتغطية شيء آخر وإخفائه

تحت هذا التعبير أو تحت هذا المنطوق بيد أننا لا نلبث عام 1955 أن نسمع الأروبيين بل والجزائريين يشيرون بثقة وكما لو كانوا ينقلون اليك سرّا من أسرار الدولة ، الى تقنيات الارسال بعيد المدى الذي يذكر بشكل غامض بأنساق الاشارة ، ودق الطبول على ما هو الحال في بعض المناطق الافريقية .

ويعطى الجزائري بالتالي الى الأروبي المعزول الانطباع بأنه على اتصال مستمر بالقيادة العليا للثورة ، ويوجد لدى المواطن الأصلي نوع الاطمئنان المتزايد المتضخم الذي يثير على مستوى السلوك الفردي بعض المظاهر الخاصة .

وكنا نرى بعض الأفراد وهم في هبة من الغليان المضطرب ، وكأنهم قد أطيح بهم الى خارج أنفسهم . ويراهم الناس وهم يتقدمون في الشوارع أو في قلب الحقول المعزولة بلا سلاح أو هم يلوحون بسلاح أبيض ضئيل مدبب وهم يصيحون ((تحيا الجزائر مستقلة)) ....((إننا لمنتصرون)).وينتهي هذا السلوك العدائي ذو التعبير العنيف الصارخ في معظم الأحوال بسلسلة من طلقات المدافع الرشاشة التي تطلقها دورية عسكرية .

وعندما يذهب الطبيب لمحادثة المصاب وهو يشرف على الموت تخرج من فمه عبارات تقليدية تقول : ((لا تصدقهم نحن الأقوى وسياتي دورنا وأنا مكلف بأن اخطرك بمجيئهم نحن الأقوياء وسوف نسحق العدو)).

ويحدث أن يكون بعض هؤلاء الملهمين ، مجرد جرحى فيوكل بهم الى هيئات الشرطة من أجل استجوابهم ولا تلاحظ الطبيعة المرضية للسلوك و يبقى المتهم

أياما باكملها في التعذيب حتى تخطر الصحافة الجمهور بانه قد أطلق عليه النار وقتل عندما كان يحاول الفرار أثناء نقله من مكان لآخر أو أنه قضى- نحبه ، على اثر مرض طارئ.

وتطفر المجموعة الحاكمة بالمثل مظاهر الغليان العقلي فنشهد تفجر الخوف الجماعي كما نشهد لدى المستغل الاستعماري هروبا اجراميا متزايدا والفرق بين حالته و حالة المواطن الخاضع للاستعمار هو وجود اتجاه سريع نحو العمل الإجرامي لدى المستغل المستعمر في صورة قتل وابادة حقيقية .

أما الجزائري فيجد نفسه مشغولا على المستوى الإعلامي بشبكة محددة تحديدا صارما من حيث المكان . ويوجد شبه اتفاق عام في القرية حول الأهمية العددية والمادية لجيش التحرير الوطني . ومن الميسور الحصول عند المطلب على بيانات حول قوة الأسلحة وبرنامج العمليات القادمة . ولا يستطيع أحد بطبيعة الحال ، أن يحدد مصدر هذه المعلومات ... وإذا بالوصف المعطى حول هزيمة جيش من الجيوش القومية والاشاعة التي تذاع في الشعب حول الأخبار المنذرة بالكوارث تستخدم كمرجع من أجل تحديد أبعاد الظاهرة المقابلة . فقد كان من بين أجراء الطابور الخامس (الجواسيس) من أخذوا على عاتقهم سنة 1940 مهمة حقن الشعب الفرنسي بفيروسات الهزيمة . ولكن لا يمكن تجاهل حقيقة أن الأرض كانت ممهدة وأنه كان ثمة نوع من عدم التقيد الفكري وشيء من السماح العقلي تفسره كل تلك الهزائم المتوالية على أسبانيا والمانيا و بالذات على ميونيخ بفعل المعسكر

الديمقراطي . وكأن الروح الانهزامية قد ولدتها سنة 1940 مباشرة الانهزامية التي تجلت في ميونيخ .

ولكن على العكس من ذلك في الجزائر ــ وهذا حقيقي في البلاد الخاضعة للاستعمال التي تشرع في الحرب التحريرية ــفقد كان كل نبأ سارا ، كما كانت كل معلومة تبعث على الرضا ، واذا بالطابور الخامس (عملاء الاستعمار) يصبح مستحيلا بالجزائر واقرار هذه الواقعة الذي يدفع المتخصصين في علم الاجتماع الى الرجوع قليلا الى الوراء من أجل تفسير المواطن الأصلي كظاهرة لا تخضع لمقاييس الاستدلال أو التجربة .

ويذهب أخصائيو الحرب بتجربة أعمق الى حدّ الإشادة بأن هؤلاء الرجال لهم عزيمة من حديد وأن تعصبهم لا يخضع للتفسير أو للفهم . وإذا نظرنا إلى المجتمع كمجموع في شمولية وجدناه يعطي انطباعا باستفاء معلوماته عن طريق اليقين المستمد شيئا فشيئا من الحقيقة . وتعبر هذه المظاهر والأوضاع الإيمانية الشاملة وذلك الاعتقاد الجماعي عن ارادة مجموع الشعب في أن يكون أقرب ما يمكن من الثورة وأن يتعجل هذه الثورة إذا أمكن أو يسبقها أو بعبارة مختصرة في أن ((يجد نفسه مشتركا في العملية)).

وظننا في ذلك الوقت ، وبخاصة في مراكز العمران ، بأن دروبا أشد تعقيدا من السلوك ستبزغ . وأحس الجزائريون بتعطشهم الى المعلومات الموضوعية فأقبلوا على شراء الصحف الديمقراطية التي تصل من فرنسا ، وصار المكسب المالي لهذه الصحف عظيما وتضاعف ، ((الاكسبريس)) ((ولا فرانس أو بسيرفاتور)) و

((لوموند)) نسبتها وتزيد هذه النسبة من واحد الى ثلاثة وتصل أحيانا الى خمسة في كل مايصل من مطبوعتها إلى الجزائر . وأعلن كل الأروبيين ، وبخاصة اولئك الذين يملكون أكشاك الصحف ، أن الخطر الاقتصادي ومن ورائه الخطر السياسي يتمثلان في هذه المطبوعات . وإذا قمنا بدراسة مشكلة الصحافة المكتوبة في الجزائر فعلينا أن نذكر وجود خاصية معينة في نسق التوزيع وعلى هذا النحو يصبح البائعون العموميون وكلهم من صغار الجزائريين يبيعون الصحافة المحلية وحدها .

ولم يكن يصل الى المستهلك شيءمن الصحف وكان على المتشري ان يطلب هذه الصحف في الأكشاك ويحس أصحاب الصحف المكتوبة في الجزائر مباشرة بالمنافسة من جانب الصحافة الوافدة من فرنسا فتبدأ حملات التشهير بالصحافة الموالية للعدو ، كما تبدأ عمليات المصادرة المتكررة لبعض هذه المطبوعات ... ويصبح لهذا كله طبعا دلالة خاصة وتصبح من عادة أصحاب الأكشاك هؤلاء شيئا فشيئا ان يجيبوا بروح عدائية أ ((صحف الأوغاد لم تصل اليهم)).

ويكتشف الجزائريون في المراكز العمرانية و بالذاتي في أماكن التجمعات السكانية الريفية أنه يكفي الشعور بالقلق حول الوصول أو عدم وصول تلك الصحافة من أجل إعطائها صبغة معينة . فصاحب اكشاك الصحف شأنه شأن الموظف الروتيني في الجزائر وفي فرنسا ، وهو بطبيعة الحال وبصفة قاطعة من المحاربين القدماء على وجه الخصوص ممن انخرطوا بقوة في إطارات التكوين الاستعماري المتطرف.ويكفي أن يطالب الجزائري ب ((الاكسبرس)) أو ((لومانتي)) أة ((لوموند)) ليكون ذلك

إعترافا علنيا و علامة مِشرة لرجال البوليس عن ولائه للثورة أو على الأقل اشارة بارزة بأن الشخص يباعد بينه وبين المعلومات الرسمية اي((المعلومات الإستعمارية)). وهو بهذا يبدي رغبة في الإنفراد ، أما بالنسبة الى اصحاب الأكشاك فهو بمثابة تأكيد لا يحتمل الشك ولا يحوطه غموض فما يتعلق بتضامن هذا الجزائري مع الثورة فشراء هذه الصحف مدرج على هذا النحو بالنشاط القومي . وإذن فهو فعل خطير.

ويرى صاحب الكشك في كل مرة يحضر فيها الجزائري لطلب واحدة من هذه الصحف تعبيرا عن وطنيته بما يعادل فعل الحرب نفسه وكأن صاحب الكشك هنا هو الممثل الخاص للمحتل الأجنبي . وبالتدرج يتمسك البالغون الجزائريون بعادة ارسال من ينوب عنهم من الأطفال الجزائريين لشراء الصحف لأنهم ملتزمون حقيقة الآن بالنشاط الحيوي للثورة أو بنوع من الحكمة والمعقولية ، اذا وضعنا في اعتبارنا ذلك الجو العدائي المسعور للاجانب الذي وضع أساسه المستعمرون المستغلون الفرنسيون سنة 1955 . وبعد أسابيع قليلة تذهب الحيلة الجديدة ادراج الرياح ، وابتداء من المرحلة الجديدة كذلك يرفض أصحاب الاكشاك بيع ((الايكسبريس)) و((لومانيتي)) و((ليبيراسيون)) الى القاصرين ، وبالتالي يجد البالغون أنفسهم مضطرين الى رفع القناع عن شخصياتهم أو الى مجرد الاكتفاء بجريدة ((أصداء الجزائر العاصمة)) وفي هذه اللحظة بالذات تصدر الادارة السياسية للثورة أمرها بمقاطعة الصحافة الجزائرية المحلية.

و يستوفي هذا القرار غرضا مزدوجا فهم أولا رد فعل سريع لمعارضة اعتداء شركات الاحتكار الجزائرية باجراء ذي نتائج اقتصادية ، فالحركة الثورية تهز السوق عندما تحرم قراءة الصحف الجزائرية على جزء كبير من الزبائن الأصليين هزا عنيفا مؤثرا على الصحافة المحلية . ولكن الإدارة السياسية على الخصوص كانت مقتنعة بأن الجزائريين إذا استسلموا للإعلام الاستعماري وحده فسينالهم بالتدريج ذلك الفعل الجماهيري الضار ، الناجم عن هذه الصحف الكاملة المليئة بالأرقام والصور المعروضة للتغرير بهم وحيث يمكن الاطلاع كل صباح بأي حال على عملية ازاحة الثورة بوضوح .

وبدت الضرورة واضحة جلية في مستوى الجماهير التي بقيت نسبيا بمعزل عن ذلك الصراع ، تدور حول الصحافة المكتوبة والحصول على أجهزة الإذاعة . ولا ينبغي أن ننسى- في الواقع أن الأمية العامة لدى الشعب قد جعلته لا يبالي كثيرا بالمواد المكتوبة . وكان معظم الجزائريين ، منذ الشهور الأولى للثورة يرون المادة المكتوبة باللغة الفرنسية فينظرون اليها بوصفها التعبير عن السلطة الغازية المحتلة . وكانت أوصاف الكتابة في ((الايكسبريس)) أو في ((أصداء الجزائر العاصمة)) علامة على الحضور الفرنسي .

ويمثل امتلاك جهاز الراديو في الجزائر سنة 1955 الوسيلو الوحيدة للحصول على أنباء الثورة من مصدر غير فرنسي- . وتلبس هذه الضرورة طابعا الزاميا عندما يعرف الشعب كل يوم أن الجزائريين يصدرون من القاهرة بيانا بالصراع التحريري. وتتوافد على هذا النحو من القاهرة ومن سوريا ومن كل البلاد العربية على وجه

التقريب على الجزائر الصفحات الكبيرة المكتوبة وسط الجبال بعد أن حرّرها الأخوة و الآباء والأصدقاء .

وبهذا ، وعلى الرغم من المعطيات المستحدثة يتم دخول أجهزة الراديو في البيوت والدواوير النائية بطريقة تدريجية . ولكن لا تحدث ما يشبه الهزة الحقيقية أو الفيض الزاخر من أجهزة الاستقبال .

ولا يحدث في الواقع أن المنشورات بدأ توزيعها في هذه الفترة لتشير الى وجود صوت الجزائر الحرة . وتضمنت هذه المنشورات ساعات الاستماع وطول الموجات الخاصة بالإرسال على وجه التحديد . وفجأة يحصل هذا الصوت الذي يتحدث من بطون الجبال دون أن يكون موجودا بها جغرافيا بالفعل ، وإنما يحمل الى الجزائر بأكملها رسالة أمجاد الثورة ، على قيمة جوهرية .وفي أقل من عشرين يوما نفذت كل مخزونات أجهزة الراديو العادية تظهر في الأسواق، ويشرع بعض الجزائريين من المدبين عند أصحاب حوانيت الراديو والكهرياء في أنشاء وافتتاح بعض المحارف الصغيرة وأكثر من هذا كان على التاجر أن يستجيب لحاجات معينة ذات طابع أصيل . فقد كانت الكهرباء غير موجودة في مناطق فسيحة في الجزائر .

وكان هذا يفرض في الواقع على المستهلك بعض المشاكل المحددة . ومن هنا ابتداء من سنة 1956 كانت أجهزة الراديو التي تدار بأحجار البطارية هي المطلوبة بإلحاح فوق التراب الجزائري ، وبيعت بضعة الآف من أجهزة الراديو الى الجزائريين خلال عدد من الأسابيع فكان ثمة أجهزة راديو يحملها الأفراد وأجهزة أخرى تحصل عليها الأسر أو بعض المجموعات من المنازل والدوارات والمشاتي.

ولم يعد شراء جهاز للراديو ابتداء من سنة 1956 في الجزائر مجرد ارتباط بتقنية حديثة في الإعلام ولكن بوصفه الوسيلة الوحيدة للبقاء على اتصال بالثورة وللحياة معها. ويمكن لإخضاع التغيرات التقنية في البلاد النامية ،أن يلتمس في الحالة الخاصة بوجود جهاز راديو متحرك يدار بأحجار البطارية كصورة مميزة طليعية بالنسبة بالنسبة لجهاز الراديو الثابت ، الالذي يدار بالكهرباء ... يمكنه أن يلمس في هذا علامة على التغير الجذري . فالواقع أن الجزائري بهذا التصرف يعطي انطباعا بعبور مرحلة والوصول دفعة واحدة الى أشد صور الإعلام مدنية .

والواقع كما رأينا، كان هذا التقدم يرجع الى غياب الكهرباء في الدواوير الجزائرية . ولم تدرك السلطات الفرنسية في التو ، الأهمية الفريدة في هذا التعديل الذي طرأ على الشعب الجزائر فيما يتعلق بجهاز الراديو ويحدث انفجار لدى الأسر القديمة المتداخلة المعارضة وإذا بنا نشهد مجموعة من الأسر بالدوار حيث الآباء والأمهات والبنات صفوفا لوحة جهاز ، انتظارا ((لصوت الجزائر))

وفجأة تبدو الأسرة الجزائرية لا مبالية ازاء الحشمة القديمة وازاء الروح الاجتماعية الفقيرة القديمة وازاء الروح الاجتماعية الفقيرة القديمة الخالية من المودة الأخوية فتكتشف نفسها بالتالي وقد أكتسبت مناعة ضد كل ألوان التندر الماسة الوقحة ، أو ضدّ كل عبارات العشق التي ينشرها جهاز الراديو هنا وهناك .

ويفقد جهاز الراديو تلك الأداة التقنية بفعل السحر طابع الأشياء المنتمية الى العدو وكان لهذا الحدث فعل السحر وان كنّا قد شهدنا التقدم ((الدياليكتيكي)) المتناسق في الضرورات القومية الجديدة . فجهاز الراديو ليس جزءا من أسلحة

الإرهاب الثقافي من جانب الغازي المستعمر.وتذهب المجتمعات الجزائرية الى أبعد من ذلك فتقرر وهي تحول الراديو إلى وسيلة فريدة لمقاومة الضغوط النفسية والعسكرية المتزايدة شيئا فشيئا من جانب الاستعمار ...

تقرر المجتمعات الجزائرية في حركة داخلية مستقلة أن تأخذ بالأسلوب التقني الجديد وأن تصبح بذلك قد مدت وصلاتها بأنساق الإشارة الجديدة التي بزغت مع الثورة .

على أنه سيكون لصوت الجزائر المقاتلة في مجال تلاحم الشعب والتحكم فيه أهمية أساسية ، وسوف نرى أن استعمال اللغات العربية والقبائلية والفرنسية ، وهي تعبير عن مفهوم غير عنصري _ كما أقر ذلك الاستعمار _ كانت له اهميته في تطوير وحدة الشعب و تدعيمها ، و اشراك الجرجرة في المعركة لفائدة الجزائريين الوطنيين بباتنة أونمور (الغزوات حاليا) . إن الأفعال المتقطعة والمتجزئة التي يغيطها مراسل صفيحة مناصرة للسيطرة الاستعمارية أو التي تبلغها السلطات العسكرية العدوة ، تفقد ميزتها الفوضوية و تنظم في إطار فكرة سياسية قومية و جزائرية كما أنها تحتل مكانها في إستراتجية شاملة الاسترجاع السيادة الشعبية .

وهكذا تندرج الأفعال المتفرقة ضمن ملحمة عريضة لا يبقى فيها القبائليون (أولئك الذين في الجبال) وإنما اخوة ينغصون مع (أوعمران) و (كريم) حياة الجيوش العدوة .

ويعني أقتناء جهاز راديو دفع ضريبة للأمة ، أي شراء الحق في الانضمام الى الصفوف هذا الشعب المتكتل من أجل المعركة .

غير أن السلطات الفرنسية قد بدأت تنفطن لاهمية هذا التقدم العبي في تقنيات الإعلام وهكذا لم تمض شهور قليلة من التردد حتى ظهرت التدابير القانونية التي تمثلت في حظر بيع أجهزة الراديو حظرا كاملا الا بتقديم سند يسلم من طرف الأمن العسكري او مصالح الشرطة . ونفس المصير تشهده أجهزة الراديو العاملة بالبطاريات التي يمنع بيعها بشكل مطلق كما تسحب عمليا من السوق جميع البطريات الغيار . وحينئذ تسنح الفرصة للتجار الجزائريين في مضاعفة عمليات التهريب منفذين هكذا خدمة وطنية و عاملين بانتظام استثنائي على تزويد الشعب بالبطريات

و أخيرا يمتلك الجزائري الذي يأمل أن يعيش في مستوى عظمة الثورة إمكانية السماع الى صوت رسمي صوت المقاتلين يشرح له المعركة و يقص تاريخ مسيرة التحرير و يدمجه أخيرا ضمن نفس الأمة الجديدة .

هنا تتبدى ظاهرة تكتسي- من الصالة ما يسترعى انتبهنا . فالمصالح الفرنسية المتكمنة من اقصى- حدود التقنيات و من خبرتها المكتسبة من الحروب الحديثة والمتدربة على ممارسة (حرب الموجبات) قد تمكنت سريعا من تحديد طول موجبات محطة البث . وقد أصبحت البرامج آنذاك مشوشة بشكل تدريجي منظم ادى الى جعل صوت الجزائر المقاتلة غير مسموع و ظهر شكل جديد من اشكال

الكفاح . فهناك نشرات تنصح الجزائريين بالاستماع إلى الراديو بصورة دائمة ساعتين او ثلاث ساعات متتالية .

وفي خلال حصة واحدة . تحل محطة بث على طول موجة أخرى محل المحطة الأولى بث على طول موجة اخرى محل المحطة الأولى المشوشة ، وكان المستمع المندمج في معركة الموجات يتوقع تكتيك العدو فيحبط استراتجية العدو وبطريقة جسدية وعضلية . وفي اغلب الحيان يكون للمشرف على الارسال الحظ غير المنتظر بسماع (الصوت) ويكتفي الجزائريون الاخرون الحاضرون في القاعة بصدى هذا الصوت المنبعث لديهم عن طريق المترجم المحظوظ الذي يحاصر مباشرة بعد نهاية بث الحصة الاذاعية لتطرح عليه أسئلة دقيقة حول هذا (الصوت) (المجسد) .

و اذ يرغب الحاضرون الاستعلام عن هذه المعركة أو تلك المشار اليها من لدن الصحافة الفرنسية في الربع و العشرين ساعة الاخيرة يعترف الترجمان ــ وقد اكتشفه الصيق و اثقله الذئب – بان (الصوت) لم يتعرض لذلك بتاتا .

غير انه باتفاق مشترك ، وبعد تبادل للنظرات يقرر بأن (الصوت) قد أعرب عن رأيه كاملا تجاه هذه الحوادث أن الترجمان لم ينتبه للمعلومات المذاعة .

عندئذ يشرع في عمل إعدادي حقيقي يساهم فيه جميعهم و يعاد فيه بناء معارك الأمس وما وفقا للرغبة العميقة للجماعة ولاعتقادها الشديد و يعوض المستمع الطابع المجزأ للاختبار بابتكار مستقل في الإعلام .

ولا يعد الاستماع الى صوت الجزائر المكافحة كحرص على الاستماع الى الطرف الآخر بل كمطلب داخلي للتلاحم مع الأمة المكافحة و استعادة تحمل مسؤولية التكوين الوطني الجديد وترديد الملحمة الجبارة المنجزة في الأعالي بين الصخور و على الجبال . ويبلغ الجزائري كل صباح رفاقه بنتيجة ساعات الاستماع ويكمل لهم ما لم يبح به (الصوت) ويجيب على الأسئلة الماكرة التي تطرحها صحافة العدو . وهكذا يقابل تأكيدات رجل الاحتلال الرسمية ونشرات الخصم الهادرة، بمعلومات معلن عنها رسميا من قبل قيادة الثورة.

ويحصل أحيانا المناصل للترويج ما يراه وجه نظر الادارة السياسية وتطلق الامة بكاملها خلال بث الحصة الاذاعية – لسبب سكوت عن ذكر هذه الواقعة أو تلك يمكن اذا طال أن يظهر مؤلما أصداء الجزائر العاصمة و خطيرا على وحدة الشعب – جملا متناثرة وتخولها معاني معينة و يكاد صوت الجزائر الكافحة الا يسمع بشكل متواصل لانه غير مسموع بصورة واضحة ولأنه يغطيه تشويش دائم يستدعي ان يتغير موجاته مرتين أو ثلاث خلال اذاعية واحدة .. إنه صوت متقطع غير ان صوت الجزائر هذا الذي يعيش شهورا عديدة مطاردا من طرف شبكات العدو القوية للتشويش ،هذه ((الكلمة)) التي طالما تظل غير مسموعة ،تصبح في النهاية الأمر غذاء لايمان المؤاطن بالثورة .

هذا ((الصوت)) الذي نشعر به حاضرا كل وقت والذي نتصور واقعه ، تزداد قيمته أكثر فأكثر بالمقارنة مع أهمية موجات التشويش التي تبثها المحطات العدوة المتخصصة . ان قوة التخريب لدى العدو هي التي توضح واقع العبارة الوطنية

وحدتها . فكلمة الجزائر المكافحة و((صوت)) كل جزائري ، والطابع الشبحي لراديو المجاهدين ، كل ذلك يخول المعركة أقصى وجودها .

وفي هذه الظروف فان التأكيد على سماع ((صوت الجزائر)) معناه تشويه للحقيقة ولكنه بذلك وعلى وجه الخصوص فرصة الاعلان سرا في جوهر الثورة. انه اختيار حر، وان كان غير واضح في الشهور الأولى ، بين الكذبة الموروثة للعدو والكذبة الخاصة للرجل الخاضع للاستعمار التي تكتسب فجأة بعدا معينا من الحقيقة .. ويتجسم هذا الصوت الذي يعد غائبا في أغلب الأحيان وغير مسموع والذي يحس كل واحد بأنه يرتفع في داخله ، والقائم على أساس مفهوم داخلي هو مفهوم الوطن ، يتجسم بصورة لايمكن رفضها . ذلك أن كل جزائري من جهته ينقل ويذيع اللغة الجديدة . ان كيفية وجود هذا الصوت تذكر بكيفية وجود الثورة . فهي موجودة ماضيا ولكنها غير موضوعية ، وهي متقطعة اربا اربا.

ان جهاز الراديو هو الضامن لهذه الكذبة الحقيقية فكل مساء ، من الساعة التاسعة ليلا الى منتصف الليل يجلس الجزائري للاستماع .. ويحصل في نهاية الأمسية عندما لا يسمع الصوت أن يدع الجزائري الراديو في موجة من التشويش أو ذبذبات بسيطة مؤمنا أن صوت المقاتلين ينطلق من هذه المحطة وليس من غيرها . وتمتلئ القاعة لمدة ساعة بضجة مزعجة من التشويش ويتصور الجزائري وراء كل موجة وكل تشنج فعال في كلمات بل معارك مجسدة . وهكذا فان حرب الموجات داخل الحي القصديري تعيد طبع تصادم شعبه المسلح بالاستعمار . ويعود النصر، بشكل عام ، الى ((صوت الجزائر)) .

أما محطات العدو فتتخلى عن عمليات التشويش كلما انتهت حصة الاذاعية .. وهكذا يتسنى للموسيقى العسكرية الجزائرية أن تملأ صدور المؤمنين ورؤوسهم بحرية تامة .. فقد لعبت هذه الفقرات الموسيقية الفولاذية التي تشكل مكافأة ساعات ثلاث من الأمل اليومي لمدة شهور دورا رئيسيا في تكوين الوعي القومي الجزائري وتدعيمه.

ويجدر هنا _ على مستوى البسيكولوجيا المرضية _ التذكير ببعض الظواهر المرتبطة بجهاز الراديو والتي ظهرت إبان حرب التحرير . فقبل عام 1954 ، كانت المقالات الكتابية التي تعرضت الى قضية الجزائريين (المتهلسين) تشير باستمرار في المرحلة المسماة بالنشاط الخارجي الى وجود أصوات اذاعية معتدية وهجومية بشكل عميق . انها أصوات معدنية وجارحة وشتامة وكريهة تمثل كلها لدى الجزائري طابعا اتهاميا واستقصائيا .

ويتخذ الراديو على مستوى النظام العادي المعمول به ، كنموذج لغز وعنيف من قبل رجل الاحتلال ، في نطاق الحالة المرضية ، دلالات مستلبة للغاية . ذلك أنه يمتلك في الجزائر _ فضلا عن العناصر السحرية ذات المسار اللاعقلاني الموجودة في أغلبية المجتمعات المتجانسة _ أي تلك التي ينعدم فيها أي اضطهاد أجنبي _ قيمة نوعية خاصة .

وقد رأينا أن الصوت المسموع ليس بصوت لا مبال ولا محايد : انه صوت رجل الاضطهاد ، صوت العدو فالكلمة لا تقبل ولا تفسر ولا تفهم بل ترفض إطلاقا، كما ترفض وسائل الاتصال ولا تبقى أبدا موضوع بحث لأن الانفتاح الذاتي

على الغير قد غدا عضويا وبالضبط مرفوضا في الوضع الاستعماري ، فالراديو قد أصبح في مجال البسيكولوجيا المرضية قبل سنة 1954 شيئا كريها قابلا للقلق واللعنة.

لكن محطة الارسال تتخذ ابتداء من سنة 1954 معاني جديدة كلها . فالراديو وجهاز الاستقبال يفقدان كلاهما ما فيهما من طابع عدواني ، يتخليان عن صبغتهما كلاهما ما فيهما من طابع عدواني يتخليان عن صبغتهما الأجنبية و ينتظمان في نطاق متلاحم داخل الامة المكافحة . وهكذا ، وابتداء من عام 1956 وفي حالة الهوس الوهمي تغذو الأصوات الاذاعية أصواتا خالية من الشتائم والاتهامات وتحل محلها كلمات تشجيعية ، وتصبح التقنية الأجنبية ((المهضومة)) بمناسبة الكفاح الوطني ، أدت معركة من أجل الشعب و عنصرا واقيا ضدّ القلق النفسي .

ودائما في مجال الاتصالات ، تجدر الاشارة الى اكتشاف قيم خاصة بواسطة اللغة الفرنسية .. وبالفعل فان اللغة الفرنسية وهي لغة الاحتلال وناقلة لقوة الاضطهاد قد تبدو أنها ملزمة إلى الأبد بإصدار حكم على الجزائري على نحو محقّر . ذلك أن كل تعبير فرنسي- ذا صلة بالجزائري كان يتضمن محتوى مهينا ، وكل كلمة فرنسية كانت تسمع كانت تشكل أمرا أو تهديدا أو شتيمة . ويبقى لقاء الجزائري بالأروبي محصورا في هذه المفاهيم الثلاثة وستقوم حصص الجزائر المقاتلة التي تبث باللغة الفرنسية طابعها الملعون لأنها تكشف عن قدرتها في نقل رسائل الحقيقية الى الأمة التي تنتظرها . ومهما جاء في هذا الكلام من تناقض ، فان الثورة الجزائرية ، بل كفاح الشعب الجزائري هو الذي يسهل نشر اللغة الفرنسية في الأمة .

وتفقد الجمل الفرنسية في علم النفس المرضي الطابع الآلي الذي تضمنه في الشتم واللعن . أما المتهلسون الجزائريون الذين يسمعون أصواتا فرنسية فانهم يتلفظون بكلمات أقل فأقل عدائية . ولا يكون نادرا في النهاية ان نكشف عبر لغة رجل الاحتلال هلوسات تتخذ مسلكا ودّيا من الدعم والحماية .

لم تقدّر سلطات الاحتلال أهمية الموقف الجديد للجزائري تجاه اللغة الفرنسية . فالتعبير بالفرنسية وفهم الفرنسية لم يعد مماثلا للخيانة أو لتقمّص هويّة مفتقرة لرجل الاحتلال . فاللغة الفرنسية التي تستخدم في ((أصوات المقاتلين)) والتي تنقل بشكل فعلي رسالة الثورة تصبح كذلك أداة للتحرّر ، وبينما يعبّر ايّ صوت فرنسي في حالة السيكولوجيا المرضية عند الهذيان عن الرفض وعن العقاب وعن الخزي ، فاننّا نرى أنه ينطلق مع كفاح التحرير عمل رئيسي- للتّخلص من اللغة الفرنسية ، ونحضر لما يشبه التكفّل بلغة رجل الاحتلال من قبل الساكن الأصلي.

وقد أدرك الفرنسيون هذه الظاهرة بعد ((مؤتمر الصومام)) في شهر أوت 1956. ونتذكر أنه بهذه المناسبة اجتمع المسؤولون السياسيون والعسكريون عن الثورة في وادي الصومام وبالضبط في قطاع عميروش قائد الوحدة العسكرية آنذاك وذلك بغرض ارساء قواعد عقائدية للكفاح وتشكيل ((المجلس الوطني للثّورة الجزائرية)) . وقد انكشف فجأة لقوى الاحتلال بحكم سير الأشغال باللغة الفرنسية ان التحفظ العام والتقليدي للجزائريين في استخدام اللفة الفرنسية في ظل الوضعية الاستعمارية يمكن أن يزول طالما أن ثمة مجابهة حاسمة تقذف وجها لوجه بارادة الاستقلال الوطني للشعب ، ضد القوة المسيطرة .

لقد أضلّت هذه الظاهرة بالسلطات الفرنسية بشكل غريب فقد رأت فيها في بداية الأمر برهانا مؤكدا باستمرار عن عدم مقدرة اللغة العربية في استخدام المفاهيم العملية لحرب ثورية عصرية . غير أنه في الوقت نفسه تحث القرارات المتخذة في النظام اللغوي رجل الاحتلال على ادراك الطابع المتعلق بهذه الاشارات وتوقع الغموض والارتباك في جهازه الدفاعي .

وتستقر بين التوجيهات التي تصدر عن الناحية العسكرية العاشرة في الجزائر دائرة من التواطؤ ونوع من امتداد الرقم . فهذان النظامان من الحقائق يتخذان موضوعية عن طريق نظام لغوي واحد . وكان أنصار الاندماج من جهتهم يرون في ذلك مناسبة جديدة لتأكيد ((الجزائر الفرنسية)) جاعلين من لغة رجل الاحتلال الوسيلة العملية الوحيدة للاتصال الموضوعة رهن اشارة القبائليين والعرب والشاوية وبني مزاب ...الخ

ان هذه الأطروحة على مستوى اللغة تتبّنى من جديد مذهب الاستعمار ذاته . انّه تدخّل الأمة الأجنبية التي تنظم الفوضى المتاصلة في البلد الخاضع للاستعمار . وفي هذه الظروف فانّ اللغة الفرنسية ، لغة رجل الاحتلال ، تعد نفسها متخذة وظيفة الكلمة الالهية ترافقها توريطات ((أنطولوجية)) داخل المجتمع الجزائري .

وسواء تعلق الأمر بهذه الحالة أو تلك فاستخدام اللغة الفرنسية معناه الاستئناس بخاصية رجل الاحتلال والظهور بمظهر المتقبل للارشادات والرموز بل الأمر معين لرجل الاحتلال . ولم يدرس الفرنسيون بجدية كافية هذا التصرف الجديد للجزائري ازاء لغتهم فأشغال مؤتمرات الأحزاب الوطنية قد جرت _قبل عام

1954 باللغة العربية.. وبتعبير أدق فان مناضلي منطقتي القبائل أو الأوراس كانوا يتعلمون العربية بمناسبة ممارسة نشاطاتهم الوطنية . وكان التكلم باللغة العربية قبل عام 1954 ورفض الفرنسية كلغة و كطريقو للاضطهاد الثقافي يشكلان نوعا مميزا ويوميا للتفرد والوجود الوطني . فالاحزاب الوطنية قبل عام 1954 كانت تدعم آمال المناضلين وتكّون الوعي السياسي للشعب وذلك بتقييم مختلف الأشكال واحدة واحدة و مختلف سمات الأمة الخاضعة للاحتلال وهكذا كانت اللغة العربية تمثل نموذجا للوجود و أكثر الوسائل واقعية تكسيها كينونة الأمة من أجل رفع الأسرار عنها.

لقد كانت حقيقة المعركة وارتباك رجل الاحتلال في أغسطس 1956 تجردان اللغة العربية من طابعها المقدس و اللغة الفرنسية من اصنافها الملعونة . وقد تمكنت اللغة الجديدة للأمة أن تعلن عن نفسها بواسطة عدة شبكات معبرة .

وقد اندمج جهاز الراديو باعتباره تقنيو اعلامية ، واللغة الفرنسية باعتبارها دعامة اتصال ممكن في نفس الوقت تقريبا في حظيرة الأمة المكافحة.

لقد سبق أن رأينا أن أجهزة الراديو قد تضاعفت بنسب هائلة عند ظهور ((صوت الجزائر المقاتلة)) . فقبل عام 1954 لم تكن اداة الاستقبال ــ وهي التقنية الاذاعية لتبليغ الفكرة من مسافة بعيدة ــ مجرّد موضوع محايد في الجزائر . فجهاز الراديو باعتباره وسيلة يستخدمها الاحتلال لملء جسد الأمة قد اتخذ عند الشعب معاني خاصة ..

وكانت ادارة مفتاح الراديو قبل سنة 1954 تعني السماح ببث كلمة رجل الاحتلال واسناد الفرصة للغة هذا الأخير للتغلغل الى قلب البيت وهو آخر معقل سام من الرّوح الوطنية . لقد كان وجود جهاز الراديو داخل بيت جزائري قبل عام 1954 يشكل مثابة اندماج أروبي وإقبال عليه ، وانفتاح واع على تأثيرات الرّجل المسيطر . انه قرار ((يرخص الكلام لرجل الاحتلال)) . فاكتساب جهاز معناه القبول بحصار رجل الاحتلال من الداخل ، انه يؤشر الى أن صاحب الجهاز قد اختار أن يعيش داخل الإطار الاستعماري وهو ، بغير أدنى شك إلقاء السلاح أمام رجل الاحتلال .

لقد سبق لنا أن ذكرنا الأسباب التي كان الشعب يشرح بواسطتها تحفظاته ازاء الراديو فقد كان المبرر الأساسي آنذاك هو الحرص على الابقاء على الأشكال الاجتماعية التقليدية و نظام الإشراف العائلي في صورتهما السليمة .

كان يقال أحيانا : " اننا نجهل دائما البرنامج الذي سوف يعرض علينا)) و((يقال في البرنامج أي كلام كان)).و كانت تقدم أحيانا أخرى حجة دينية قاطعة : " انه راديو الكفار " . وقد رأينا أن مثل هذه المقولات العقلانية لا تشكل سوى ((ميكانيزمات)) مصطنعة غرضها تبرير رفض وجود رجل الاحتلال.

وبإنشاء ((صوت الجزائر المقاتلة)) وجد الجزائري نفسه ملزما الزاما حيويا بالاستماع الى رسالة واستيعابها وتحملها في الحين . أن شراء جهاز والركوع أمامه على ركبتين وإسناد الأذن إليه لم يصبح رغبة في اكتساب معلومات بل اصغاء _على مستوى التجربة الهائلة التي في البلاد_ الى الكلمات الأولى للأمة.

وهكذا يصبح جهاز الراديو اعتبارا لكون الجزائر قد قررت في مسيرتها أن تقص وتتكلم ، جهازا ضروريا . فهو الذي يسمح ((للصوت)) بأن يغرس جذوره للراديو معناه ((الدخول الى الحرب)) دخولا رسميا.

ويقرر الشعب الجزائري ، بفضل الراديو وهو الأداة التقنية المفروضة قبل عام 1954 دفع الثورة من جديد . لقد أصبح الجزائري وهو يستمع الى الثورة يحس بوجدانه معها ويعمل على تجسيدها .

وتبرز ذكريات الإذاعات الحرة ، المولودة خلال الحرب العالمية الثانية خاصية المثال الجزائري . فقد تمسكت شعوب بولوني وبلجيكا وفرنسا وهي خاضعة للاحتلال الألماني، بالصلة التي تربطها بصورة من صور أمتها ، وذلك من خلال الحصص المذاعة من لندن .

وكان يغذى عندئذ ويصان الأمل وروح المقاومة ضد رجل الاضطهاد .. ونتذكر على سبيل المثال ان الاستماع الى صوت فرنسا الحرة كان يعد شكلا من أشكال الوجود الوطني وأسلوبا من أساليب المعركة . وقد أشير الى المشاركة الساخنة للشعب الفرنسي بما فيه الكفاية حتى نؤكد على ذلك طويلا .

صحيح أن الاستماع الى صوت فرنسا الحرة من سنة 1940 الى سنة 1944 يعد استماعا مفضلا وأساسيا . لكن الاستماع إلى الإذاعة ، كسلوك من السلوكات لم يكن أمرا جديدا فقد أخذ صوت لندن مكانه ضمن القائمة الواسعة لمحطات الإرسال التي كانت موجودة لدى الفرنسي- منذ ما قبل الحرب . لقد كانت تنبعث عبر

السلوك الشامل للمستمع صورة رفيعة ، هي صورة فرنسا المحتلة التي تستقبل رسالة الأمل من "فرنسا الحرة" لكن الأمور في الجزائر كانت تكتسي مميزات خاصة . فثمة في بداية الأمر تجريد الآلة مما كان يرافقها من خصائص المنع والنهي قبل أن تكتسب الأداة تدريجيا ليس صبغة الحياد فحسب بل التمتع بمعامل ايجابي .

لقد كان الإقبال على التقنية الإذاعية و اقتناء جهاز للراديو و معايشة الأمة في كفاحها من الأمور المتطابقة .

فالإقبال الجنوني للشعب على اخلاء كل مخزونات أجهزة الراديو يقدم صورة على درجة كافية من الدقة عن رغبته في المشاركة في الحوار القائم منذ عام 1955 بين المحارب والأمة.

ليس راديو الجزائر ، في المجتمع الخاضع للاستعمار صوتا بين أصوات أخرى ، بل هو ((صوت رجل الاحتلال)). فالاستماع الى ((راديو الجزائر)) معناه تقبل السيطرة ، واظهار الرغبة في التعايش مع الاضطهاد . انه بمثابة اعطاء حق للعدو . ان ادارة ازرار الراديو يعني تأكيد الصيغة ((هنا الجزائر، محطة الاذاعة الفرنسية)). وبالتالي فاقتناء الراديو من طرف الرجل الخاضع للاستعمار معناه استسلام هذا الأخير لنظام العدو و استعداده لطرد الأمل من قلبه.

وخلافا لذلك فان وجود ((صوت الجزائر المحاربة)) يغير من معطيات المسألة تغييرا عميقا . وبالفعل فان كل جزائري يحس بأنه مدعو ويريد أن يصبح عنصرا عاكسا لشبكة المعاني الواسعة المتولدة عن معركة التحرير . ان الحرب وهي مصدر

للأحداث اليومية ذات الطابع العسكري أو سياسي هي محل تعليق واسع في برامج الاعلام التابعة للاذاعات الاجنبية ، وينفصل صوت الجبال في الدرجة الأولى . لقد رأينا ان الطابع الشبحي و غير المسموع لهذا الصوت لا يضر في شيء من حقيقته الممتدة ولا من سلطانه . ان ((راديو الجزائر)) و اذاعة الجزائر يفقدان كلاهما ما لهما من خصائص السيادة .

لقد انقضى من الآن فصاعدا ذلك الوقت الذي كانت إدارة أزرار الراديو بصورة آلية تشكل فيه دعوة موجهة للعدو . فقط أصبح الراديو كأداة تقنية يتخذ عند الجزائري صبغة مخالفة . فهو لم يعد ملحقا بفم رجل الاحتلال بشكل مباشر بل من على يمين شريط الإرسال في راديو الجزائر و من على يساره أصبح بالإمكان إلتقاط محطات لا حصر لها يتيسر للجزائري من خلالها التميز بين الأصدقاء و المتواطئين مع الأعداء و المحايدين و أن إقتناء جهاز في هذه ظروف لا يعني الوقوع رهن الاشارة رجل الاحتلال ولا اعطاءه فرصة الكلام ولا إثارة الضغائن .انه على العكس من ذلك، وعلى مستوى الإعلام في معناه الدقيق،ابراز الرغبة في الابتعاد عن الاعلام العدو و في الاستماع الى أصوات أخرى و في انفتاح على آفاق أخرى .

ان الجزائري قد اختبر و اكتشف خلال حرب التحرير وبفضل انشاء ((صوت الجزائر المكافحة)) وجود أصوات أخرى غير صوته القديم وغير الصوت المضخم بأشكال لا حدود لها لرجل المسيطر .

ان المونولـوج القـديم للوضـعية الاسـتعمارية الـتي زعزعهـا بعـد وجـود الكفـاح قـد اختفى كليا ابتداء من عام 1956 .

قـد بـدا يكشـف الآن ((صـوت الجزائـر المكافحـة)) وكل الأصـوات الـتي يلتقطهـا جهـاز الاسـتقبال الجزائـري عـن طـابع سريـع الـزوال و النسـبي و الخاضـع للصـوت الفرنسـي الذي كان يعـرض حـتى هـذه الفـترة كصـوت وحيـد ، لقـد فقـد صـوت رجـل الاحتلال عادته المعهودة .

إن ((كلمـة)) الأمـة و ((فعـل)) الأمـة أصـبحا يـنظمان العـالم وهـما يعمـلان على تجديده .

لقد نبـذ مجتمع السـكان الاصـليين في مجموعـه جهـاز الإرسـال قبـل عـام 1954 وانغلـق على نفسـه امـام التطـور التقني لطـرق الاعلام . ان مجتمع الجزائـري كلـه يـرفض الإذاعـة ولا يتخـذ موقفـا متقـبلا لمسـتوردات رجـل الاحـتلال . فالجهـاز في الوضـعية الاسـتعمارية لا يلـبي أيـة حاجـة مـن حاجـات الجزائـري بـل ينظـر اليـه ، كـما راينـا ذلك مـن قبـل ، كوسـيلة يسـتخدمها العـدو لمواصـلة عمـله في ((تفتيـت الشخصـية الجزائرية)) من غير ان يلفت الانتباه .

ان الكفـاح الـوطني وإنشـاء ((راديـو الجزائـر الحـرة)) قـد احـدثا في أوسـاط الشـعب تحولا أساسيا . فقد اخترق راديو الجزائر بالقوة وليس بالتدريج .

اننـا نشـاهد انقـلابا كليـا للأوضـاع في وسـائل الإدراك بـل في عـالم الادارك ذاتـه . وذلك انـه لم يكـن في واقـع الأمـر في الجزائـر اتجـاه الراديـو موقـف متقبـل او مشـترك او

موافق . فنحن نلحظ وكعملية عقلية ابتداء من عام 1956((ما يشبه اختراعا في التكنيك)).

ان ((صوت الجزائر)) الذي انشأ من العدم قد اوجد الأمة و سلم لكل مواطن كيانا جديدا عرفه له بوضوح . لقد تعود الجنود الفرنسيون ابان العمليات و ابتداء من عام 1957 على مصادرة جميع الأجهزة كما منع في الوقت نفسه التقاط حصص معينة . لكن الامور قد تطورت اليوم .فقد تضاعف ((صوت الجزائر المكافحة)). واصبحت تداع من تونس ودمشق والقاهرة والرباط برامج لفائدة الشعب ينظمها الجزائريون أنفسهم . ولم تدع المصالح الفرنسية تحاول التشويش هذه الحصص القوية والعديدة .

ان كل جزائري يملك اليوم فرصة الاستماع الى خمس او ست حصص متنوعة تداع بالعربية او الفرنسية يتمكن بفضلها من متابعة التطور المظفر للثورة خطوة فخطوة . لقد رأينا على مستوى الاعلام كيف حدث ابطال قيمة كلمة رجل الاحتلال. فقد اصبح جهاز الراديو ، بعد فرض الصوت الوطني مقابل مونولوج الرجل المسيطر يستقبل الاشارات المذاعة من جميع ارجاء العالم . ان ((اسبوع التضامن)) مع الجزائر، المنظم من طرف الشعب الصيني او مقررات مؤتمر الشعوب الافريقية عن حرب الجزائر تربط الفلاح بالموجة الهائلة القلاعة لجذور الطغيان .

سوف يكون لراديو الذي امتزج في هذه الظروف بحياة الامة في رحلة تشييد بلاد اهمية مميزة فلا يجوز بعد الحرب ان يحدث في الجزائر عدم تلاؤم بين الشعب

وبين ما يعد معبرا عنه . يجب ان تحل تربية ثورية لبقاء الامة محل تربية ثورية لكفاح التحرير وحينئذ نقدر ما يمكن ان تقدمه هذه أداة المتمثلة قي جهاز الراديو من استخدام مثمر.

لقد عرفت الجزائر تجربة مميزة . فقد كان الراديو بالنسبة للكثيرين ومدة سنوات عديدة وسيلة من وسائل رفض الاحتلال والايمان بالتحرير..وقد فتح التطابق القائم بين صوت الثورة الحقيقة الاساسية للأمة آفاقا لاحدود لها .

الملحق الثاني:
رسائل فرانز فانون

الملحق الثاني: رسائل فرانز فانون

أولا : رسالة الاستقالة

Frantz Fanon : LETTRE AU MINISTRE RESIDENT

Le Docteur Frantz Fanon Médecin des Hôpitaux Psychiatriques Médecin-Chef de service à L'Hôpital Psychiatrique de BLIDA-JOINVILLE

A

Monsieur le Ministre Résident Gouverneur Général de l'Algérie ALGER

Monsieur Le Ministre,

Sur ma demande et par arrêté en date du 22 octobre 1953, Monsieur le Ministre de la Santé Publique et de la Population a bien voulu me mettre à la disposition de Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie pour être affecté à un Hôpital Psychiatrique de l'Algérie. Installé à l'Hôpital Psychiatrique de Blida-Joinville le 23 novembre 1953, j'y exerce depuis cette date les fonctions de Médecin-Chef de service. Bien que les conditions objectives de la pratique psychiatrique en Algérie fussent déjà un défi au bon sens, il m'était apparu que des efforts devaient être entrepris pour rendre moins vicieux un système dont les bases doctrinales s'opposaient quotidiennement à une perspective humaine authentique. Pendant près de trois ans je me suis mis totalement au service de ce pays et des hommes qui l'habitent. Je n'ai ménagé ni mes efforts, ni mon enthousiasme. Pas un morceau de mon action qui n'ait exigé comme horizon l'émergence unanimement souhaitée d'un monde valable.

Mais que sont l'enthousiasme et le souci de l'homme si journellement la réalité est tissée de mensonges, de lâchetés, du mépris de l'homme ? Que sont les intentions si leur incarnation est rendue impossible par l'indigence du cœur, la stérilité de l'esprit, la haine des autochtones de ce pays ?

La Folie est l'un des moyens qu'a l'homme de perdre sa liberté. Et je puis dire, que placé à cette intersection, j'ai mesuré avec effroi l'ampleur de l'aliénation des habitants de ce pays. Si la psychiatrie est la technique médicale qui se propose de permettre à l'homme de ne plus être étranger à son environnement, je me dois d'affirmer que l'Arabe, aliéné permanent dans son pays, vit dans un état de dépersonnalisation absolue.

Le statut de l'Algérie ? Une déshumanisation systématique.

Or le pari absurde était de vouloir coûte que coûte faire exister quelques valeurs alors que le non-droit, l'inégalité, le meurtre multi-quotidien de l'homme étaient érigés en principes législatifs. La structure coloniale existant en Algérie s'opposait à toute tentative de remettre l'individu à sa place.

الملحق الثاني: رسائل فرانز فانون

Monsieur le Ministre il arrive un moment où la ténacité devient persévération morbide. L'espoir n'est plus alors la porte ouverte sur l'avenir mais le maintien illogique d'une attitude subjective en rupture organisée avec le réel ?

Monsieur le Ministre, les événements actuels qui ensanglantent l'Algérie ne constituent pas aux yeux de l'observateur un scandale. Ce n'est ni un accident, ni une panne de mécanisme.

Les événements d'Algérie sont la conséquence logique d'une tentative avortée de décérébraliser un peuple. Il n'était point exigé d'être psychologue pour deviner sous la bonhomie apparente de l'Algérien, derrière son humilité dépouillée, une exigence fondamentale de dignité. Et rien ne sert, à l'occasion de manifestations non simplifiables, de faire appel à un quelconque civisme. La fonction d'une structure sociale est de mettre en place des institutions traversées par le souci de l'homme. Une société qui accule ses membres à des solutions de désespoir est une société non viable, une société à remplacer.

Le devoir du citoyen est de le dire. Aucune parole professionnelle, aucune solidarité de classe, aucun désir de laver le linge en famille ne prévaut ici. Nulle mystification pseudo-nationale ne trouve grâce devant l'exigence de la pensée.

Monsieur le Ministre, la décision de sanctionner les grévistes du 5 juillet 1956 est une mesure qui, littéralement, me paraît irrationnelle. Ou les grévistes ont été terrorisés dans leur chair et celle de leur famille, alors il fallait comprendre leur attitude, la juger normale, compte tenu de l'atmosphère.

Ou leur abstention traduisait un courant d'opinion unanime, une conviction inébranlable, alors toute attitude sanctionniste était superflue, gratuite, inopérante.

Je dois à la vérité de dire que la peur ne m'a pas paru être le trait dominant des grévistes. Bien plutôt il y avait le vœu inéluctable de susciter dans le calme et le silence une ère nouvelle toute de dignité et de paix.

Le travailleur dans la cité doit collaborer à la manifestation sociale. Mais il faut qu'il soit convaincu de l'excellence de cette société vécue. Il arrive un moment où le silence devient mensonge.

Les intentions maîtresses de l'existence personnelle s'accommodent mal des atteintes permanentes aux valeurs les plus banales.

Depuis de longs mois ma conscience est le siège de débats impardonnables. Et leur conclusion est la volonté de ne pas désespérer de l'homme, c'est-à-dire de moi-même.

Ma décision est de ne pas assurer une responsabilité coûte que coûte, sous le fallacieux prétexte qu'il n'y a rien d'autre à faire.

الملحق الثاني: رسائل فرانز فانون

Pour toutes ces raisons, j'ai l'honneur, Monsieur le Ministre, de vous demander de bien vouloir accepter ma démission et de mettre fin à ma mission en Algérie, avec l'assurance de ma considération distinguée.

FRANTZ FANON

ثانيا : رسالة من جبهة القتال إلى والديه

12 *Avril 1945*

Chers parents,

Aujourd'hui, 12 avril. Un an que j'ai laissé Fort-de-France. Pourquoi ? Pour défendre un idéal obsolète. Je crois que cette fois j'y resterai. Dans toutes les bagarres où j'ai été, j'ai toujours eu le souci de vous revenir et aussi de la veine. Mais je me demande en ce jour si l'épreuve ne me sera pas imposée de sitôt. Je doute de tout, même de moi.

Si je ne retournais pas, si vous appreniez un jour ma mort face à l'ennemi, consolez-vous, mais ne dites jamais : il est mort pour la belle cause. Dites:«Dieu l'a rappelé à lui », car cette fausse idéologie, bouclier des laïciens et des politiciens imbéciles ne doit plus nous illuminer. Je me suis trompé !

Rien ici, rien qui justifie cette subite décision de me faire le défenseur des intérêts du fermier quand lui-même s'en fout.

On nous cache beaucoup de choses. Mais vous les saurez par Manville ou Mosole. Nous sommes trois au régiment. Dispersés, nous nous écrivons et quand bien même disparaîtraient deux, le troisième vous révélera les affreuses vérités.

Je pars demain, volontaire pour une mission périlleuse, je sais que j'y resterai.

FRANTZ FANON

الملحق الثاني: رسائل فرانز فانون

ثالثا : رسالة إلى فرنسي

F.Fanon : Lettre à un Français 1956

Quand tu m'as dit ton désir de quitter l'Algérie, mon amitié soudain s'est faite silencieuse ? Certes de images surgies, tenaces et décisives étaient à l'entrée de ma mémoire. Je te regardais et ta femme à côté. Tu te voyais déjà en France… De nouveaux visages autour de toi, très loin de ce pays où depuis quelques jours les choses décidemment ne vont pas bien. Tu m'as dit, l'atmosphère se gâte, il faut que je m'en aille. Ta décision sans être irrévocable parce que tu l'avais exprimée, progressivement prenait forme. Ce pays inexplicablement hérissé ! Les routes qui ne sont plus sûres. Les champs de blé transformés en brasiers. Les Arabes qui sont méchants. On raconte. On raconte. Les femmes seront violées. Les testicules seront coupés et fichés entre les dents. Rappelez-vous Sétif ! Voulez-vous un autre Sétif ? Ils l'auront mais pas nous. Tu m'as dit tout cela en riant. Mais ta femme ne riait pas. Et derrière ton rire j'ai vu. J'ai vu ton essentielle ignorance des choses de ce pays. Des choses car je t'expliquerai. Peut-être partiras-tu, mais dis-moi, quand on te demandera : « Que se passe-t-il en Algérie ? » Que répondras-tu ? Quand tes frères te demanderont : qu'est-il arrivé en Algérie ? Que leur répondras-tu ? Plus précisément quand on voudra comprendre pourquoi tu as quitté ce pays, comment feras-tu pour éteindre cette honte que déjà tu traînes ? Cette honte de n'avoir pas compris, de n'avoir pas voulu comprendre ce qui autour de toi s'est passé tous les jours. Huit ans durant tu fus dans ce pays. Et pas un morceau de cette énorme plaie qui t'ait empêché ! Et pas un morceau de cette énorme plaie qui t'est obligé ! De te découvrir enfin tel. Inquiet de l'Homme mais singulièrement pas de l'Arabe. Soucieux, angoissé, tenaillé. Mais en plein champ, ton immersion dans la même boue. Dans la même lèpre. Car pas un Européen qui ne se révolte, ne s'indigne, de s'alarme de tout, sauf du sort fait à l'Arabe. Arabes inaperçus. Arabes ignorés. Arabes passés sous silence. Arabes subtilisés, dissimulés. Arabes quotidiennement niés, transformés en décor saharien. Et toi mêlé à ceux : Qui n'ont jamais serré la main à un Arabe. Jamais bu le café. Jamais parlé du temps qu'il fait à un Arabe. A tes côtés les Arabes. Ecartés les Arabes. Sans effort rejetés les Arabes. Confinés les Arabes. Ville indigène écrasée. Ville d'indigènes endormis. Il n'arrive jamais rien chez les Arabes. Toute cette lèpre sur ton corps. Tu partiras. Mais toutes ces questions, ces questions sans réponse. Le silence conjugué de 800.000 Français, ce silence ignorant, ce silence innocent. Et 9.000.000 d'hommes sous ce linceul de silence. Je t'offre ce dossier afin que nul ne meure, ni les morts d'hier, ni les ressuscités d'aujourd'hui. Je veux ma voix brutale, je ne la veux pas belle, je ne la veux pas pure, je ne la veux pas de toutes dimensions. Je la veux de part en part déchirée, je ne veux pas qu'elle s'amuse car enfin, je parle de l'homme et de son refus, de la quotidienne pourriture de l'homme, de son épouvantable mission. Je veux que tu racontes. Que je dise par exemple : il existe une crise de la scolarisation en Algérie, pour que tu penses : c'est dommage il faut y remédier. Que je dise : un Arabe sur trois cents qui sache signer son nom, pour que tu penses : c'est triste, il faut que cela cesse. Ecoute plus avant : Une directrice d'école se plaignant devant moi, se plaignant à moi d'être obligée chaque année d'admettre dans son école de nouveaux petits Arabes. L'analphabétisme de ces petits bicots qui croît à la mesure même de notre silence. Instruire les Arabes, mais vous n'y pensez pas. Vous voulez donc nous compliquer la vie. Ils sont bien comme ils sont. Moins ils comprennent, mieux cela vaut. Et où prendre les crédits. Cela va vous coûter les deux yeux de la tête. D'ailleurs ils n'en demandent pas tant. Une enquête faite auprès des Caïds montre que l'Arabe ne réclame pas d'écoles. Millions de petits cireurs. Millions de « porter madame ». Millions de donne-moi un morceau de pain. Millions d'illettrés « ne sachant pas signer, ne signe, signons ». Millions d'empreintes digitales sur les procès-verbaux qui conduisent en prisons. Sur les actes de Monsieur le Cadi. Sur les engagements dans les régiments de tirailleurs algériens. Millions de fellahs exploités, trompés, volés. Fellahs agrippés à quatre heures du matin, abandonnés à huit heures du soir. Du soleil à la lune. Fellahs gorgés d'eau, gorgés de feuilles, gorgés de vieille galette qui doit faire tout le mois. Fellah immobile et tes bras bougent et ton dos courbé mais ta vie arrêtée. Les voitures passent et vous ne bougez pas. On vous passerez sur le ventre que vous ne bougeriez pas. Arabes sur les routes. Bâtons passés dans l'anse du panier. Panier vide, espoir vide, toute cette mort du fellah. Deux cent cinquante francs par jour. Fellah sans terre. Fellah sans raison. Si vous n'êtes pas contents vous n'avez qu'à partir. Des enfants pleins la case. Des femmes pleines dans les cases. Fellah essoré. Sans rêve. Six fois deux cent

الملحق الثاني: رسائل فرانز فانون

cinquante francs par jour. Et rien ici ne vous appartient. On est gentil avec vous, de quoi vous plaigniez-vous ? Sans nous que feriez-vous ? Ah, il serait joli ce pays si nous nous en allions ? Transformé en marais au bout de peu de temps, oui ! Vingt-quatre fois deux cent cinquante francs par jour. Travaille fellah. Dans ton sans l'éreintement prosterné de toute une vie. Six mille francs par mois. Sur ton visage le désespoir. Dans ton ventre la résignation… Qu'importe fellah si ce pays est beau. ***F.Fanon***

(Lettre inédite publié dans Pour la Révolution africaine, Maspero, 1969)

الملحق الثالث:

صـــور

1- ضريح فرانز فانون بمقبرة الشهداء بعين الكرمة

2- مستشفى الأمراض العقلية - بليدة "جوانفيل"

3- مع هيئة تحرير بجريدة "المجاهد" - لسان جبهة التحرير الوطني

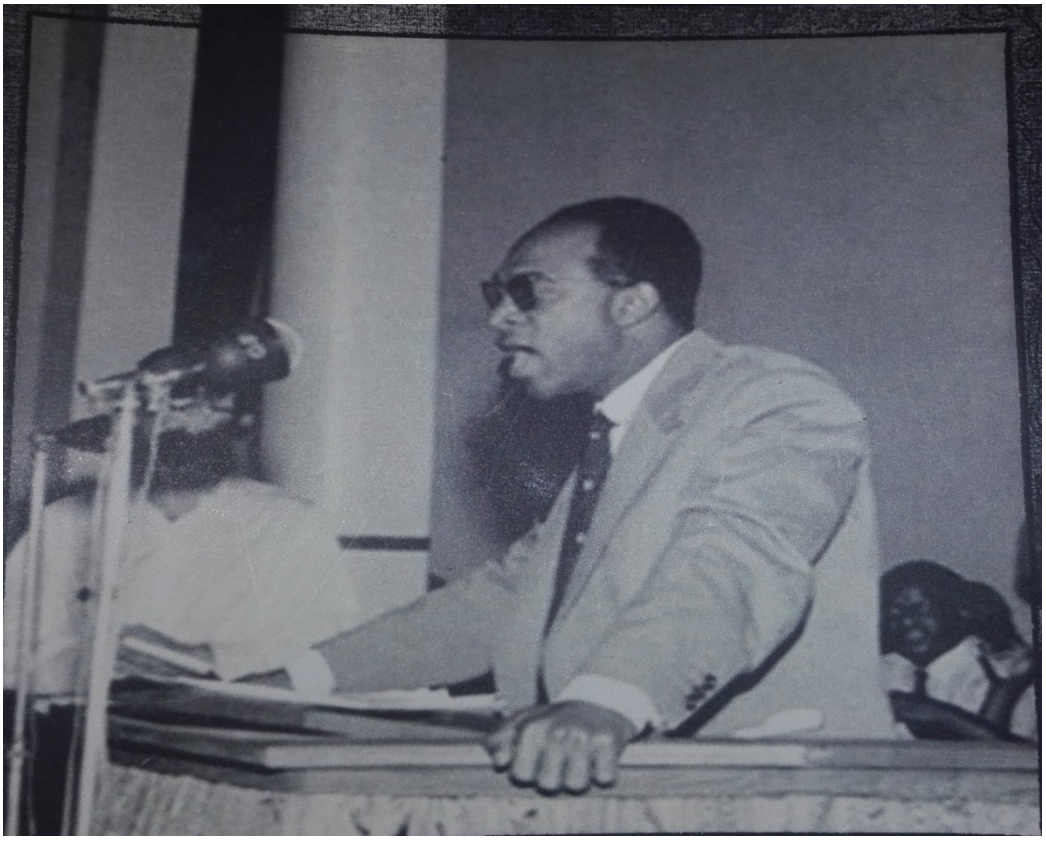

4- مندوب الجزائر بمؤتمر آكرا

Résumé :
Notre étude tend à décrypter les traits expressifs de la personnalité algérienne, comme illustrée dans les écrits de Franz Fanon, de manière à percevoir son originalité et son adéquation avec l'environnement socio-culturel. En véritable anthropologue, alliant théorie et pratique par son engagement au sein de la révolution, Fanon décrit les nouvelles attitudes adoptées par la personnalité algérienne comme stratégie de survie positive face au danger colonial, renversant l'ensemble de ses convictions marxistes-léninistes, et rejetant l'approche substantialiste et primordialiste de la culture véhiculée par le colonisateur visant la déshumanisation de l'Algérien. Le génie prévisionniste de Fanon constitue aujourd'hui la référence fondamentale des études postcoloniales. Sa voix, éteinte depuis plus d' ½ siècle, résonne toujours au cœur des problématiques politiques et nationales actuelles, consacrant Fanon incontestablement comme maître à penser et leader de ces études modernes.
Résumé :
***Mots clés** : Personnalité – Colonial –* anthropologue - déshumanisation - études postcoloniales

Abstract :
Our study tends to decipher the expressive features of the Algerian personality, as illustrated in the writings of Franz Fanon, in order to perceive its originality and its adequacy with the socio-cultural environment. As a true anthropologist, combining theory and practice through his commitment to the revolution, Fanon describes the new attitudes adopted by the Algerian personality as a positive survival strategy in the face of colonial danger, reversing all his Marxist-Leninist convictions, and rejecting the substantialist and primordialist approach of culture conveyed by the colonizer aimed at the dehumanisation of the Algerian. Fanon's forecasting genius is now the fundamental reference for postcolonial studies. His voice, extinguished for more than a century, still resonates at the heart of current political and national issues, enshrining Fanon unquestionably as a master of thought and leader of these modern studies.
***Key words** :* Personality - Colonial - anthropologist - dehumanisation - postcolonial studies

الملخص:
إتجه حرصنا في هذه الدراسة إلى رسم الملامح المعبرة للشخصية الجزائرية كما تجلت في كتابات فرانز فانون لتتضح لنا صورتها ولنستجلي مدلولها وتكوينها والحكم على نضجها وتوافقها مع المحيط الاجتماعي الثقافي. باعتباره عالم انتروبولوجيا حقيقي يجمع بين النظرية والممارسة بحكم انضمامه في صفوف الثورة، يصف فانون المواقف الجديدة التي اتخذتها الشخصية الجزائرية كإستراتيجية بقاء ايجابي في مواجهة الخطر الاستعماري. إنه ينقض مجموع اقتناعاته الماركسية اللينينية رافضا المقاربة الجوهرية الأساسية للثقافة الاستعمارية الهادفة إلى تجريد الجزائري من انسانيته. العبقرية التنبؤية لفانون غذت اليوم المرجع الأساسي في مجال الدراسات ما بعد الكولونيالية ، حيث لا يزال صوته الذي انطفأ لأكثر من نصف قرن يتردد صداه في صميم الاشكالات السياسية والوطنية الراهنة، مكرسة "فانون" بلا منازع كسيد لهذا الفكر وزعيم لهذه الدراسات الحديثة. دراستنا تتبع كرونولوجي لكتابات فانون مصنفة زمانا ومكانا قفز فيه من التمرد على الزنوجة سجلها في كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" إلى معايشته للثورة الجزائرية سجلها في كتابه "سوسيولوجية ثورة" إلى مرحلة الأممية سجلها في "معذبو الأرض" فكان تحليله فيها بتقديرنا مثابة وثيقة تاريخية هامة ومدخل رئيسي لدراسة الهوية الجزائرية من الناحية السيكوسوسيولوجية
مفتاحية كلمات : الشخصية - الاستعمار - أنثروبولوجيي - التجريد من الإنسانية - دراسات ما بعد الكولونيالية